محمد برادة

بعيداً من الضوضاء، قريباً من السُكات

رواية

دار الآداب



محمّد برادة

بعيدًا من الضوضاء،

قريبًا من السُكات

رواية

دار الآداب ـ بيروت

بعيدًا من الضوضاء، قريبًا من السُكات

بعيدًا من الضوضاء، قريبًا من السُكات

محمّد برادة / كاتب مغربي

الطبعة الأولى عام 2014

ISBN 978-9953-89-296-2

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون مع:

© Edition Le Fennec, 91 B. Bd D'Anfa, 2000 Casablanca - Maroc - 2014

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الراجي: مُساعِدُ المُؤرّخ

(تاريخ الولادة: ١٩٧٥)

إيلا حبّوكْ ارتاحْ

عند باب الڤيلّا الصغيرة في زنقة وادْ بَهْتْ بحيٍّ أكدال، أضغطُ على الجرس ثلاث مرّات، حسب الاتّفاق، وأديرُ المفتاحَ لأجدها مبتسمة تنتظرني واقفة على باب غرفة الأكل. أتقدّم بسرعة نحوها لأحتضنها وأقبّلها في شوْق. الساعة تقترب من التاسعة ليلاً، وعلى المائدة أطباق شهيّة أعدّتْها رقيّة بمهارتها المعهودة. أتطلّع إليها مُتأمّلاً جسمها المتناسق ولباسها التقليديّ، القفطان وَالمنصوريّة، الذي تحبّ أن تستقبلني به كلّ ليلة خميس، موعدنا الأسبوعي منذ أكثر من سنة. منذ العاشرة من عمري وأنا أعرفها لأنّ لها قرابة بأمّي: ريحة الشحمة في الشاقور (الساطور). كانت باستمرار تتردّد على منزلنا قبل أن تتزوّج من رجل يكبرها بثلاثين سنة، له دكّان للثياب والأجواخ في قيساريّة الرباط، يحبّها ويُدلّلها، ما جعله يُملّكُها ڤيلّا وسيّارة قبل موته منذ سنتيْن. بعد مُغادرته هذه الحياة الدنيا، فُتِح الطريق أمامي لأصير عشيقها

المُداوم، بعد أن كانت علاقتنا تقتصر على الغزَل والدعابات والقُبلات المسروقة على السلّم.

يلذُّ لها، ونحَن على المائدة، أن تنتقيَ قطعًا من اللحم أو الدجاج تضعُها في فمي وهي تقول «كلْ ألعزيز». هي تعرف أنّني لم أجد عملاً بعد حصولي على إجازة في التاريخ وأنّني أعيش في ردهة الانتظار، مستعينًا بالدراهم التي تدسّها أمّي في يدي داعيةً لي بالتوفيق وبـ «خبزة سمينة» تُناسب الجهود التي بذلتها سنواتٍ في الكلِّيّة لأفوز بهذه الشهادة التي لا قيمة لها في سوق العمل. أحسُّني وأنا أنظر إلى رقيّة الآن، مُفعمًا بمسرّةٍ لا أستطيع تحديد طبيعتها. أعرف أنّه ليس الحبّ، أي ذلك التّوَلُّه الذي يمتلك مجموع الفكر والحواسّ ويختزل الدنيا في إنسانة واحدة... إلّا أنّني، خلال اللقاء الأسبوعي، أنسى كلّ المُنغّصات وأرتاد عالمًا يليق بشابّ مثلي يحبّ الحياة ويكتنزُ طاقة هائلة لاستكشاف ما تنطوي عليه من أسرار ومتاهات ولحظات مُميّزة. وأكاد أجزِمُ أيضًا أنّ عواطف رقيّة تجاهي لا تندرج في خانة الحبّ بمعناه الرومانسي الحالم. بل هي كانت في حاجة إلى علاقتنا لتتّكئ عليها في تحقيق مشروعها الملائم لوضعيّتها داخل مجتمع لا يحترم المرأة الضعيفة، المُعتمدة على غيرها في مصادر الرزق. زوجها كانت تُدلّله وتحترمه، تُطيعه وتُغدق عليه الحنان والاهتمام أمام الآخرين. كأنّما غريزتها كانت تُوجّه خطواتها لتضمَنَ، بعد موته، استقلالاً مادّيًا ووضعيّة تقِيها من «دوايَرْ» الزمان وإذلال مَنْ يستلذّونَ امتِهانَ المرأة، زوجةً كانت أمّ عشيقة. وأنا كنتُ محتاجًا إلى علاقة مثل هذه، تُسعفني على اجتياز طريق قفْر لا أعلم متى

أغادره. محتاج إلى حضور أنثوي يشدّ وثاقي إلى الوجود في مناخ مُحيطٍ يزداد عتمة وانبهامًا، ويُلوّح بقساوة تتعاظم شهرًا بعد شهر.

عندما استشارتْني رقيّة في نوعيّة المشروع الذي يكفل لها الاستقرار والاستقلال، اقترحتُ عليها أن تفتح محلًّا لخياطة وبيع القفاطين والمنصوريّات الجاهزة، على غرار ما هو رائج في مدينة الدار البيضاء حيث فئة من النساء المتعلّمات المُتحدّرات من عائلات بورجوازيّة تتولّى تجديد تفصيلِ القفطان ومُلاءمته مع أذواق الموضة العالميّة «لكن، ليس لي خبرة في الموضوع»، اعترضتْ. قلتُ لها إنّ مستواها وذكاءها وعلاقاتها الاجتماعيّة كفيلة بأنْ تُكسبها الخبرة اللازمة، وعليها أن تبادر من دون تردّد؛ ثم أضفتُ بأنّني أقترح أن تسمّي المحلَّ «القفطان الناعم» لتجذب النساء النواعم!

خلال ثلاثة أشهر أصبح المحلّ جاهزًا وانطلقتْ رقيّة بخطًى حثيثة ومُثابرة حريصة على النجاح. سرعان ما استعادتْ جمالها المتألّق الذي كان مُتواريًا أثناءَ ما كانت تعيش إلى جانب الزوج الكهل. غيّرتْ تسريحة الشعر، واختارت ألوانًا زاهية لفساتينها وجُزداناتها، وانتعلتْ الكعبَ العالي فتَمَوْسقَتْ خُطاها واكتسبتْ هِندامًا (look) شبابيًّا يُدير الأعناق. أنظر إليها في حُلّتها الجديدة وأراقب إدارتها الحازمة لـ «القفطان الناعم»، فأحسّ بسعادة غامضة، ملتبسة، تُعوّضني عن عطالتي وانتظاري عملاً يبدو مستحيلاً. كنتُ أتحاشى أثناء لقاءاتنا الأسبوعيّة أن أحدّثها عن مشكلاتي، بل أبدو هادئًا، متماسكًا، مهتمًّا بتحضير أطروحة

السلك الثالث عن «علاقة العلماء بالسلطان المولى إسماعيل»، وأحكي لها نوادر وقصصًا قرأتها في الموضوع. كلّ شيء في علاقتنا يسير باتّجاه تكريس مبدإ المتعة الخالصة، على رغم أنّها مطلب صعب المنال لا يلقى قبولاً عند معظم الناس. طوالَ ساعات من لقاءاتنا، كنتُ أحضّها على إنجاح مشروع «القفطان الناعم» وكأنّه طفلٌ وليد مشترك بيننا.

هذا المساء، بعد العشاء اللذيذ والجولة الأولى على الفراش، شهقتُ بصوت عالٍ وأنا أبلغ ذروةَ الجِماع، ورقيّة تُوَحْوحُ متجاوبة مع ارتعاشتي. أستَلُّ جسدي من جسدها وكأنّني أسقط من شاهقٍ علويّ إلى منبسط أرضيّ. أغمضُ عينيّ ملاحقا تلك اللحظة السحريّة المُنفلتة التي تضيء، كالوَمْض، منطقةً غامضة من كياني. أقول مع نفسي، لولا هذه اللحظات الراجفة، ما كانت الحياة تستحقّ أن نتعلّق بها.

وها صوتُها يأتيني ناعمًا، تلقائيًّا، وهي تُملّس صدري وتداعب شُعيْراته: نسيتُ أن أقول لك بأنّ زوجة الأستاذ الرحماني سألتْني إنْ كنتُ أعرف مُتخرّجًا من شعبة التاريخ يريد أن يشتغل مع زوجها لتحضير كتاب عن تاريخ المغرب الحديث؛ وكلّ ما يستطيع أن يدفعه لهذا المساعد هو مبلغ ألفيْ درهم في الشهر.

كنتُ قد قرأت بعض ما كتبه المؤرّخ الرحماني ووجدتُ فيه حرصًا على استكناه الحقائق، وإنْ كان منهجه يفتقر، في نظري، إلى مفهوم حديث. لكن وضعيّتي لم تكن تسمح لي بالتردّد أو

الرفض، فقرّرتُ الاتّصال به.

استقبلني في مكتبته العامرة التي تحتلّ غرفة كبيرة من الطابق العُلوي للفيلّا. بدا لي بشوشًا، محتفيًا بي، لا يفتأ يردّد بأنّه كان يعرف والدي قبل موته، وأنّ الأصل الطيّب يُنتج النّقلة الطيّبة، وأنّه يُدرك مدى مُعاناة الشباب المتخرّج من الجامعات مع البطالة وانسداد الآفاق أمامهم. بعد ذلك، تحدّث بإسهاب عن مشروعه والأسئلة التي تُؤرقهُ منذ ثلاثين سنة، وها قدْ جاوز السبعين من عمره وهو لا يكاد يجد تفسيرًا لما عاشه قبل الاستقلال وبعده، لأنّ تناقض الأحداث والمواقف يُبلبل فكره، والأيّام تجري بسرعة مُفرطة حتى ليُخيّل إليه أنّها تمتطي حصانًا تسوطُه أيْدٍ خفيّة فيجري طائرًا في الهواء! وعلى رغم أنّه شارك في الكفاح الوطني وخالطَ النّخَبَ والجماهير، فإنّه يحسّ نفسه غريبًا «غُربة الأيتام في مأدبة اللئام» (ردّد هذه العبارة مرّتيْن). لذلك قرّر أن يُواجه المشكلة بِحزمٍ وعزم ليصل إلى ما يُطمئنه ويُثلج صدره، وفي الآن نفسه ينشرُ في الناس نتائج بحثه ليبدّد ما يشغل بالَهُم ويجعلهم حائرين مُدوّخين، لا يكادون يتعرّفون على أنفسهم وما حولهم، مُعرضين عن التساؤل، لا يتوقّفون عن الجري في حلبة سباق تستنزف أنفاسهم.

أختصر لك القول ـ يضيف الأستاذ الرحماني ـ أنا لا أريد أن أكرّر ما يكتبه بعض المؤرّخين والصحفيين، وإنّما أريد أن أطرق أبوابَ مَنْ لم يتكلّموا بعد عن تلك الفترة الحافلة، وأن أصل إلى مظانّ كثيرًا ما تُغفل عند السعي إلى التأريخ. صحيح

أنّني مُخضرم ولي جذور ضاربة في أعماق التراث، لكنّني أهتمّ بما هو حديث وأصغي إلى ما يقترحه العصر. لذلك أريد أن أستعين بك لتجمع لي مادّة أعتمدها في التحليل والبرهنة والمُقارنة. وضعيّتي الصحّيّة وسنّي لا تسمحان لي بأنْ أتجوّل عبر البلاد وأطرق الأبواب طلَبًا لشهادة الفاعلين؛ وأريد أن تتولّى أنت هذه المهمّة، مُستهدِيًا بأسئلة ثلاث تطرحها على من تستفتيهم:

١) ماذا تعني مقاومة الاستعمار وما الذي كنتَ تنتظره من الاستقلال؟

٢) كيف ترى أنّ الأزمة تعبّر عن نفسها الآن من خلال الواقع اليومي؟

٣) هل نتوفّر على الشروط الضروريّة للانخراط في الألفيّة الثالثة؟

أبديتُ حماسًا للعمل مع الأستاذ الرحماني وقلتُ له إنّ الأسئلة نفسها تشغلُني كمؤرّخ مُبتدئ، وسأبذل جهدي لأسْتقِيَ الأجوبة عبر معالم تضُمّ تشكيلة اجتماعيّة متنوّعة، مِنْ مقاومين سابقين ومناضلي أحزاب، وقادة نقابيين وسياسيين ومثقّفين ثوريين، دون أن أنسى المحامين والأطبّاء والقضاة رجالاً ونساء... وكلّ ما سيتَفوّهونَ به سأحلّله عموديًّا وأفقيًّا لاستخلاص الخلفيّة الكامنة وراء كلّ خطاب. ولم أنس أن أدسّ في حديثي بعض المصطلحات التي تشي بأنّني مُتابع للمناهج الحديثة. استحسن المؤرّخ المخضرم الخُطّة التي عرضتُها عليه، ووعدني بأنّه سيتدبّر ميزانيّة إضافيّة أسدّد بها نفقات أسفاري

وتنقّلاتي خارج الرباط.

في المساء، وأنا أستعيد ما دار بيني وبين الأستاذ الرحماني، انتهيتُ إلى أنّ مقصده من مشروعه هو الوصول إلى معرفة العوامل التي جعلتْ فترة مقاومة الاستعمار، أفضلَ من حاضر الاستقلال: هل هي نوعيّة المناضلين ومَعْدِنُ القيادة؟ أم هي الأهداف التي كانت تتخايلُ للشعب من وراء إنهاء الحماية الفرنسيّة؟ وفي ثنايا هذه التساؤلات، لمستُ لديه حرصًا على استكشاف طريقة لاسترجاع حماسٍ يُشبه ذاك الذي رافَقَ الكفاح الوطني. لم أقلْ للأستاذ الرحماني إنّ المُقارنة لا تستقيم بين فترتيْ ما قبل الاستقلال وما بعده. كان بِوُدّي أن أقول له ذلك؛ غير أنّني وجدتُني في وضعٍ لا يسمح بـ «المُقاوحة» ومُجادلة مَنْ سيُنقذني من البطالة. لكن ذلك لم يمنعني أن أتساءل مع نفسي: لماذا لا أحد يقبل «انتهاء» الأشياء والفترات والعلاقات؟ أحسّ أنّ هناك شيئًا انتهى بعد أن شغل الناس وعبّأ العقول والعواطف طوال مرحلة الكفاح الوطني؛ وأنا الذي وُلدتُ في ثمانينيّات القرن الماضي، لم أشعر بنفس أهمّيّة تلك الفترة التي يُفيض مَنْ عاصروها في امتداحها. أميل إلى الاعتقاد بأنّ الانتقال تعثّر لأنّ شروطه لم تكتمل عندما كان الشعب في غمرةِ أحداث متلاحقة يصعب التحكّم فيها أو تخمين عواقبها. بعد أن انحسرت الموجة وهدأ الإيقاع المتسارع، أخذت خيوط الأفعال والمواقف تتضح تدريجيًا لتضيء ما كان غامضًا، ولتؤشّر على مرحلة أخرى كانت بذورها قائمة في تلك التي سبقتْها. وإذن ليس يُفيدنا كثيرًا أن نُصرّ على استعادة الماضي علّنا نعثر بين ثناياه على مخرج يُجنّبنا

مخاطر التدهور وتراكُم الشروخ المؤلمة... أفكّر وأعاود التفكير ويستبدّ بي الأرق إلى ساعة متأخّرة.

عندما استيقظتُ في منتصف النهار، أخذتُ أقنع نفسي أنّني محظوظ لأنّ مئات المتخرّجين وعشرات من حاملي الدكتورة لا يجدون عملاً، فيُمضون أيّامهم بين الإضراب عن الطعام، والاعتصام أمام البرلمان وانتظار وعود كاذبة. أكثر من ذلك، قرأتُ في الصحف أنّ بعض هؤلاء العاطلين صبُّوا البنزين على أجسادهم وأشعلوا النار فيها بعد أنْ يئسوا من فرَج يأتي من الأرض أو من السماء. لأجل ذلك، بدأتُ أعتبر كلَّ مَنْ وجد عملاً، حتى ولوْ من دون أجْر، محظوظًا ولدَتْهُ أمّه في خرقة بيضاء، فنجا من العبث والشعور بالتفاهة اللذيْن يكتسحان مَنْ هو عاطل.

خطَرَ لي أن أجعل، في الآن نفسه، من مهمّة جامع المعلومات ومُحاور الفاعلين التي كلّفني بها الأستاذ الرحماني، مجالاً يستجيب أيضًا لمُيولي الأدبيّة، فوسّعتُ نطاق الاستطلاع والمُحاورة، وأخذتُ أسجّل، بالتوازي، تأمّلاتٍ وافتراضات عن تلك الخمسين سنة التي يهتمّ بها المؤرّخ الجليل. ولأنّي كنت مدمنًا قراءةَ الروايات، مُستجيرًا بها من رَمْضاء البطالة والزمن الدائري، فقد بدأتُ بدوري أسائل نصف قرن، عبْرَ حيواتِ بعض مَنْ عايشوا تلك الحقبة من مواقع ومسارات مختلفة، مُستعينًا بِدفْق الحكايات المتهاطل عليّ مِمَّنْ كنت أتردّد عليهم، أو حتى أولئك الذين كنتُ أقابلهم في المقهى أو في مناسبات عابرة. أحسستُ

أنّني تلبّستُ مُهمّة «مساعد مؤرّخ»، فحرصتُ على أن أجعل منها مهنة تشغلني في اليقظة وحتى في المنام! لِمَ لا أكتب رواية تسائل كتلةَ سنوات هذا التاريخ الذي يعتبره الجميع أساسيًّا، والذي على رغم قُربه، يبدو غامضًا، مُلغّزًا، مثيرًا للجدل والخصام والأحقاد؟ استهْوَتني الفكرةُ ووجدتُ فيها وسيلة لِكسْر رتابة الاستطلاع وبابًا لإيهام النفس بأنّني سأحقّق أمنية طالما راودتني وأنا أنهي قراءة رواية تترك لديّ تأثيرًا يشبه السحر.

ما شجّعني على المُضيّ في إنجاز مخطوط الرواية الذي سأعرضه عليكم لاحِقًا، هو أنّني اهتديتُ بالصدفة إلى شكلٍ للسرد يُخلّصني من عبء موضوعيّة التاريخ والإحاطة بتفاصيله والتثبّت من مصادره، خاصّة وأنّ الفترة طويلة وأنا لم أعايش إلّا بعضها. وأظنّ أنّ اهتدائي إلى الشكل انبثق في ذهني بعد سهرة دعاني إليها ابن عمّي الذي درس في فرنسا وأصبح مسؤولاً كبيرًا في شركة للإلكترونيّات. هو يُكنّ لي ودًّا ويستطيب الحديث معي في شؤون البلاد العامّة التي يبدو أنّ وقته لا يتّسعُ لمتابعتها يومًا بيوم. خلال السهرة، أعلنتْ إحدى قنوات التلفزة عن تحطُّم طائرة فرنسيّة عائدة من البرازيل، فأسرع ابنُ عمّي إلى الرّيمُوت باحثًا عن قنوات أخرى ليستزيد من الأنباء، وفي الآن نفسه أبقى على القناة الأولى داخل إطار جانبي على الشاشة، بينما تتوالى صور وأنباء مختلفة في الحيّز المتبقّي من الشاشة: أحداث مُتباينة ومشاهد مُتباعدة في الفضاء والزمان ونحن نحاول أن نتابع ما يُقدّم في خانتيْن مُتجاورتيْن ومتباعدتيْن في الآن نفسه. لم أكن أستوعب جيّدًا مُحتوى ما يُعرَض على كلّ قناة، لكنّني كنت أدرك

أنّ لقاءً تمّ في كندا بين الدول الثماني الأكثر غنًى في العالم، وأنّ فيضانًا حطّم جسرًا في الهند، وأنّ جرّارات مُعزّزة بفرقة من الجيش الإسرائيلي دمّرتْ منازل فلسطينيّة في القدس. . . كلّ ما يخطر بالبال وما لا يخطر يحدث بِتأنٍّ في أصقاع متباعدة أوْ داخل البلد الواحد، وكأنْ ليس هناك ماض وإنّما هو حاضر متنوّع الوجوه والأقنعة، مشدود إلى عجلة لا تتوقّف عن الدوران، ما يجعل المشاهِدَ شبْهَ مُتكررة، متداخلة، تضيء جوانبها فجأة ثم تلفّها العتمة. وأنا المتطلّع إليها، هل أوجد في ماضيها أم في خضمّ حاضرها؟ في جميع الأحوال، أنا أبتلع سيْلَ الصور والكلامات المرافقة لما يعرضه التلفزيون، بل ها أنا ذا أتنقّل عبر أرجاء متباعدة من العالم، وشعور وهْميّ يتكوّن لديّ بأنّني حاضر في مجموع الأحداث الكونيّة، ورأسي يمتلئ ويفرغ ولا أعرف ما ستحتفظ به الذاكرةُ بعد ساعات. لكن ما يُقلقني هو كيف أسرد ما رأيتُه مُتزامنًا فيما هو ينتمي إلى سياقات وفضاءات مُتغايرة؟

بعد تلك السهرة مع ابن عمّي، لازَمَتْني فكرةُ السرد المتزامن الذي يجعل الأحداث والوقائع والشخوص تجري وتتحدّث في الآن نفسه، خاصّة وأنّها تنتمي للبلاد والتاريخ نفسها. الكلام سيُمايزُ بين الشخصيّات والحقب لكنّ الجِوار والسرد في صيغة الحاضر سيضع التاريخ في فضاء واحد وسيتيح للقارئ أن يقارن ويستنتج ويتفاعل. طبعًا، الكتابة ليستْ مثل الشاشة أو اللوحة، لأنّها لا تستطيع أن تحقّق التوازي والتجاور عيانًا، لكنّ السرد في صيغ الحاضر يُواري مسافة الماضي ولوْ إلى حين، ويوهِم بأنّ الأحداث تتقمّص حاضرًا دائمًا؟

ملخّص القول: اخترتُ ثلاثة تواريخ ليس لأن لها دلالة خاصّة ضمن الأحداث التي تشمل الخمسين سنة الفارطة، وإنّما لأنّها تتباعَدُ عن بعضها بقدْر يُتيح افتراضَ نشوء أجيال بشريّة وفكريّة مُتباينة. ثم وزّعتُ المحكيّات التي استمعتُ إليها أو تخيّلتُ بعضها على ثلاثة تواريخ تحيلُ على ميلاد الشخصيّات الأساس، لكي أستعيد السمْتَ والنبض والسلوكات، وأوجِد ما يشبه لُحمة مُتنامية تصل بين الفترات أو تفصل بعضها عن بعض: ١٩٣١، ميلاد توفيق الصادقي؛ ١٩٥٦، فالح الحمزاوي؛ ١٩٥٦، نبيهة النعسان. لعلّها سنوات تعني شيئًا بالنسبة لِمَنْ ينحصر همّهُم في التأريخ، لكنّني أنا مع الذين يقولون بأنّ عمق الزمن لا يُرصد فقط من خلال السنين. لقد حاولتُ، انطلاقًا من الشخصيّات الثلاث التي اخترتُها، أن أسرد ما تجمّع لديّ من أحداث ومسارات حياتيّة، مهما تباعدتْ زمنيًا فإنّها تظلّ متقاربة قد يفسّر بعضها بعضًا، خاصّة إذا اعتمدنا مفهوم التاريخ البعيد المدى. إلّا أنّني بعد أن أنهيتُ روايتي لم أعد أبالي بالتفسير والفهم المنطقي، بل بدا لي أنّ ما كتبتُه لحسابي واستجابة لنزوتي الروائيّة، لا علاقة له بالموادّ والآراء التي جمّعتُها للأستاذ الرحماني؛ ومن ثم حرصي على التفريق بينهما، فلم أخبر أحدًا بما تفتّقتْ عنه قريحتي الأدبيّة. لكن قبل أن أترككم مع مخطوط الرواية، لا بأس من أن أطلعكم على ما استرعى اهتمامي وأنا أحاور وأجمع المادّة التوثيقيّة.

أمضيتُ أكثر من أسبوعيْن في وضع لائحة مَنْ سأتّصل بهم في الرباط وبقيّة المدن والبلْدات، مستعينًا ببعض الأصدقاء

والأساتذة. في نهاية المطاف، تجمّعتْ لديّ أسماء رجال ونساء ينتمون إلى فئات متباينة: مقاومون، مناضلون في الحركة الوطنيّة، زعماء سابقون ـ دائمون، مديرو مدارس، محامون، أطبّاء، جمعيّات نسائيّة، متردّدون على نوادي الشبيبة والرياضة، زبائن المقاهي بما فيهم السماسرة ومُهرّبو السّلع... كنتُ أستعين بآلة تسجيل وفي الوقت ذاته أكتب على ورقة ما يبدو لي مهمًّا يستحقّ التأمّل.

ليس من حقّي أن أطلعكم على مضمون تلك الحوارات والأجوبة لأنّها مِلْك الأستاذ الرحماني، إلّا أنّني أريد أن أشاطركم بعض الحكايات والتعليقات التي أثارتْ انتباهي. في حديث مع زعيم دائم، وبصدد سؤال عن استعداد المغرب للانخراط في الألفيّة الثالثة، قال لي مُبرّرًا ضرورة استمراره في تحمُّل المسؤوليّة على رغم تقدّم سِنّه: «.. كما تعلم، نذرْنا أنفسنا لخدمة الصالح العامّ، وكم كان بِوُدّنا (يتحدّث عن نفسه بضمير الجمع) أن نجد آذانًا صاغية لتنفيذ الإصلاحات التي نطالب بها، حتى نستطيع أن نستريح مطمئنين على بلادنا وهي تعبُر إلى الألفيّة الثالثة؛ لكنّ التردّي المُتوالي يضطرّنا إلى البقاء في حومة النضال. وبيني وبينك، أقول لك إنّ ساسة هذه الفترة وقادتها لا يملأون العين ولا يشفون غليل الأذن، لأنّهم لا يمتلكون كاريزما، أي تلك الهِبَة اللّدُنيّة التي تجعلنا نستهْوي الجماهير...».

وقال لي مُهرّبُ سلعٍ التقيتُه في مقهى «السمكة الضاحكة»

بمدينة المضيق: «.. الناس باغيًا تعيش أخايْ. كلّهم باغيينْ الرفاهية وراحة البال. يكذبْ عليك اللي يقول لك باغي يحرّر سبتة أو مليليّة. سَقسني أنا اللي تنهَرّبْ السلعة من هناك باش نبيعها هنا. وزايْدٌ حتى واحد من المغاربة في سبتة ومليليّة ما باغي يرجع للمغرب، على ودّ خايفينْ يضيّعوا الحقوق اللي تتعطيها لهم إسبانيا. هذا هو كلام المفيد...».

استوقفتني أيضًا قصّة غريبة لأحد المقاومين من الجنوب؛ لكنّني قبل ذلك أفتح قوسًا لأشير إلى أنّ مَنْ قابلتهم من المناضلين والمقاومين والزعماء والساسة، لا يكتبون مذكّرات أو ملاحظات مُتزامنة مع الفترات الماضية من حياتهم. وجدتهم يعتمدون على الذاكرة وكثيرًا ما يلجئون إلى الظنّ، وغالبًا ما يضخّمون أهمّيّة ما عاشوه أو أنجزوه. وكلّما تعلّق الأمر بأخطاء ارتُكبتْ، ألقوا التبعة على الآخرين من زملائهم الغائبين أو الذين ماتوا من غير حجج أو أدلّة ملموسة... وقصّة المقاوم التي استوقفتني تكاد تكون أغرب من الخيال. فهُو كان في تنظيم يُعِدُّ لهجوم مسلّح سنة ١٩٧٢، والتنظيم ينقسم إلى فئة تتسلّل من الجزائر، وأخرى تلتحق بها من داخل المغرب. لكن انطلاقة حرب العصابات الثوريّة، كما يسمّيها زعماء التنظيم، فشلتْ منذ البدء لأنّ المخابرات المغربيّة كانت على علم بما يُدبّر، فقتلت واصطادتْ العشرات، وهرّبتْ عناصر قليلة منها ذلك المقاوم الذي اختبأ في مطمورة للقمح وراء بيت العائلة في قرية بجنوب المغرب، وطلب من زوجته وأخيه الأعزب أن يبنيا جدارًا عاليًا يخفي المطمورة، وأن يمدّاه بالأكل والماء من دون أن يخبرا

أحدًا بوجوده، وكأنّه خرج ولم يعد. . نجحتْ عمليّة الاختباء ولم تهتدِ الشرطة إلى مكمن المقاوم. قضى عشرة أعوام في المخبأ مطمورًا، معزولاً عن العالم. ابنُه الذي تركه طفلاً كبُر وهو يجهل كلّ شيء عنه؛ وفي الأثناء تزوّج أخوه الأعزب من زوجته ومضت سنوات قبل أن يخبراه بصدور عفوٍ ملكيّ في حقّ المقاومين والمناوئين للعرش لأنّ الوطن غفور رحيم! خرج المقاوم من كهفه ليجد الأشياء قد تبدّلتْ: ابنه لا يتذكّره، زوجته أصبحتْ في عصمة أخيه الذي ادّعى أنّ أخاه الأكبر لقي حتفه خلال الهجوم الفاشل. في جلسة المحكمة التي برّأتْ المقاوم من المتابعة، حكى لي المحامي الذي نُصّبَ للدفاع عنه، أنّه كان يُجيل بصره في مَنْ حوله وكأنّه آتٍ من المرّيخ، وكان يحدّث نفسه بكلام غير مفهوم، وبعد تأكيد البراءة رفض العودة إلى القرية والبيت العائلي، ولعلّه تائه بين الجبال والسهول.

ما لفَتَ نظري بقوّة، أنّ معظم هؤلاء الذين التقيتهم وحاورتُهم يستعملون معجمًا لغويًّا مُلتبسًا، يُفيد أكثر من معنى وهو إلى التجريد أقرب. يمكن أن أقول إنّه « كلامْ تيزْهَقْ ما عندك فاينْ تقبطو». على سبيل المثال، أوردُ عبارات تردّدتْ كثيرًا على ألسنة مَنْ حاورتُهم:

«هداكْ زمان وهدا زمانْ».

«وايْلي! شحالْ تَيخصْنا باشْ نشبهُوهم».

«كلّ زمان وعندُه رجالُه».

«نعبّروا على رأينا ولكن بلا ما نجلْدوا الذات».

«كان الشعب والعرش والأحزاب الوطنيّة ذاتًا واحدة».

«حْنا تِقْتنا في الله سبحانه وتعالى. لكنّ التاريخ هو اللي غادي ينصفنا».

«كلّهم تيقولوا الشباب عليهْ المُعوّلْ، لكن حتى واحد ما تيسمع لمطالبهم».

«حنا دايمًا هم لَحْويَط لقصيرْ اللي تيركبوا عليه».

«اللي ما عنده سيدو عنده لالاه».

«الله يخرجنا من دار العيب بلا عيب».

توخّيًا للدقّة، أقول إنّ هذه العبارات كانت تتفاوتُ داخل السياق، وبعضها كان يأخذ أبعادًا ملموسة عند مَنْ لهم وعيٌ ناضج. أنا تجنّبتُ، في نصّي الروائي، مثل هذا التجريد ربّما لأنّ شخصيّاتي الأساسيّة متعلّمة وتميل إلى التحديد والتدقيق، كما ستدركون ذلك بأنفسكم عند قراءة المخطوطة. لكن قبل أن تقرؤوها، أريد أن أقدّم لكم ملامح من شخصيّتي بوصفي روائيًّا بالصدفة، وما كتبتُه لا يتّصل اتّصالاً وثيقًا بالموضوع الذي كلّفني به الأستاذ الرحماني، لأنّني أثناء المحاورات وتجميع الأجوبة انجذبتُ أكثر إلى ثلاث شخصيّات أوحتْ حاسّةُ الشمّ لديّ أنّها تصلح لأن تكون لُحمة وسدى نصّ روائي يُلملمُ جوهر ما صادفته وسمعته متفرّقًا في شكل نُتف ووقائع مُتباعدة. . . لا بأس، إذن، أن أستكمل الحديث عن همومي الصغيرة التي تُحيّرني، ولو في إيجاز وتلميح، لأنّ بعض ما تطرّقتُ إليه في روايتي قد يتقاطع مع مساري الخاصّ، على رغم أنّ سِنّي تالية في الترتيب لأعمار

شخصيّات الرواية الثلاث. ويمكن كذلك أن تعتبروا هذا الاستطراد من باب الشيء بالشيء يُذكر، أو هي شهوةِ الحكي عن الذات تدفعني إلى أن أحكي عن نفسي قبل أن أحكي عن الآخرين؟

مات أبي وأنا في السابعة من عمري. لحدّ الآن، أحتفظ بذكريات مُشرقة عنه لأنّه كان يُدلّلني ويقدّم لي الهدايا ويأخذني معه إلى حمّام الرجال، ويشتري لي «السفَنْج» لأفطر به... بعد موته، أصبحتُ وحيد أمّي، هي التي تسهر على تربيتي وتحثُّني على الاجتهاد في المدرسة. رفضتْ الزواج مرّة ثانية واكتفتْ بالمعاش الذي تركه أبي الذي كان موظّفًا في وزارة الأوقاف. عائلتها مستورة الحال وقد ملّكَها والدُها دكّانًا تقبض كراءه كلّ شهر. نسافر في العطل لزيارة الأهل في مدن مختلفة: مكناس، فاس، تازة، الجديدة، الدار البيضاء... معها كبرتُ بسرعة وأحسسْتُني رجلاً قبل الأوان. كنتُ مجتهدًا، مُقبلاً على القراءة وكان هذا يسرّها ويجعلها تضاعف عنايتها بي.

أقول الآن إنّني كنتُ أكتشف العالم والناس بشهيّة متجدّدة، من دون أن أتهوّر أو أندفع في ربط علاقاتي بالآخرين. حرصي على أمّي كان يجعلني أتريّثُ وأصونُ وقتي وعواطفي. في مرحلة المدرسة الثانويّة، بدا نُضجي أكبر من سنّي، فاتّخذتُ من القراءة سبيلاً لتعزيز ذلك النضج واستكمال معرفتي بالعالم، لأنّني كنتُ أحسّ، على رغم حنان أمّي وثقتها، أنّني هشّ أمام ما يتكشّفُ لي يومًا بعد يوم، من تعقيدات الدنيا وسلوكات الناس.

عندما التحقتُ بشعبة التاريخ، مطلعَ التسعينيّات، بدأتُ أغوص في مجال أوسع يلامس السياسة والأزمة الاجتماعيّة المتفاقمة، وعطالة الجامعيين... لم يكن هناك اتّحاد لطلبةِ المغرب، المنظّمة الطلائعيّة، فقد أصبحتْ أثرًا بعد عين ومحطّةً يُستشهَد بها عند الحديث عن تفاقُم أزمنة الرصاص. لكنّنا كنّا نسمع أو نقرأ في الصحف، عن كتيبتيْن من الطلّاب الصامدين في جامعة «ظهر المهراز» بمدينة فاس: القاعديّون المتمركسون وَالأصوليّون المُتأسلمون، يتناطحون من حين لآخر وقد يسقط من بينهم قتلى وجرحى، لكن تنظيماتهم مستمرّة، كأنّ الأمن المحلّي والمركزي والقومي (وربّما العالمي) عاجز عن أن يُنهيَ تلك المهزلة التي لا تفيد الطلّاب في شيء!

أتابع الحياة من بعيد. أقرأ. أشاهد القنوات العربيّة والأجنبيّة، وأحاول أن أستوعب ما يجري حولي مُتناسلاً، مُتسارعًا، تزيده التأويلاتُ الجاهزة غموضًا وانبهامًا. أقنعُ نفسي أنّني في موقع معقول ورصين: أهتمُّ بما يعيشه مجتمعي، مُحتاطًا من التورّط في موقف متحيّز قد يُعرّضني للخطر ويجعل أمّي قلقة، معذّبة بسببي. أربطُ علاقات نسائيّة من دون عواقب مع الحرص على التعدّديّة «العواطفيّة»، مُستحضرًا المثَل القائل: «انقَبْ واهربْ». أتحاشى أن تصيب النبال القاتلة قلبي الذي لم يُؤمّنْ بعدُ عملاً يحميه من الانتظار وفراغ الجيب.

أعلم أنّني لستُ شخصيّة أساسيّة في روايتي التي ستقرؤونها، وأنْ ليس مُهمًّا أن يتعرّف القارئ على السارد أو المؤلّف، خاصّة إذا لم يكن فاعلاً، مشاركًا في الأحداث. غير أنّني تنبّهتُ وأنا أكتب عن

شخوص ووقائع تعرّفتُ عليها في عجالة أو سمعت مَنْ يحكي عنها، أنّ مسألة الوصول إلى «الحقيقة» أو الوقوف على جوهر ما يشكّلُ التاريخ، تظلّ مسألة جدّ نسبيّة وزئبقيّة. فضلاً عن ذلك، هي تبقى مفتوحة على عناصر أخرى كامنة لدى مَنْ يقرأ أو يستمع. لذلك، يكون من الأفضل أن نقدّم كلّ ما نظنّ أو نتخيّل أنّ له وشائج بما نستشعر أنّه قد ينطوي على حقيقة معيّنة، ونريد أن نُشرك القارئ معنا في اقتناصها. من هنا وجدتُ أنّ ما أسرده عن حياتي، في وصفي كاتبًا وساردًا، يفتقر إلى الكثير من الأحداث والتفاصيل. صحيح أنّ الأمر لا يتعلّق بسيرتي الذاتيّة، ومع ذلك أجدُ في ما كتبتُه عن شخصيّات روايتي وهمومها، ما يتقاطع وَمسيرتي التي لم تبلغ بعد ثلاثين سنة... ما الضرر، إذن، في أن ألخّص ما أظنّ أنّه مضيء لموْقعي الملتبس، المُجاور لعالم الرواية؟

لكنّني بعدَ جمْعٍ وطرح، بعد تمحيص وغربَلة، كما يقال، وجدتُ أنّ المسألة التي تستحقّ الإضافة هي علاقاتي بالنساء، أي الجنس اللطيف أو الأنثى بالأحرى. الأنثى بما تنطوي عليه من سحر وجاذبيّة متدثّرة في غلائل الرمز وسطوة الرغبة. ذلك أنّني أستشعر ضرورة الحضور الأنثوي في دلالته الإيروسيّة المطلقة. ربّما يعود ذلك ـ كما يحلو لابن عمّي أن يردّد ـ إلى أنّني تربّيْتُ «بين أفخاذ النساء»، وحظيتُ من بنات عائلات الأقارب، في طفولتي، باللمسات المتواطئة والقبلات مشبوهة البراءة؟

تحدّثتُ في مطلع هذه الصفحات، عن علاقتي بـ «رقيّة»، صاحبة دكّان «القفطان الناعم»، وعن الخلوات المنتظمة،

المتأجّجة التي ولّدتْ بيني وبينها عواطف واضحة على رغم انبهامها إلّا أنّها تظلّ ملتبسة رغم وضوحها. غير أنّني في واقع الأمر، أعيش إلى جانب ذلك علاقتيْن أخرييْن أبذل جهدي لألائم بينهما وبين علاقتي مع رقيّة. ثلاث نساء في حياة شابّ عاطل مثلي، من دون دخْلٍ ثابت، هي مسألة يحتاج تدبيرها إلى ما يشبه المعجزة!

التقيتُ سناء في كلِّيّة الآداب منذ سنة التحاقي الأولى. وهي كانت في شعبة اللغة الإنجليزيّة وتحضُر معي حصص الثقافة العربيّة المشتركة. قد لا أقول عنها جميلة بالمقياس المألوف، لكنّها تمتلك نمطًا خاصًّا يُضفي على ملامحها وحركاتها أكثر من تعبير. رشيقة، هندامُها يستوحي الموضة الأوروبيّة، وطَلّتُها لا تخلو من جرأة وسطوة. لا تُخصّص وقتًا كبيرًا للمراجعة والتحضير إلّا أنّ لديها فضولاً متنوّعًا يجعلها تهتمّ بالسينما والمسرح والرقص ومطالعة المجلّات الأجنبيّة. تكرّرتْ لقاءاتنا وخرجاتنا المسائيّة، وانتسج بيننا استلطاف وانجذاب، وبدأتْ علاقة مُبهمة ترتسم في الأفق. أقول مع نفسي لعلّها استطابت لديّ حُسن الإصغاء فيما هي تنفجر منتقدة المجتمع وحياته الرتيبة وثقل التقاليد والمواضعات؟ أو لعلّها استحسنتْ حرصي على التخفيف من غلوائها وإبراز فرص العيش الهنيّ المُتاحة لمن هو في مثل وضعيّتنا، أو بالأحرى لمَنْ هو في مثل وضعها: تعيش مع أمّ تدلّلها بعد أن غادر أبوها المغرب منذ أربع سنوات، متنقّلاً بين أصقاع متباينة تمتدّ من أستراليا إلى كولومبيا. يتّصل كلّ ثلاثة أشهر ليعلن أنّه في أوروبا أو آسيا أو أميركا، ويرسل حوالات

ماليّة تُغطّي مجموع نفقات البيت، ودائمًا يرفض تحديد موعد عودته، بلْ يقول لأمّها أن تعتبر نفسها متحرّرة من ارتباط زواجهما إذا أرادتْ أن تستأنف حياتها مع رجل آخر. سناء لا تستهجن سلوك والدها وتكتفي بالقول إنّها تفهم سيَحانَه عبر العالم، خاصّة وأنّ ذلك يتيح لها تقريرَ الشكل الذي تعيش به حياتها. نتكلّم كثيرًا وبحُرِّيّة كلّما التقيْنا. وهي التي مهّدتْ لي الطريق إلى استكشاف ملذّات الجسد وعنفوان الشهوة العارمة. علاقتها بجسدها تُذهلني: تلقائيّة، طبيعيّة، تُعطي وتستزيد، وكلّ خلوة معها يُظلّلها الفرح والذهاب إلى ما هو أبعد، إلى ذلك الكامنِ في الأعماق. لم أكن أسألها أسئلة محرجة أو أبْدي تحفّظًا إزاء سلوكها، وإنّما كنتُ أستجيب لنزواتها وأستلذّ بما كانت لغةُ جسديْنا تستولده لتزيح عنّا ما علِق بنا من وضَر.

بعد تخرُّجنا من الكلِّيّة واجهَتنا معضلة العثور على عمل لتأمين المستقبل. لم يكن في الأفق شيء متاح، ومناخ الانتظار الكئيب جعل سناء تنفضُ يديْها من تطوير علاقتنا. فاجأتني ذات مساء بأنّها أعدّتْ كلّ ما يلزم للسفر إلى لندن حيث سيساعدها أصدقاء والدها في العثور على عمل يسمح لها أن تبنيَ مستقبلاً تطمئنّ إليه. سافرتْ وبقيتُ عطشانًا، عاطلاً، كئيبًا في المغرب. غير أنّها دأبتْ على أن تُهاتفني كلّ أسبوع لتحكي لي عن حياتها الجديدة ونجاحها في تدبير الشغل والانضواء في حلقةِ أصدقاء وصديقات «كوسموبوليتْ»، ينظّمون معًا خرجات وسهرات راقصة. كلّ الأبواب تنفتح أمامها وهي تغوص كسمكة رشيقة في طبقات المجتمع ودهاليزه. بعد سنة، أخبرتني أنّها قرّرتْ أن تأتي

إلى المغرب كلّ ثلاثة أشهر لزيارة أمّها، ما دام عملها أصبح يوفّر لها بحبوحة في العيش، خاصّة وأنّ والدها يتذكّرها من حين لآخر بعطاءات تستجيب لتطلّعها إلى الرفاه واغتنام المسرّات. عندما تزور سناء المغرب تحمل إليّ هدايا ثمينة وتخصّص أكثر من ليلة يستعيد خلالها جسدي صولته وابتهاجه باللحظات الفردوسيّة. هي تحكي ببساطة ودفْقٍ مُنْساب ولا تتحرّج من سرد مغامراتها مع شبّان وكهول. تقول إنّها تعيش كلّ يوم وكأنّه آخر فرصة لها على هذه الأرض. طرأ تحوّل كبير على سلوكها وعقليّتها: تعرف الآن ما تريد وتتشبّثُ به ولا يزعجها أن أكون مختلفًا معها، ما دامت تستطيع أن تُبْقيَ على علاقتنا بالشكل الذي تريده، وأنا أتقبّل هذه الزيارات الحاملة لأنفاسٍ منعشة وصبواتٍ نادرة، من خلالها أطلّ على تبدّلات مُشخّصة، ملموسة، ربّما كنتُ أنا أيضًا سأعيشها لوْ لم أظلّ محبوسًا في دائرة البطالة والانتظار.

منذ سنتيْن، أصبحتْ رقيّة أرملة فبادرتُ إلى تعزيز علاقتي بها، كما حكيتُ ذلك في صفحات سابقة. هي جزء من طفولتي ولديْها شيء لا أجده عند سناء. خلال زيارات هذه الأخيرة للمغرب، أستعيد معها أحلام الطالب الذي كنتُه وأيّام المُسارّة حين قادتْ خطواتي الأولى على دروب أسرار الجنس والحبّ والهذيان. أمّا رقيّة فتقطن الرباط مثلي، ومعها وحولها تنتظم حياتي الجنسيّة والعاطفيّة بما يتخلّلها أحيانًا من سأم ورتابة. لكن زيارات سناء المتباعدة تُضفي نكهة نادرة المذاق على أيّامي المغلقة. والمُهمّ أنّني لا أشعر باضطراب أو حرج في التنقّل بينهما، بل سرعانَ ما اعتدتُ المُزاوجةَ بين رقيّة وسناء.

لكنّ المرأة الثالثة التي لا أعرف اسمها هي التي تُحيّرني وتضعني أمام أسئلة لا يستوعبها منطقٌ. تعرّفتُ عليها صدفة ذات مساء، في مرقص «النجمة التائهة» بِعيْن الذياب في الدار البيضاء. كنتُ في زيارة لابن عمّي الأخصّائي في الإلكترونيّات، وبعد العشاء منحَني مبلغًا ماليًّا يسيل اللعاب واقترح عليّ أن أذهب إلى أحد المراقص «لأطيّر عن رأسي بعضًا من همومه». أذكر أنّها كانت ليلة سبت وكان المرقص الذي قادني إليه سائق ابن العمّ مزدحمًا يغصّ بشابّات وشبّان يرتدون قمصانا وتنّورات وبناطيل تُعلن عن آخر صيحة في عالم الموضة. كلّ الأيدي تحمل كؤوسًا ممتلئة، وروائح السجاير والحشيش مختلطة، والعرَق يكسو وجوه وصدور مَنْ يرقصون في الحلبة. حركة لا تهدأ وضوضاء مِنْ أصوات مركّبة، والأجساد تتلامس، والضحكات لا تكاد تتوقّف. مناخ جديد عليّ. أتحرّك ببطء باحثًا عن طاولة بها كرسيّ فارغ. في لحظة مصادفة التقتْ عيناي بامرأة تدنو من الأربعين، ممتلئة الوجنتيْن، بيضاء، لها خطّ غائر في ذقنها وابتسامة ودودة ترتسم على محيّاها. نظرتُ إليها وإلى المقعد الشاغر جنبَها كأنّما أستفسرها، فأشارتْ إليّ بالجلوس. أذكر أنّ جُلّ ما تبادلناه من كلمات ضاعتْ وسط الصخب والموسيقى المرتفعة؛ وكلّ ما سمعته هو أنّها تملك صيدليّة بالدار البيضاء. اقترحتُ عليها أن أجدّد لها كأسها، غير أنّها أمسكتْ بيدي وقادتْني إلى الحلبة وهي تقول: الرقص أوّلاً وبعده نشرب.

امتدّ الرقص والشربُ إلى الساعات الأولى من الصباح. عند الانصراف سألتني هل أسكن وحدي، فقلتُ لها أنا من الرباط

ويمكنني أن أدعوها إلى الفندق لإتمام ما تبقّى من نهار الأحد. وافقتْ وهي تشرح لي أنّها تعيش مع أمّها، ولا تريد ربطَ علاقات «رسميّة»، لأنّ ما عاشتْه من تجارب بعد عودتها من باريس، لا يشجّعها على توطيد العلاقات؛ وهي أحسّتْ «أنّني ابن ناس ومؤدّب، لذلك تشجّعتْ على دعوتي إلى الرقص». كانت ليلة ذات مذاق مختلف. وعند منتصف النهار أيقظتني لتُودّعني، معتذرة لأنّها لا يمكن أن تعطيني رقم هاتفها، فهي تفضّل أن تظلّ علاقتنا «مفتوحة»، وإذا أردتُ أن ألتقيها فهي تكون كلّ يوم سبت في مرقص «النجمة التائهة». هززتُ رأسي موافقًا وودّعتها بقبلة طويلة. لم أكن أفكّر أنّنا سنلتقي من جديد، لأنّ صدفة جميلة وضعتْ في فراشي امرأة لطيفة المعشر، تُجيد الجِماع وتتذوّقه، وسيحتفظ كلّ منّا بذكرى تلك الليلة... غير أنّني وجدتُني بعد مرور شهريْن، أحنّ إلى المرقص وصاحبة الصيدليّة والسهر حتى الصباح. كرّرتُ الزيارة فوجدتُها رفقة صديقة لها. رحّبتْ بي لدى رؤيتي واعتذرت لصديقتها، وبقينا إلى الصباح. تتكرّر لقاءاتي معها وكأنّها متطابقة مع أوّل لقاء، وأحاديثنا مُسرفة في التعميم، وما يهمّنا هو ليلة السبت والمرقص والشرب وغرفة الفندق. كأنّ كلًّا مِنّا يحتمي بالآخر لكي لا يشعر بالوحدة وهو وسط حشْد الراقصين. بالتدريج، أفسحتُ للصيدليّة موقعًا في حياتي الجنسيّة والعاطفيّة، دون أن أحسّ تجاهها بالتزام لأنّها تمسّكتْ بمبدأ «العلاقة المفتوحة» فلم نتبادل حتى اسميْنا. علاقة سورياليّة ولكن طَعمها جدّ متميّز.

أظنّ أنّني أوردتُ كلّ ما أعتبره مهمًّا في حياتي، ولوْ أنّني

غير مُطالب بذلك لأنّ القارئ، كما سبق القول، لا يهتمّ بمعرفة شخصيّة السارد إذا لم يكن فاعلاً في واقع النصّ الذي يحكيه. ومع ذلك أبيحُ لنفسي أنْ أستطرد قليلاً (مِنْ باب الشيء بالشيء يُذكر)، تلك العبارة التي كثيرًا ما صادفتُها في كتب السيرة والتراجم التراثيّة: كلّما استعرضتُ حياتي الجنسيّة وَتعدّدَ شريكاتي في تأثيثها، على رغم عطالتي وقلّة مواردي، حمدتُ الله كثيرًا واعتبرتُ ذلك منّةً منه وهبَني إيّاها لإضفاء التوازن على حظّي «المهبّب» وتشجيعي على مقاومة اليأس والحبوط. وأنا إلى عهد قريب، كنتُ أداوم الصلاة علَّ دعواتي تفتح باب الشغل أمامي، وأيضًا لإرضاء أمّي التي تعتبر الصلاة مفتاح الفَرَج ووسيلة للوقاية من كلّ أذًى. بطبيعة الحال، علاقتي بعشيقاتي الثلاث كانت، أوّل الأمر، تقضُّ مضجعي لأنّها لا تتمّ في كنف الحلال. لكنّني سرعان ما اهتديتُ إلى تبرير أقنع به نفسي: أنت، يا الراجي، في عنفوان الشباب، وحبّ النساء يجري في عروقك، ولا تستطيع أن تتخلّص منه مهما حاولتَ، وإمكاناتك المادّيّة لا تسمح لك أن تتزوّج، ولوْ افترضنا أنّك حصلتَ على عمل لكان في استطاعتك آنئذٍ أن تتزوّج من مثنى وثلاث ورباع، طِبْقًا للشريعة المحمّديّة ما دام جسدك يبغي ذلك ويتطلّبه. الآن أنت، يا الراجي، في مرحلة استثنائيّة تعوقك عن تحقيق تعدّد الزوجات، فلا بأس أن تعوّضه بهذه العلاقات المفتوحة، المنسجمة في تعدّدها...».

أكثر من ذلك، أَطمئِنُ نفسي بأنّ ما يشفع لي هو أنّ هذه العلاقات قائمة على حرّيّة الاختيار من جانبهنّ أيضًا، فأنا لا أرغمهنّ ولا أشتريهنّ بالمال، والعياذ بالله. هي مغامرة وافتتان

ونوع من تحقيق الذات؟ وهذه عناصر لا توجد في كثير من الزيجات المُرتَّبة، الحريصة على المظاهر بدلاً من الممارسة الحرّة.

يحدث في ليالي الأرق وبُحران التأمّلات، أن أتوقّف عند مفهومِي للحقيقة على ضوء ما عشتُه وقرأته. أحسُّني ضئيلاً إلى حدّ مرعب، لأنّ حقيقتي لا تعني شيئًا في خضمّ الحقائق الكبرى أو ما يُضفي عليه الناسُ هذه الصفة. ثم إنّني، وأنا دون الثلاثين، طالما غيّرتُ تصوّري للحقيقة وَفْقَ اقتناعاتي المتغيّرة، أو نتيجة اكتشافي لعناصر غيَّبَها التدجيل والتزييف. نعم، أحسّ أنّ هناك انقطاعات في حياتي، إلّا أنّني لا أستطيع استيعابَ طريقة حدوثها. يكفي أن أقرأ كتابًا في التاريخ أو الفلسفة، أو أن ألتقي إنسانًا عاش تجربة متميّزة لكيْ أحسّ بما يشبه التوقّف عن اعتقادي في ما سبق، والانقطاع عن القناعة الموقّتة التي كنتُ أعكّز عليها. المعضلة تتضخّمُ حين تتوالى الانقطاعات واهتزاز القناعة. عندئذ، تغدو الحياة أقرب ما تكون إلى سلسلة من اللحظات المتناسخة وكأنّها تحدث من دون تفاعل معها أوْ تبَنٍّ لها. هل هو كسل يحول دون تحديد علاقتي بما أجده طارئًا، مُغايرًا للمألوف؟ أم هو نوع من التأجيل والاستسلام لليومي الجارف الذي يشلُّ طاقة التساؤل والتمرّد والاستكشاف؟ لتَهْوينِ الأمر أقول: الحقيقة هي تلك التي تظهر بيني وبين نفسي مشتملةً على كلّ ما تنطوي عليه من تقريبيّة وتَشوّش. أمّا مع الآخرين، فلا مناصّ من أن تتَخَفّى وراء غلائل الكذب وافتراءات الخيال.

آن الأوان لأترككم مع الرواية التي كتبتُها أثناء ما كنتُ أجمّعُ المعلومات والأجوبة على أسئلة الأستاذ الرحماني الذي لولاه لما تذوّقتُ متعة العمل والأجرة الشهريّة طوال عاميْن، أحسستُ خلالهما أنّ قيمتي زادتْ في عيني وفي أعيُن الناس. بطبيعة الحال، لن أخبره بالمخطوطة التي كتبتُها وأنا أنجزُ مشروعه التاريخي الوارف الظلال، لأنّه لن يجد فيه ما يتطلّع إلى اقتناصه ومعرفته، ولأنّه قد يكون من فئة المؤرّخين الذين يعتبرون التخييل الروائي تلفيقًا واختلاقًا وتحريفًا للحقائق الثابتة، الموضوعيّة.

كما أشرتُ سابقًا، استوحيتُ محكيّات هذه الرواية من لقاءاتي بفئاتٍ متباينة من الناس الذين قبِلوا أن يجيبوا على أسئلة المؤرّخ الرحماني؛ وفي الأثناء نفسها كان الحديث يَجرُّنا إلى استطرادات تبعُد قليلاً أوْ كثيرًا عن الأسئلة المطروحة. ومن ثنايا ذلك، كنتُ أستصفي بعض الشخصيّات وأتخيّل مساراتها لأعيد رسم ملامحها وسياقاتها استنادًا إلى ما يُثيرني ويستحثّ مخيّلتي. لم يكن التاريخ، إذن، حاضرًا إلّا بقدْر ما هو صيغة حياتيّة محتملَة لمرحلة ضاعتْ معالمُها في غضون الأحداث الكبرى. هذا لا يعني أنّ المادّة التي جمعتُها وسلّمتُها للأستاذ الرحماني لا تضيء جوانب من ذلك التاريخ، فهي صيغة أخرى لها قيمتها، وقد تطّلعون عليها إذا مَدّ الله في عمر مؤرّخنا الجليل ليُعيد صياغتها في قالب «موضوعي» ويقدّمها لقرّائه وَفق اجتهاداته وتأويلاته.

توفيق الصادقي

(١٩٣١ ـ الرباط)

المُخضرمُ الطموح

ـ ١ ـ

على امتداد الجدار الفاصل بين باب البيت الخارجي، حديث البناء، والمدخل المُفضي إلى وسط الدار حيث النافورة المُلجَمة والكراسي المُصطفّة، يقف توفيق الصادقي وأخوه وأخته الأصغران لِتقَبُّل العزاء في الوالد القايد الصادقي الذي وافتْهُ المنيّة بعد مرض عُضال «لم ينفع معه علاج». يبدو توفيق في جلبابه وطربوشه الأحمر، أكبر من سنّه التي لا تدنو من العشرين. ولأنّه الابن البِكْر، المتعلّم، فقد وجد نفسه على رأس العائلة العريقة إلى جانب أمّه المُتحدّرة من أسرة «شريفة» تؤول أواصرُها إلى الشجرة النبويّة الكريمة. يقف عند الباب مُستقبلاً المُعزّين وبقايا الدموع في عينيْه يُغالبُها ليبدو صبورًا مستعدًّا لمواجهة مسؤوليّاته الجسيمة، بعد أن غاب مَنْ كان يتولّى كلّ شيء ويحثُّه على التفرّغ لدروسه في الليسيه الفرنسي. كان القايدْ الصادقي ذائع الصيت في قبيلته المستوطنة لمنطقة «زعير» غير بعيد من العاصمة الرباط.

فارسٌ ورث تقاليد الأجداد المحاربين، وكرَم الضيافة والنخوة التي تزدهي بتقدير الناس لحسْنِ المعاملة. وافقَ المفتّش الإداري الفرنسي على تعيينه قايدًا في منطقة زعير لأنّه يحظى بثقة الفلّاحين وأبناء القبيلة ويعرف القراءة والكتابة ويتّصف بالجدِّيّة والاستقامة. ينظر توفيق إلى البيت وقد امتلأ بالمُعزّين وقارئي القرآن ومُنشدي الأمداح النبويّة، فيما الغسّال يُعدّ جثّة الوالد للدفن. ينظر إلى طقوس المأتم ويسمع بكاء النساء الصادر من الطابق الفوقي للبيت، وهو لا يكاد يصدّق أنّ الموت قد غيّب أباه الطويل العريض الممتلئ حيويّة وصخبًا. كلّ الأنظار متّجهة إليه وهو يتماسك ليبدو «رجلا" قدّ الحمل. مسؤوليّة ستخلخلُ مشاريعه وتُغيّر المسار الذي رسمه بمساندة الوالد: الآن وقد أحرز على الباكالوريا، كان من المفروض أن يسافر إلى فرنسا ليكمّل تعليمه الجامعي ويصبح ضمن النخبة التي حرصتْ إدارةُ الحماية على اصطفائها من بين «أبناء الأعيان» المُهيّئين لاستيعاب الثقافة وقيم الحضارة الفرنسيّة، والاضطلاع بتحديث المغرب وَفْقَ برنامج التمدين والتصنيع المستجيب لحاجيات الميتربول في استثمار إمكانات المُستَعمَرات. لم يعدْ سفره ممكنًا بعد أن رحل حامي الدار وحاضنُ الأفراخ التي لم تستقْوِ بعدُ أجنحتها على التحليق. وأمّهُ واضحة في ما قالتْه له ليلةَ أمس، بعد انقضاء ساعات البكاء الأولى: لا بدّ أن تظلّ إلى جانبي لنَصونَ العائلة ونسهر على تربية إخوتك.

في المقبرة، تقاطر عدد كبير من أقارب وأصدقاء القايد الصادقي، جاؤوا من العاصمة ومن نواحيها. بعد الدفْن، اصطفّ

توفيق وخاله وأعمامه يتقبّلون التعازي، وجميع المُعزّين يخاطبون الابنَ البِكر على أنّه «خليفة» والده «اللّي خلّى خليفته كأنّه ما ماتْ»، ويؤكّدون له أنّهم سيقفون إلى جانبه ليُعينوه على مسؤوليّة الأسرة. شعور بالاطمئنان يُراوده وهُمْ يغمرونه بمشاعر المودّة والتضامن. ولا ينفكُّ هو يستهدي بخاله ليشرح له طقوس الجنازة والعزاء وضرورة استضافة نساء العائلة اللائي جئنَ ليُؤنسْنَ والدته، سبعةَ أيّام لتتَعوّد على غُربتها. الموتُ ولو أنّه مؤلم، يندرج في المُواضعات الاجتماعيّة التي تقتضي الاحتفاء بالميّت وإعلاء شأنه.

خلال أسبوع كامل لم تفرغ الدار الكبيرة من المُعزّين والزائرين والنساء المُؤنسات لأمّه الأرملة الشابّة. موائد الأكل مبسوطة في كلّ حين، والأقارب يرسلون الخرفانَ وأكياس السكّر والقمح، وثلاث طبّاخات لا تتوقّفن عن إعداد الوجَبات للوافدين على البيت، وقصعات الكِسْكُس تُرسَل إلى الفقراء المُتردّدين على بعض المساجد للاستفادة من صدقات المحسنين والذين ثكلوا ذويهم. طقوس رافَقَها الترحُّم المستمرّ على روح الفقيد والإشادة بفضائله وحسن سلوكه. وفي آخر يوم من أيّام المأتم، كان توفيق قد اندمج في مسؤوليّته الجديدة وبدأ يُنسّق مع أمّه لاستئناف الحياة.

جُلّ الذين تحدّث إليهم توفيق خلال زيارات المُواساة، نصحوه أن يحصل على عمل في الوظيفة العموميّة ويتابع دراسته في الوقت نفسه بمعهد الدراسات العليا الذي فتَحتْه الإدارة

الفرنسيّة لتدريس التاريخ والقانون والترجمة واللغة البربريّة واللغة الدارجة. . والمُتخرّجون من المعهد يُؤمنون مستقبلاً مُريحًا، ومَنْ يدري فهذا الدبلوم قد تزداد قيمتُه إذا ما استقلّ المغرب؟

يستعيد توفيق الصادقي ما رآه وسمعه، ويستشرف بخياله ما سيُقدم عليه من خطوات. من قبْل، كان ينتظر مُتهيّبًا، مُتلهّفًا، السفر إلى فرنسا والاندماج في مجتمع مُغاير، يبدو له من خلال ما قرأه ومن خلال الفرنسيين الذين كانوا يتردّدون على خِيام الضيافة التي كان القايد الصادقي يَنصِبُها لاستقبال المسؤولين الفرنسيين في مناسبات رسميّة. ولم يكن يُخفي زهوَهُ وهو يُحادثهم بلغتهم، ويترجم لأبيه ما يستعصي عليه من كلامهم. «ولد نبيه، يُتقن الفرنسيّة مثلنا. مستقبل لامِع ينتظره».

نهاية الأربعينيّات، بعد أن وضعت الحربُ العالميّة الثانية أوزارها، والمغرب يعيش على إيقاع مطالب الحركة الوطنيّة التي تلخّصها كلمة «استقلال». والأب الصادقي يحدّث ابنه عن تلك الحركة، ولم يكن متحمّسًا لتلك المطالب لأنّه مبهور بمنجزات فرنسا وقوّتها، وأيضًا لأنّه يستفيد من السلطة التي منحتْه إيّاها. . . وهو، توفيق، مشدود تمامًا إلى الأفق الجديد الذي انفتح أمامه منذ دخل الليسيه الفرنسي وتشبّع بنموذج للعيش مُخالف لما ألِفَه منذ طفولته. يعتبر نفسه محظوظًا بأن يكون ضمْن قِلّة هي على الطريق لاكتساب شهادات تجعل منها نخبة متعلّمة تتَولّى تدبير شؤون البلاد ومدّ الجسور مع حضارة مُبْهرة، إشعاعاتها تخلب الألباب يومًا بعد يوم، وأطيافها تتَخايَلُ لأذهانِ شُبّان المغرب

المتعلّمين الذين يشعرون أنّهم منذورون لتجديد مجتمعهم وانتشاله من إهابِ التقاليد العتيقة التي مهّدت الطريق أمام دخول الحماية الفرنسيّة... يسرح بذهنه وأفكار وصُوَر تنثال عليه، تتزاحمُ مُتراكبة دون انتظام. الشعور بالحظوة يمنحه الثقة والعزيمة؛ وغياب الأب المفاجئ يُلقي ظلال الشكّ والارتياب. إلّا أنّ اللحظة المُبهمة، الجاذبة، المُقترنة في مُخيّلته بالمستقبل تجعله واثقًا من أنّه سيتغلّب على الصعاب ليصبح واحدًا من تلك الفئة المحظوظة، المنذورة لتحقيق رغد العيش والتحرّر من الجمود، واكتساب المعرفة.

لا، قد لا تكون الهواجس التي مرّتْ في خاطر توفيق هي هذه التي افترضناها. فُسحة التخيُّل أوسع من أن نحيط بها. دعنا نقُلْ إنّه كان يحدس أنّه يعيش في عصر مُغاير لذلك الذي نشأ فيه أبوه وأمّه. يحسّ أنّه يُطلّ على شساعة مُدوّخة، معها تبدو كلّ الأحلام ممكنة: مِنْ مصِّ حلمات العذارى إلى قطْفِ النجوم بالبَنان!

لكنّه طوال أسبوع المأتم وطقوس العزاء، استغرَقتْه صور قويّة من طفولته، غرَسَتْهُ من جديد في ذلك الكامن تحت الجِلد وبين المسامّ: ليالي رمضان عندما يرافق والده إلى صلاة التراويح، مشاهد الفروسيّة (الفانتازيا) في مناسبة الاحتفالات الرسميّة والأعراس والمواسم بفضاء «زعير»، لقاءات العائلة والأقارب في بيت أسرة أمّه بمدينةِ سلا أثناء إحياء سهرات الأمداح وموسيقى عيساوة وَكناوة وما يواكبهما من طرائف وبهلوانيّات... كأنّ كلّ

ذلك مُستقرّ في حيّز من ذاكرته لا يبْرحه، سرعان ما يستيقظ كلّما استرجع طفولته.

ربّما هو في هواجسه وتخيُّلاته يغبط أبويْه لأنّهما يعيشان في تلقائيّة وهَناءةِ بالٍ، وكأنْ ليست هناك تساؤلات تقضّ مضجعهما. يحافظان على نمط العيش الموروث. يُقبلان عِلى ما يفِدُ على البلاد من أدوات ومخترعات: الراديو، السيّارة، الهاتف...، أمّا هو، فتتنازعه مشاعر مُتضاربة: الإقبال والتعطّش إلى ما تحمله اللغة الفرنسيّة وأبناؤها من أساليبَ عيشٍ مُختلفة، وفي الآن نفسه استجابته العفويّة إلى مظاهر الحياة الموروثة التي تُدفئه بروحانيّتها الجماعيّة المؤنسة. هو يُدرك أنّ هناك نُقطَ افتراق بينه وبين والديْه، لكن ذلك لا ينقصُ حبّه لهما.

لا يدري لماذا يستهويه تاريخ القرن الثامن عشر في فرنسا؟ تاريخ يضجُّ بأفكار الفلاسفة وجُرأة الروائيين، ويقدّم نماذج بشريّة من النساء والرجال الذين دشّنوا مرحلة غير مسبوقة في علاقة الفرد بالمجتمع والأخلاق. هو يستحضر حركات أستاذ التاريخ وحماسه أثناء إلقاء الدرس، ولا يعرف في الوقت نفسه كيف يُبرّر أنّ بلادًا لها مثل هذا التاريخ، يستبيح أبناؤها أن يستعمروا بلادًا أخرى يتصرّفون فيها بجبَروتٍ وعنجهيّة واستغلال؟ مع ذلك، يتقبّلُ توفيق بينه وبين نفسه أن تكون فرنسا المنارةَالتي ستُخلّص بلاده من عقابيل القرون الوسطى وتدفعها لاستقبال أنوار القرن العشرين!

يتيهُ في أحلامه وتخييلاته، ربّما من دون أن يستقرّ على

مرفأ. الإحساس بثقل العبء يُؤرقه ويطيل تقلّباته على الفراش. تعَلّقُه بالأمّ لا حدود له. هي التي ستقوده في هذه المرحلة الشائكة. يُعجبه أناتها وحرصها على صورة العائلة في أعيُن الناس. صارمة وحنون. يعرف أنّها لن تتزوّج مرّة ثانية لأنّ التقاليد العريقة التي تنتمي إليها تقتضي أن «تحضنَ على أولادها». طالما حكتْ له، عندما كان يتمدّد إلى جانبها لاستدراج النوم في نهاية طفولته، قصصًا عن جدّها وأبيها وأخوالها المُتحدّرين من عشيرة الشرفاء الذين كانت حياتهم تنتمي إلى عصر آخر. حياة مُزركشة تتلألأُ سماؤها بالأفراح لليالي الأمداح النبويّة، ويُضفي عليها الطمأنينة إيمانٌ مطلق بالله والقَدَر، خيره وشرّه.

يفتقد، كلّما انتقل به العمر من سنة إلى أخرى، تلك اللمسات النُّورانيّة التي زرعتْها الأمّ باكرًا في لاوَعْيِه فأسبلتْ عليه حُلّة الهدوء والرزانة والنضج المبكر.

لم تعد الأمور واضحة كما كانت تبدو له قبل أن يغيب الأب. بات يجد نفسه أمام مفرق طرُق، وعليه أن يُعيد التفكير والاختيار. عليه أن يعيد التفكير على رغم تعلّقه العنيد بارتياد ذلك العالم الآخر الذي استكشف بعضًا من ملامحه عبْرَ المدرسة الفرنسيّة. لا شيء يُعطَى أو يُختار مرّة واحدة كما كان يظنّ. بلْ إنّ ما يحدث الآن، بشكلٍ مُدوّ في مجتمعه، يوقظه من غفوته ويُنبّهه إلى ما لم يكن يُعيره اهتمامًا: زيارة الملك محمّد الخامس، منذ سنة إلى طنجة (١٩٤٧) عقبَ أحداث الدار البيضاء الداميّة، والخطاب الذي ألقاه فيها ترَكَ أصداء واسعة. أعلن

الملك أنّ المغرب بلد عربي، حريص على وحدته وصيانة مبادئه الثقافيّة والدينيّة وتحقيق مطامحه إلى الاستقلال وانتهاج سبيل الديموقراطيّة. . . هذه باب واسعة يفتحها خطابُ طنجة أمام المغرب والمهتمّين بمستقبله؛ وتوفيق كان غافلاً عنها كأنّما ظنّ أنّ الوجود الفرنسي ضرورة لولوج الحضارة الأوروبيّة التي بدأ ينتَشي بِرحيقها. «هذا عصر آخر» قال له خالُه المتحمّس لمطالب الوطنيين والمُعتقد أنّ في التراث الإسلامي ـ العربي ما يمكن الاستهداءُ به، لارتياد حضارة القرن العشرين. نحن أقوياء بإخواننا في المشرق والمغرب، يُردّد الخالُ، ولا مانع من أن نقتبس من فرنسا ما هو مُفيد، لكن عهد الاستعمار آذنَ بالزوال.

ـ ٢ ـ

أتساءل أحيانًا، أنا توفيق الصادقي، عمّا إذا كان المرء يستطيع أن يُلخّص حياته دفعة واحدة، انطلاقًا من لحظات جوهريّة (أعني يعتبرها هو مهمّة)، وظلّتْ عالقة بالذاكرة والوجدان؟

ألفتُ أن أعيش في بذْء كلّ لحظة، وكأنّ بيني وبين الأحداث والناس حجابًا يَحولُ دون تخمين التفاصيل والمشاعر. لكن، ما أن تمُرّ أشهُر حتى تستقطر الذاكرةُ من الأحداث أهمّها، أيّ تلك التي ظلّت، عبْرَ اللاشعور، مُتغلغلة نافذةً إلى المسامّ. وفي كلّ مرّة وأنا أختلي بتلك اللحظات، أحسُّني خفيفًا أتنقّلُ مُجنّحًا بين عوالمها التي تتلألأُ مُشرقة في خاطري.

اليوم أكملُ سنبتي السابعة عشرة. ولدتُ في ١٩٣١/٦/٥، ولا تفصلني عن شهادة الباكالوريا، فرع الآداب، سوى بضعة

أشهر. لكن وفاة أبي القايد الصادقي منذ شهرين، دفعتني إلى تغيير المسار الذي خطّطتُه من قبل لمستقبلي.

أقف قريبًا من نافذة غرفتي المحاذية للسطح، ناظرًا إلى سطوح بيوت الجيران البيضاء وإلى حاضنات الحَمام التي تضمّ مخادع من قصبٍ أسطوانيّ الشكل، ترْعاها أمّي بعناية وانتظام، وتتفاءل بوجودها في البيت لأنّ هديلها ـ في ما تقول ـ هو ذِكْر وتسبيح لعَظمة الواحد القهّار. أسمع الهديل فيوقظ في نفسي ذكريات الطفولة والافتتان بالحمائم وهي تخطُر في وقار وأنا ألاحقُها مُتعثّرًا، محاولاً الإمساكَ بها...

لديَّ إحساس أنّ هذه السنة (١٩٤٨) تختلف عن سابقاتها. وافقتُ أمّي على أن ألغي مشروع السفر إلى باريس لإتمام دراستي، وأن أظلّ إلى جانبها لأساعدها على تربية أخي وأختي الأصغريْن، وألتحق بعمل يجعلنا نحافظ على مستوى العيش الذي كان الوالد يوفّره لنا. قالت إنّه لم يترك ثروة يُعتدّ بها وأنّ ميْله إلى الفخفخة والولائم الباذخة لم يُتح له ادّخارَ ما يُغنيني عن العمل. أستمع إليها مقتنعًا بما تقوله وأنا أعلم في الوقت نفسه أنّها هي الأخرى لن تتخلّى عن ليالي الذكْر والأمداح النبويّة التي تُقيمها في بيت الشرفاء الذي ورثتْهُ عن والدها بمدينة سلا. أعرف أنّها احتفظتْ بالبيت لإحياء المناسبات الدينيّة وإطعام فقراء المدينة، والصدْح باسم الله عاليًا طوالَ الليالي المُخلّدات عند أهل الطرُق. غدَتْ تلك الليالي أكثر من واجب تتقيّدُ بأدائه. إنّها طقوس وشعائر تُسعفها على ضبط إيقاع حياتها اليوميّة وعلى

الملاءمة بين الحياة الدنيا التي كان الوالد مُقبلاً عليها، والحياة الحميمة التي تجعل أمّي أقرب إلى المتصوّفة وأهل الفضيلة.
يتراءى لي الآن، في ما يُشبه الومْض، أنّ أبي كان يحقّق توازنه من خلال تقوى زوجته وانجذابها إلى الطقوس الدينيّة الموحية بالتكامل المُرتجى حسب القول المأثور «الإسلام دينٌ ودنيا».
أحسّ بانجذاب إلى صورة أبي البشوش، دائم الحركة، الذي يمارس منصب القيادة في تلقائيّة وكأنّه نِدّ لمفتّش الشؤون الأهليّة الفرنسي. دائمًا يجد حلولاً ويعرف كيف يحمي مصالح الناس.
ولعلّ إعجابي به يعود أيضًا إلى ثقته فيّ وهو يراني أحاورُ ضيوفه الأجانب وأستعدّ لمتابعة دراستي العليا بإحدى جامعاتهم. تواطؤٌ بيننا لا أستطيع تحديد جوهره. ها هُو يرحل فجأة ويتركني في وضعيّة أثقل مِنْ ما تقْوى كتفاي على حمله. لكنّني لا أستطيع التراجع. أشعر أنّ علاقتي بأمّي، رغم حميميّتها، تنطوي على تحدّ لاختبار ما اكتسبتُه طوال السبعة عشر عامًا الماضيات. وكُتلةٌ مضيئة تلوح من بعيد، كأنّها جبل صغير، يستثير همّتي لأجتاز المسالك الوعرة التي تقود إليه. إنّه طَعمُ المعرفة الجديدة التي تذوّقتُ سحرها في المدرسة الفرنسيّة وما تنطوي عليه من رموز الامتياز والاصطفاء. لنْ يمنعني شيء من متابعة هذه الطريق.
اضطراري إلى البحث عن عمل لن يحول دون متابعة دراستي الجامعيّة بالمُراسلة والمساهمة في هناء أسرتي. كلّ هذا أدركه الآن وأتّخذه هدفًا. ومن خلال السعي إليه ستتبلوَر إرادتي وأفرض مكانتي مسؤولاً عن الأسرة إلى جانب أمّي.

بضعةُ أشهر تفصلني عن امتحان الباكالوريا الذي هو جواز

ضروري لإثبات الكفاءة والتطلّع إلى مجال التخصّص. أنا من أوائل تلامذة الفصل، مع ذلك أضاعف الجهد وأستعجل يوم الفوز... فعلاً، جاء نجاحي في الامتحان كما كنتُ أتوقّعه، فبادرتْ أمّي إلى إحياء ليلة أمداح في بيتها بمدينة سلا. التأم شمل العائلة وأصدقاء الوالد، وغمرت الفرحة القلوب. أشعر بِزهْوٍ لا أفصح عنه لأنّني حقّقتُ الخطوة الأولى على الطريق الطويل الذي رسمتُ معالمه. لم يستطع خالي أن يثنيني عن عزمي، لأنّني أصررتُ على رفض السفر إلى باريس وتشبّثتُ بفكرة العمل في إحدى الإدارات ومتابعة الدراسة بالمراسلة. ليلة الأمداح تصدح والبهجة تكاد تخفي ظلال حزننا على الأب الفقيد، وبناتُ الأقارب يتناوبْنَ على تهنئتي بالنجاح الذي يبدو بعيد المنال في أعيُن الكثيرين. بعض الأمّهات يخاطبنَ أمّي ضاحكات: «وتفرحي به إن شاء الله وهو عروس»، في حياتكم، تردّ أمّي وهي تتطلّع إلى البنات اللائي يكدْنَ يلتهمنني بأعينهنّ. أنا أبتسم في حرج مُحوّلاً بصري إلى جهة بعيدة.

«الجِدّ والتّمارة» أصبح شعاري وطابع سلوكي: أكون جادًّا في ما أقدم عليه لتكون مشروعاتي مُثمرة، تُثمر الخير والبركة وتحقّق ما أرجوه من نجاح. أتصرّف الآن على هدى من هذا الشعار ولا أترك للشكّ أو التردّد بابًا يتسلّلان منه. حتى بعض لحظات اللهو التي أقتنصها في غرفتي الفوقيّة، بالتناوُب، مع خادمات البيت الثلاث، بدأتُ أعرض عنها خوفًا من أن يفتضح أمري. هنّ خادمات في سنّ المراهقة كان أبي يسْتلِمُهنّ من عائلاتهنّ في زعير أو من مدينة وزّان، لأنّ آباءهنّ لا يريدون أن

يرسلوهنّ إلى المدرسة، ويُفضّلون أن يأتوا بهنّ إلى دار القايد ليتعلّمن الطبخ والنفخ والحذاقة والتقاليد التي تصون الشرف! ودائمًا هُنّ بنات فتخاوات تفيض أجسادهنّ أنثَويّة وحيويّة. قاومتُ في البدء إغراءهنّ، لكنّني وجدتُني أستجيب لرغبتي الجامحة في قطْفِ المتعة البريئة المُتحدّرة من أجسادهنّ الفتيّة، المُتضوّعة برائحة الحنطة ودفء الشمس. يتمّ ترتيب اللقاء معهنّ من خلال تفَاهُم تنسجه العيون، وكلّ واحدة منهنّ تتظاهَرُ وكأنّها هي الوحيدة التي أختلي بها؛ واللعبة سارية في قوانينها ومواعيدها، والالتحاف بالحِشمَة أمام بقيّة أعضاء العائلة يُسعف على أن تبدوَ الأمور في اعتيادها المعهود. كثيرًا ما أحسّ بالضعف أمام استثارة جسدي فأتمنّى أن أمحوَ هذه الغريزة التي تجعلني مثل الآخرين. لكنّني، وأنا في غمْرة التقبيل واللمس وتحريك الفُرشاة، تجتاحني نشوة عارمة ولا أجد حرجًا في ما أفعله بتوافُق مِع الخادمات الثلاث: أحسّ أنّ دائرة تضمّنا، أنا في وسطها وهنّ يتناوَبْنَ على زيارة مركزها، ونشوة متجدّدة تغمرنا.

أعرف أنّ فتيات كثيرات من عائلات الأقارب والأصدقاء يتمنّيْنَ ربطَ علاقة بي، لكنّني أتباعَدُ مُتملّصًا، فمثل هذه العلاقة قد تعوق تنفيذ مشروعي الذي يحتاج إلى كلّ جهودي... عليّ الآن أن أفكّر في تنفيذ ما قرّرتُ، بعيدًا من متاهات العواطف وعواقبها. الأبيات الشعريّة من مسرحيّة كورنييْ «السيد» (Le Cid)، التي درسناها في قسم الباكالوريا لا تزال ترِنُّ في أذني لتذكّرني بأسبقيّة الواجب على العاطفة!

استيقظتُ هذا الصباح عند الفجر وأدّيتُ صلاة الصبح مع

أمّي، ثم تناولنا فطورنا صامتيْن. هي تعرف أنّه أوّل يوم ألتحِقُ فيه بمصلحة ضريبة الترتيب التابعة للشؤون الماليّة، لذلك لم تفتَرّ عن الدعاء لي بالتوفيق في وظيفتي. أنا مُتهيّب من التجربة، إلّا أنّني مصمّم على اتّباع الطريق الذي اخترتُه بتواطؤ مع أمّي.

كنتُ أوّل الواصلين إلى مصلحة الترتيب، فكان عليّ أن أنتظر أمام مكتب المدير الفرنسي وصوله. استقبلني بحفاوَة لأنّ تعييني يسنده رئيس الشؤون الإداريّة للأمْن الداخلي التي كان أبي تابعًا لها، وربّما احتفى بي أيضًا لأنّني حاصل على شهادة الباكالوريا النادر حصول المغاربة عليها آنذاك؟

شرح لي المدير اختصاص مصلحة ضريبة الترتيب التي ترجع فكرتُها إلى عهد السلطان الحسن الأوّل في نهاية القرن التاسع عشر، قبل فرْض الحماية الفرنسيّة على المغرب، لأنّ السلطان كان في حاجة إلى تأمين ميزانيّة تسمح بالإنفاق على الجيش، وتُغطّي نفقات «الحملات» المُتوالية التي كان يقودها مِنْ على صهوة جواده لاستتْبابِ الأمن، وإخْضاع بلاد «السّيبة»، وتعويد الفلّاحين على أداء الجباية في شكل ضريبة الترتيب. لكن عوائق حالتْ دون تحقيق مشروع السلطان، كما عطّلتْ مساعي ابنه مولاي عبد العزيز الرامية إلى ترتيب شؤون الدولة الماليّة. وأضاف المدير مُبتسمًا: أنت تعرف أنّ المغرب صعبُ المِراس، وأنّ إخضاع قبائله ليس أمرًا هَيّنًا، وهو ما أفشلَ مساعي «المخزن». لكنّنا استطعنا، بعد دخولنا إلى المغرب، أن نُعيد فرْضَ ضريبة الترتيب في سنة ١٩١٥، أي بعد ثلاث سنوات من

إقرار الحماية. وها قدْ مرّتْ أكثر من ثلاثين سنة على نجاح هذا المشروع الذي عجز المخزنُ عن تنفيذه؛ وبفضل ذلك، أنجزْنا إصلاحات كبيرة وشاملة، أنت تعرفها ولستُ في حاجة إلى تذكيرك بها... يتحدّث المدير باعتدادٍ لا يخلو من صلَف، مُستوثقًا من اقتناعي بما يتفَوّهُ به، لأنّني إحدى ثمرات هذا التّحديث الذي نجحتْ فيه الحمايةُ الفرنسيّة، حسب رأيه. ما كان بوسعي أن أجادله أو أن أذكّره باستفادة فرنسا من تلك الضرائب؛ فهُوَ أوّل يوم لي في العمل الذي يتوقّف استمراري فيه على اطمئنانه إلى أنّني مقتنع بالدور «الحضاري» الذي تضطّلع به فرنسا في بلادي!!!

مسؤوليّتي في العمل غير مُثقلة للكاهِل، فقد أسنَدَ إليّ المدير مراجعةَ نتائج العمليّات الحِسابيّة التي كان موظّفون من داخل المصلحة، أو مُتعاقدون من خارجها، يُنجزونها حسب الأرقام المُثبتة على مطبوعاتٍ واردة من إدارة المناطق الفلّاحيّة عبْرَ المغرب، تُبيّنُ المُستحَقّات الضرائبيّة. سرعانَ ما تدرّبتُ على الجمع والطرح والقِسْمة بأقصى سرعةٍ ممكنة، وهو ما يُوفّر لي وقتًا للقراءة أحيانًا، أثناء الدوام. زملائي المغاربة يرحّبون بي وبكفاءتي، والعلاقة تتوطّد بيننا في ظلّ المناخ الوطني الآخذ بالتماسُك والتبلوُر.

خلال هذا الأسبوع، أنجزتُ الخطوة الثانية في مشروعي، إذ سجّلتُ نفسي بمعهدِ الدراسات العليا، لمُتابعة حصص الترجمة التي يُدرّسها البروفسور الخلادي بعد السادسة مساء، ليتسنّى لعددٍ

من الموظّفين، مثلي، أن يُحضّروا شهادة في إحدى تخصّصات هذا المعهد. الأستاذ الخلادي مربوعُ القامة، أسمر البَشَرة، غزا الشيْبُ رأسه لكن بِنيَتَهُ القويّة تضفي عليه حيويّة وهيْبة. يبدو مُتمكّنا من اللغة الفرنسيّة، وعربيّتُه تكسوها ملامح بلاغةٍ قديمة، ومُعظم النصوص التي يُدرّسها لنا مأخوذة من «كليلة ودمنة» و«البيان والتبيين» و«نهْجُ البلاغة»... قِيلَ لنا إنّه من أصلٍ جزائري، درَسَ في السوربون على يد مُستعربين ذائعي الصيت، قبل أن يستقرّ بالمغرب. حينَ قدّمتُ له نفسي مُستأذنًا في حضور دروسه، تعرّفَ على والدي من اسم العائلة واستفسرني إن كنتُ على صلةٍ به، لأنّه كان قد التقاه قبل وفاته. تأسّف الأستاذ الخلادي لأنّني لم أتابع دراستي في فرنسا، واقترح عليّ أن أسجّل نفسي في جامعة مدينة بوردو لأحصل على ليسانس الحقوق بالمُراسلة. راقَني اقتراحه وصمّمتُ على تنفيذه للاقتراب من الهدف الذي خطّطتُه.

أحسُّني ممتلئ النفس بِطاقةٍ مُتوفّزة تستحثّني على استثمار الوقت كلّه لإنجاز ما أصبو إليه. وفي غمرة ذلك، أخصّص حصصًا لمراجعة الدروس مع أخي عمر وأختي فدوى. وقبل النوم، يكون لقاء مع أمّي لطَمْأنتها على أحوالي والاستماع إلى نصائحها. السفينة تتحرّك نحو الوجهة الصحيحة، أقول مع نفسي، لكن خواطر قاتمة تلاحقني فأداريها بضرورة التركيز على ما هو ملموس. لا يتّسعُ وقتي للانسياق مع التهويمات والافتراضات المجرّدة. مع ذلك، وجدتُني أمس، وأنا خارج من جامع السنّة، بعد أداء صلاة الجمعة، أسرّح نظري في جموع المُصلّين المُرتدين

جلابيبهم البيضاء وطرابيشهم الحمراء، المالئين الشارع الكبير، وهم يتهادون في مشيتهم، يتمايَلون ذات اليمين وذات اليسار، ورؤوسهم تتْبَع حركة الأجساد المُتمايلة كأنّها بُندول ساعةٍ يرقص في إيقاع رتيب! أنظر إليهم وأبتسم، لأنّ هذه المشيَة المُوقعة تتَنافَى مع رغبةٍ مُتوثّبة في داخلي، تتحفّز لتحقّق بسرعة، كلّ ما ينتظرني على الدرب الطويل.

وأنا عائد اليوم من عملي، مررتُ أمام كنيسة في حيّ حسان فلَفَتَ نظري إعلان بالبنط الأسود العريض، عن عرْض فيلم سينمائي في السادسة والنصف، بقاعةٍ مُلحقة بالكنيسة. عنوان الفيلم «دمُ شاعر» (Le sang d'un poète)، كتب السيناريو وأخرجه جانْ كوكتو. شبّان ورجال واقفون مُتحلّقون حول راهب يرتدي كساء أبيض وحزامًا بُنّيًا مضفورًا يتدلّى جانباهُ عند وسط جسده. لاحظَ تردّدي فسألني إن كنتُ أريد مشاهدة الفيلم. رحّبتُ بدعوته ودخلتُ إلى القاعة مُتطلّعًا إلى ما سأشاهده. يحكي الفيلم عن نحّاتٍ نراه أوّلَ مرّة مُنكبًّا على تمثال يستعصي على إزميله. النحّاتُ يتحدّث مُناجيًا ملامح التمثال الذي لم يكتمل بعد. حركاتُه تنِمُّ عن توتّر وحيرة. بعد لحظات صمت مشحون بالتأوّهات، تحوّل التمثال فجأة إلى إنسان ناطق، أمرَ الفنان أن يتوجّه إلى المرآة الموضوعة على الجانب وأن يدخل في ثناياها. نفّذ النحّات أمر التمثال غير المكتمل، وسرعانَ ما وجدَ نفسه في فندق فخم، تمتلئ ردهاته بنساء ورجال في أوْج أناقتهم، يتحدّثون ويضحكون بصوت مرتفع، ويتبخترون في مشيتهم. وقف النحّاتُ مشدوهًا ضائع النظرات. اقتربت منه امرأة جميلة ترتدي فستانًا

مكشوف الكتفَيْن وقفّازًا من حرير، واضعةً في مبسمها سيجارة يحتويها حامل من العاج. تأبّطتْ ذراعه وهي تقول له: يظهر أنّك غريب عن هذه الأجواء؟ تعال سأفرّجُك على المرقص والمطعم وعلى ما يجري في الغُرَف المخمليّة ومَحْشَشات الأفيون... انطلاق وانشراح وتحرّر من القيود. أخذ يستأنس بتلقائيّتها وقُدرتها على الفَتْن والإغواء. يطوفان بمشاهد لا تبدو أنّها تمُتّ إلى عالم الواقع، لكن كلّ ما يراه ملموس وحافز للشهوة والاندفاع. أبْدى رغبته في أن يُقبّلها انفلتتْ من أحضانه وهي تلاطفه بلمسات تحبّبُ إليه الاستمرار في التجوّل معها والاستماع إلى تعليقاتها النافذة. في لحظة معيّنة، وجد الفنّان نفسه أمام باب معمله، وحيدًا، والمرأة الحسناء اختفتْ. ارتاد معمله فلاحظ أنّ التمثال الذي كان ينحته قد اختفى. اقترب من المنصّة التي كانت تحمل هيكل التمثال، وإذا به هو يتحوّل إلى تمثال مكتمِل، ومن عينيْه تُطلّ نظرات دهشة يلقيها إلى عالم لم يعد ينتسب إليه!

بعد انتهاء عرض الفيلم، وقف الراهب الشابّ ليستطلع رأي المشاهدين ويستثير تعليقاتهم. أبدى بعض الحاضرين إعجابهم بشاعريّة الفيلم وتناسق الأزياء والأثاث والموسيقى، وأشادوا بالفكرة الأساس التي تقرِنُ تشخيص الحقيقة بالتمازج معها على حدّ التقمّص والتضحية بالوجود لأجل تجسيد جوهر الشعور... تردّدتُ قليلاً ثم قرّرتُ أن أُبدي رأيي على رغم أنّني لا أفهم في تقنيّة السينما ومسالكها المُضيّعة. قلتُ: أعجبتني الصور والنصّ الشعري المصاحب، لكنّني لا أفهم لماذا لجأ المخرج إلى تصوير مشاهد من حياة أناسٍ مُنحلّين، مقبلين على الرذيلة بشراهة؟ وما

لا أفهمه أكثر، هو أن تعرض الكنيسة فيلمًا من هذا الصنف الذي يتعارض مع رسالة الفضيلة والتقوى المنوطة بها.

ابتسم الراهب قبل أن يخاطبني: أتفهّمُ ملاحظتك، لكنّني أريد أن أوضح أنّنا لا نتبنّى كلّ ما ورَدَ في الفيلم. غير أنّ ما التقطه كوكتو هو جزء من واقع مجتمعنا الفرنسي الذي قطع أشواطًا من الحياة العصريّة وتوفير الرخاء والمُتع. والفضيلة لا توجد غالبًا إلّا في جوار الرذيلة، أو ما نعتبره، في المسيحيّة، صراعًا بين الخير والشرّ. وكوكتو الفنّان، يجمع بين الرسم والشعر والرواية والسينما ليُعبّر عن رؤية لا تتعارض، في العمق، مع الرؤيا الدينيّة؛ فهو يرى أنّ العقل وحده لا يستطيع إدراك الحقيقة أوْ فهْم تعقيدات السلوك البشري. ومن ثم إلحاحه على دور الإحساس والقلب والشعْر. الدينُ هو أيضًا إيمان بالعقل والعاطفة والروح معًا. ومنذ تعييني في أسقفيّة الرباط، وأنا حريص على أن أقدّم ثقافة المجتمع الفرنسي في تجلّياتها المختلفة، وخاصّة في السينما التي أصبح لها الآن دور كبير في التقاط تحوّلات العلائق والعمران والأفكار...».

طوال هذه الليلة، لاحَقتْني صورُ ومشاهد فيلم «دمُ شاعر»، لأنّها أنْبَتَتْ شكوكًا كثيرة في أرجاء نفسي وكادتْ تزعزع الغطاء الديني الذي التحفْتُ به منذ الطفولة، وألفْتُ أن أحتميَ به من هجمات التجديف والارتياب. النساء الجميلات الكاشفات عن محاسنهنّ والقبلاتِ المُتبادلات في خلاعة وتهَتّك، ودخان الأفيون الذي يُسربل المحششة، واللغة المُستهترة... كلّ ذلك

يكشف عن عالم موجود في مكان آخر، وعن أناس يستجيبون لصوت الشيطان الذي أمَر النحّات أن يدخل إلى المرآة ليكتشف ابتذالَ العالم ورذائله. قوّة الصورة تُلاحقني وأنا أتقلّب في الفراش مُراودًا النوم علّهُ يُخلّصني من سطوة الإغواء. وحين استسلمتُ للنوم، وجدتُني في خضمّ من الأحلام المتشابكة. استهواني الجزء الأوّل من الحلم إذ رأيتُني في غرفتي الفوقيّة مدسوسًا وسط الخادمات الثلاث، عرايا جميعنا، نتبادل اللمسات والقبلات وأنا أتكلّم بصوت مرتفع مُفعَم بالمرح والشيطنة... فجأة، انتصبتْ أمّي عند مدخل الغرفة ويداها على خصرها وهي تقول غاضبة: «هدا هو السي توفيق اللي تنْترَجّاوْ بركته؟ ما بقى عندكْ حْيا؟».

انتفضتُ لأتخلّص من وطأة الأجساد البضّة، واضعًا يديّ على حِجْري لِسَتْر عورتي المُنتصبة، لكنّني كنتُ في الواقع، أعود إلى اليقظة طاردًا المشهدَ الحميمي الذي تحوّل إلى كابوس.

ـ ٣ ـ

سريعًا مرّتْ ستّ سنوات، منذ التحاقي بالعمل في مصلحة ضرائب الترتيب. إلّا أنّها أيّام مليئة بالأحداث الوطنيّة وإنجازاتي الشخصيّة. استطعت أن أحصل على شهادة الترجمة من معهد الدراسات العليا، كما أحرزتُ هذه السنة، ١٩٥٣، على ليسانس الحقوق من كلّيّة بوردو. برنامج مُكتظّ لاءمتُ فيه بين الوظيفة والتحصيل الجامعي. أحسّ رضًا عن النفس وأزهو بتقدير أمّي والعائلة لمجهوداتي المُثمرة. لكن ما يبعث القلق في نفسي هو التطوّر المُتسارع لزخْم الحركة الوطنيّة وصِداماتها مع قوى الحماية الفرنسيّة. منذ خطاب الملك محمّد الخامس في طنجة (١٩٤٧)، بدأتْ أواصر التحالف تتقَوّى بين الحركة الوطنيّة والعرش، وأضحتْ قضيّة الاستقلال هي أفقُ الفعل ومآل استراتيجيّة النضال. تفاجأت الإدارة الفرنسيّة والمعمّرون بتعاظُم الكفاح وتقديم القضيّة إلى الأمم المتّحدة، فجرّبَتْ أساليب الوعود

بالإصلاح أحيانًا، ولجأتْ إلى القمع غالبًا، لكن تلاحم الشعب والملك ما انفكّ يزداد وثوقًا. عندئذٍ قرّرتْ أن تنفي الملك وعائلته إلى كورسيكا ثم مدغشقر، ونصّبتْ على العرش شيخًا محدود الثقافة والذكاء، ينتمي إلى السلالة العلويّة ويصلح أن يكون دمية في يدِ الباشا الكلاوي وحلفائه الإقطاعيين خادمي مصالح فرنسا في المغرب...

منذ شهر ونحن نعيش في مناخ الصدمة العنيفة ليومِ نفْيِ الملك (٢٠ أغسطس). كنتُ قد توصّلتُ بنتيجة نجاحي في إجازة الحقوق، فقرّرتُ مع أمّي أنْ نُمضيَ جميعًا شهرًا على شاطئ كدينة الجديدة. غير أنّنا فوجئنا بعد أسبوعيْن بانفجار الأزمة فعُدنا سريعًا إلى الرباط، وبدأتُ أنا بالاتّصال بخالي المنخرط في الكفاح الوطني ليضيء لي أحداث المرحلة، وواظبتُ على الاستماع إلى إذاعتيْ صوت العرب ولندن، وحرصتُ على قراءة المنشورات السرّيّة الصادرة عن القيادة التي لم تُعتَقَل. دوّامة لا تهدأ من الوقائع والأخبار لم أجرّبها من قبل. هذا ما يجعلني مشغول البال باستمرار؛ لأنّني اعتدتُ ضبطَ وقتي والتحكّم فيه. الآن أحسُّني مُنجرفًا مع إيقاع لاهِث يهجس بالمفاجآت والمخاطر والترقُّب.

لم يمنعني توتّر الأجواء والهواجس الداكنة من أن أسجّل نفسي للتدريب مع محام فرنسي، الميتر كلود، عُرف عنه تعاطُفه مع مطالب الوطنيين. قال لي مبتسمًا: لا أعرف ما تبقّى لي من مدّة في المغرب، لكنّك تستطيع أن تستفيد من خبرتي العمليّة

وتمرّن على حضور الجلسات وصياغة مقالات تقديم الدعاوى.

أُقبلُ على مكتب المحاماة بحماس بالغ على رغم انشغالي بتطوّر الصراع السياسي إلى عمليّات فدائيّة، مُدوّية في الدار البيضاء والرباط وفاس. خلايا مُتناسلة تفرّخ في مختلف المدن، والسلطات الفرنسيّة تُضاعف القمع وتوسّع الاعتقالات، وصوت «الوجود الفرنسي» يتعالى أكثر من خلال مقالات وبيانات تنشرها صحفٌ موالية للحماية وتوقّعها شخصيّات بارزة من بين المعمّرين والأطر الإداريّة العليا، وكلّها تُندّد بلجوء الحركة الوطنيّة إلى العنف والإرهاب، وتطالب بأن يكون لها شراكة تنفيذيّة في تسيير شؤون المغرب! لحُسنِ الحظّ، هناك شخصيّات وجمعيّات تضمّ مغاربة وفرنسيين، تدعو إلى حلّ عبر الحوار والمفاوضات. وهناك مجموعة ليبراليّة، فرنسيّة، أرسلتْ يوم ٨ مايو ١٩٥٤، رسالة إلى رئيس الجمهوريّة تحمل توقيع ٧٥ شخصيّة بارزة، تنادي بالتفاوض وإصلاح المؤسّسات، والإقلاع عن العنف، والإنصات لمطالب الشعب المغربي...

قال لي الميتر كلود: أنا متفائل الآن، لأنّ هناك مجموعة من الفرنسيين هنا وفي فرنسا، لا تتنكّر لمبادئ جمهوريّتنا التي تُقرّ بالحرّيّة والعدالة والأخوّة. أنا أيضًا أنتمي إلى جمعيّة «الضمير الفرنسي» من أجل الدفاع عن حقّ المغرب في تقرير مصيره؛ وهذا لا يتعارض مع إقامة علائق مثمرة في ظلّ الترابُط والتعاون الاقتصادي والاستراتيجي لحماية الصداقة المغربيّة الفرنسيّة...».

عبْر الأزقّة والمساجد، وخلال المناسبات العائليّة، أحسُّ

دبيبَ أسلاكٍ كهربائيّة، لامرئيّة، يسري في تعبيرات الوجوه والأجساد مُعلنًا التحدّي والإصرار. أحسّني مُنتميًا إلى هذه الحركة المتصاعدة صوْبَ أفق الحرّيّة والاستقلال؛ لكنّني في الآن نفسه أظلّ مشدودًا إلى استكمال الخطوات الموصلة إلى أهدافي الخاصّة. أحيانًا، أنكر على نفسي هذا التعلّق بمطامحي مُدركًا أنّ البلاد مقبلة على تحقيق تغيير غير مسبوق يستحقّ أن أوليَهُ كلّ اهتمامي. إلّا أنّ صوتًا داخليًّا يذكّرني دومًا بأن الأسبقيّة هي للنجاح في مهنتي وتشييد مستقبلي. ولا أفتأ أردّد مع نفسي تلك العبارة الفرنسيّة التي التقطتُها خلال عملي بمصلحة ضريبة الترتيب، وهي («faire carrière» تأمين وظيفة). تسلّلتْ هذه العبارة إلى لاوعيي واستوطنته في ما يشبه الهوس. لعلّني أخشى أن تتغيّر الأحوال بسرعة قبل أن أبلغ المكانة البارزة في الجهاز الكبير الذي يُسيّر شؤون البلاد ويضفي الهيبة والجِدّيّة من خلال التنظيمات العصريّة التي أرستْ دعائمها الحماية، بينما الاستقلال يستدعي تحويلاً في كلّ المجالات، وأنا متعلّق بما شيّدته قبل ذلك، مستفيدًا من فرصة وضعتني ضمْنَ خانة النخبة. لماذا الخشية إذن؟ ألستُ مسلّحًا بالمعرفة والشهادة الضروريّتيْن لارتقاء سُلّم الاستقلال؟

تتوالى الأيّام والأسابيع مشحونة بالأحداث، مليئة بالمفاجآت. ومنذ مطلع هذه السنة (١٩٥٥)، تعاظمتْ عمليّات الفدائيين في المدن ضدّ المتعاونين مع إدارة الاستعمار وضدّ رموز جالية الحماية الفرنسيّة التي لجأتْ إلى تغيير أكثر من «مُقيم عامّ». إمّا لتصعيد القمع أو لتهدئة غليان الشعب المنادي بالاستقلال

وعودة ملكه إلى عرشه. وفي شهر يونيو من هذه السنة وصل المقيم العامّ الجديد جلبير غرانفال، حاملاً خطابًا متفهّمًا ومُجريًا سلسلة لقاءاتٍ مع شخصيّات مرموقة من الأعيان والقادة الوطنيين. قال لي المحامي الفرنسي الأستاذ كلود الذي أتدرّب معه: أتوقّع تغييرًا كبيرًا على الطريق. استوضحتُه فأضاف بأنّ استقبال المقيم العامّ لمبارك البكايْ والفاطمي بن سليمان وعبّاس التازي، وهم من المقرّبين لمحمّد الخامس، ثم لقاؤه مع ممثّلي حزبي الاستقلال والشورى: اليزيدي، بوعبيد، بن بركة، الشرقاوي، بوطالب...، هي علامات كافية للقول بأنّ أيّام السلطان الموقّت باتتْ معدودة وأنّ استشارات إيكس ـ ليبان ستقرّب المسافة إلى مطالب المغرب الثائر.

فرَحٌ مشوبٌ بالقلق ينتابني وأنا أستمع إلى هذه التوقّعات المُنهية لمرحلة مُعتمة من تاريخ بلادي. شيء ما مُزلزلٌ صاعق، على وشك أن أعيشه، وهو يزيد من دوّامة الأسئلة التي تحاصرني وتُبعدني عن مطامحي الصغيرة. أضاف الميتر كلود: اللقاءات تتوالى بين الحكومة الفرنسيّة وممثّلي الحركة الوطنيّة، والملك المنفي في مدغشقر؛ لذلك أنا متفائل، خاصّة وأن إدغار فور تولّى رئاسة الحكومة بعد مانديس فرانس، وهو ذكي وذو رؤية تأخذ في الاعتبار تحوّلات العالم المتسارعة ونموّ الوعي في شمال إفريقيا. فضلاً عن ذلك، هو لا يريد أن تتكرّر هزيمة فرنسا في المغرب بعد هزيمتها في الهند الصينيّة. وأظنّ أنّه أدرك أنّ المقيمين العامّين لا ينفّذون أوامر الدولة الفرنسيّة ويتحيّزون لمصالح المعمّرين. وقد أخبرني صديق من باريس، أنّ إدغار قلق

لأنّ علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال، المقيم في القاهرة، ينتقد بقوّة فكرة الاستقلال في دائرة الترابط، ويدعو إلى تصعيد المقاومة وتعميمها في بلدان شمال إفريقيا... وكلّ ذلك ينذر بانهيار مصالح فرنسا في المدى البعيد».

لم نسافر هذا الصيف بعد أن نصحَنا خالي بالبقاء في الرباط لأنّ البلاد مقبلة على حدَثٍ مهمّ. أكتفي بالتردّد على شاطئ السباحة من حين لآخر، مصطحبًا أخي وأختي. أمّي تُفضّل الذهاب إلى بيت والدها بمدينة سلا، لأنّ السواري والزليج والغرف الفسيحة تُوفّر طراوةً تُبدّد وطأة الصهْد. هذا الأسبوع، هي أقامتْ أمسية للأمداح استدعتْ إليها الأقارب وبعض الجيران، وختمتْها بأن وقفتْ داعية بعودة محمّد الخامس إلى عرشه، مُتوسّلة بسيّد الأنام وصحابته الأقربين. استحسن خالي مبادرتها فرفع صوته مؤمّنًا على دعواتها.

حالة الانتظار والتحفُّز تستحوذ عليَّ. خلال هذا الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر تأكّدتْ عودة الملك وأسرته إلى المغرب، فيما تُتابَع المفاوضات مع فرنسا للتوقيع على وثيقة الاستقلال. يوم ١٦ نوفمبر ١٩٥٥ لا يُنسى. لا أظنّ أحدًا بقيَ في منزله. أمّي أصرّتْ على أن ترافقني لتتطلّع من بعيد إلى محمّد الخامس وهو يُحيّي بيديْه «الكريمتيْن» على حدّ تعبير المذيع المتحمّس، شعبه الوفيّ. هو يرتدي الجلباب التقليدي والطربوش الوطني مديرًا رأسه يمينًا وشمالاً والهتافات تعلو مختلطة بالزغاريد والكلاكسونات، والناس تجري من مكان إلى آخر لتُعاود الرؤية

في «الطلعة البهيّة» للملك العائد. . . ظللنا إلى ساعة متأخّرة في الشوارع المضاءة والمواطنون يتبادلون التهاني ويعبّرون عن فرحتهم في تلقائيّة وانشراح. أنا هنا معهم، وفي الوقت ذاته يسرح ذهني مع ما سيأتي، فيُحوّم على ما أنجزتُه طوال تسع سنوات جعلتني أشعر بالفخر والزهو، وأيضًا بقلق مُبهم يصاحب هذه الانتصارات التي بدأ شعبي يحقّقها. لا تخلو كلمة «شعبي» من غرابةٍ على لساني. أحاول أن أستكشف مصدر هذا القلق الذي يُعكّر صفوَ الفرح فلا أعثر على تعليل مقنع.

اليوم زرتُ الأستاذ كلود في بيته وتحيّنتُ الفرصة لأكاشفه بالمشاعر الغامضة التي تُسبل العتمة على وضاحة المناسبة وإشراقاتها. سكتَ قليلاً وهو ينظر من النافذة إلى حديقة البيت قبل أن يقول متردّدًا: «لعلّها مسألة الهويّة ما يُقلقك؟ وهو أمر طبيعي». نظرتُ إليه مُستزيدًا وأنا أستجمع أفكاري لأحدّد دلالة هذه الكلمة التي هي دائمًا ملتبسة في ذهني. بعد فترة استأنف القول: «أنت مغربي ولا شكّ، لكنّك في الآن نفسه من الذين أصبحوا على تماسّ مستمرّ مع هويّات أخرى بحكم ثقافتك وطموحك المعرفي والمهني. وهذا الحدث الذي تعيشه بلادك يطرح عليك وعلى أمثالك أن تستوعبوا ملامح الهُويّة المُستجدّة التي يحملها الاستقلال في طيّاته. تحوّلٌ ضخمٌ بهذا الحجم في مجرى التاريخ المغربي لا يمكن أن يكون سهلاً، واضح العواقب. إنّه يُمهّد لتغيير الهويّة الموروثة باتّجاه أخرى ما تزال قيْدَ التشكُّل. . .». يتكلّم الأستاذ كلود ببطء وابتسامة خفيفة تعلو شفتيْه، وأنا أبذل جهدًا لاستيعاب ما يقوله ولا أكاد أدرك ما

ينطوي عليه كلامه من إشارات عميقة.

وها إنّ يوم إعلان الاستقلال (٢ مارس ١٩٥٦) يغمُرنا بالمسرّات والاحتفالات وسيْلٍ من الخطب لا ينتهي: يخطب الملك ليقول إنّنا رجعنا من الجهاد الأصغر لنواجِهَ الجهاد الأكبر؛ ويصرّح ممثّل المقاومة بأنّ على الشعب أن يظلّ مُعبّئًا لاستكمال تحرير أراضيه وبناء دولة تُنصف الجماهير الفقيرة التي ضحّتْ في سبيل الاستقلال؛ ويُردّد ممثّلو النقابات والأحزاب، في لغة أقلّ وضوحًا وحسمًا، ما طالبتْ به المقاومة. ويدور الحديث عن تشبُّث جيش التحرير بالبقاء في مواقعه بالجنوب على أبواب الصحراء، تطلّعًا إلى تحرير ما تبقّى من الأرض وإسناد الثورة الجزائريّة التي هي في بداءتها...

بضعةُ أشهُرٍ فقط مرّت على إعلان الاستقلال، وحُميّا النشاط والتطوّع تشمل شباب البلاد في الأطراف والحواضر، وأصوات تتعالى تحُثّ المواطنين على «**إنجاز كلّ ما من شأنه أن يرفع رأسَ الوطن عاليًا**»، كالمساهمة في محاربة الأمّيّة والتطوّع لبناء طريق الوحدة، وإعطاء الأسبقيّة للسياحة الداخليّة، واقتناء منتوجات الصناعة التقليديّة... وفي مناسبة فصْلِ العملة المغربيّة عن الفرنك الفرنسي استطرد وزير الاقتصاد في خطابه فأخذ يقنع الناس بضرورة استهلاك الأسماك التي تزخر بها شواطئنا في الأطلسي والبحر المتوسّط، داعيًا إيّاهم إلى أن يُقلّلوا من التِهام لحم الغنم الجالب للكوليستيرول، فمن شأن مثل هذا التغيير أن يُنعش الاقتصاد، فضْلاً عن أنّ أكل الأسماك ينمّي ذكاء الأطفال

والبالغِين والكهول على السواء! نُتَفٌ من وقائع ومشاهد تملأ ذاكرتي، غير أنّها تتزاحم لدرجة تجعلها مُنفلتة وغائمة القسمات.

تبدو لي البلاد كأنّها ورشة معمل كبير. حركة لا تهدأ وحماس مُتدفّق. لكن مركز الثقل ونسْج القرارات أبْعد ما يكون عن المجال البادي للعيان. هذا ما فهمتُه من إشارةٍ وردتْ في مُحادثة مع خالي المشغول دومًا بمُلاحقة الأحداث. قال لي إنّ مركز الثقل يوجد وراء ستار، والذين يمسكون خيوطه يتحرّكون داخل الكواليس ويغوصون في مداولات ومُناورات لا تفتُر بين القصر والأحزاب ومُمثّلي الإقطاع المتواطئين مع الحماية بالأمس القريب... سكَتَ قليلاً ثم أضاف وفي صوته أسى: أخشى أن يغدو الرهانُ هو تثبيت شرعيّة المخزن الموروثة عن عهد ما قبل الاستقلال المُعتم، بدلاً من أن يكون هو تشييد مجتمع العدالة والتحرّر الذي ناضلنا من أجله. ألا تلاحظ أنّ الحديث عن الديموقراطيّة والملكيّة الدستوريّة يتوارى وراء مؤامرات مصطنعة تُحرّكها هياكل المخزن العتيقة وزبائنه الوارثين امتيازاتٍ تُطلق أيديهم في المال ورقابِ العباد؟

ما لم أكن أتوقّعه، أو بالأحرى غفلتُ عنه، هو موقف أخي عليّ من صراع ما بعد الاستقلال. في العام الماضي، ١٩٦٢، حصل على إجازة الحقوق من الجامعة المغربيّة. كانت أمّي قد ألحّت على أبي أن يُدخله مدرسة حرّة تابعة للحركة الوطنيّة، ربّما بإيحاء من أخيها، ليدرس اللغة العربيّة ويتشبّع بثقافتها. ظلّتْ علاقتي بأخي علي جيّدة يطبعها التفاهم والاحترام. وطالما

ساعدتُه في تقوية معرفته باللغة الفرنسيّة وآدابها. كنتُ أعلم أنّ برامج مدرسته لا تخلو من التكوين السياسي وكنت أعتبر ذلك شيئًا طبيعيًّا. بل أذكر أنّه حكى لي في سنة ١٩٥٢، بعد عودته من المخيّم الصيفي الذي تنظّمه مدرسته، أنّ الملك محمّد الخامس زار مُخيّمهم في «رأس الماء»، قرب إفرانْ، واستمع إلى أناشيدهم الوطنيّة، وزار ورشات التجليد والفخّار والنجارة التي كانوا يتعلّمون فيها هوايات إضافيّة. إلّا أنّني، منذ التحاقه بكلّيّة الحقوق لم أعدْ أتابع مساره وعلاقاته، لأنّني انشغلتُ بوظيفتي ودراستي وزوجتي. كنّا نتحدّث أحيانًا حديثًا عابرًا عن مشكلات تشييد مجتمع الاستقلال وعن رياح الثورات الانقلابيّة التي هبّتْ على مصر وسوريا والعراق، وعن القوميّة العربيّة والاشتراكيّة والوحدة...، لكن حديثنا لم يكن يتجاوز مستوى تبادل الأخبار والتعليق الظرفي عليها.

فاجأني التحوّلُ الذي طرأ على لهجته منذ ١٩٥٩، أي بعد مُضيّ سنة على التحاقه بالجامعة. بدأتُ أحسّ كأنّه يتعمّد أن يستفزّني من خلال الجهر بانتقاده مواقفَ القصر الملكي الذي لا يستجيب لمطالب الإصلاح اليساريّة. وعندما أقيلَتْ حكومة عبد الله إبراهيم في ١٩٦١، ازدادتْ حدّةُ مواقف أخي. حاولتُ أن أهدّئ من غلوائه وأنبّهه إلى أنّ البلاد تحتاج إلى مَنْ يضطلع بشؤونها، والخلافات ستؤول إلى تصالح. لكن خطابه اتّجه أكثر إلى جذريّةٍ بدأتْ تقلقني. ومنذ مطلع هذه السنة، ١٩٦٣، أخذ عليّ يتحيّن الفرص لينتقد موقفي المُتذبذب على حدّ تعبيره. قال لي ذات مرّة بأنّ ما يهمّني هو مهنتي المُربحة واغتنام مناسبة

انسحاب المحامي الفرنسي لأحتلّ مكانه. أنظر إليه غير مصدّق فيما هو يضيف: «لا يُزعجك أن يسترجع المخزن سطوته وسلطته المطلقة، ليُعيدنا إلى الحِجْر الذي خضع له المغرب قبل عصر الحماية. أنت تتناسى مَنْ فرّط باستقلالنا وسهّل دخول المستعمر الأجنبي...». كدتُ أهجم عليه لأضربه، إلّا أنّني تماسكتُ لكيْ لا أغضب أمّي التي تُعزّه ولا تكفُّ عن امتداحه. أقنعتُ نفسي أنّ عليَّ أن أستمرّ في مُجادلته لأوضح له مساوئ موقفه المندفع. غير أنّ المناخ العامّ كان يضاعف من حدّة التوتّر والصراع، ويدفع باتّجاه القطيعة بين الملك الجديد وارث عرش محمّد الخامس، وقُوى التغيير التي تأكّدتْ من نواياه في استرجاع سلطة المخزن كاملة غير منقوصة.

استبدّ بي الأرق ليلة أمس وبقيتُ أتقلّب في الفراش إلى أن أوشك الصبح على البزوغ. لعلّ ذلك ناتج عن حوار صاخب مع أخي عليّ الذي لم يخجل من أن يصف والدنا المرحوم بأنّه كان متعاونًا مع سلطات الحماية والمخزن. فاجأتني التهمة ولم أعرف كيف أدحضها. القايَد الصادقي الذي كان يخدم الناس بِتعاطُف وتفاهُم، يصفه ابنه بالخيانة؟ أدركتُ عندئذ أنّ أخي بلغ درجة من التطرّف لا ينفع معها منطق أو حوار. وكانت الأخبار تتحدّث هذا الأسبوع عن اعتقال مجموعة كبيرة من مناضلي اليسار يتّهمهم القصر بتدبير انقلاب مسلّح. ماذا لو كان عليّ منضويًا معهم؟

استيقظتُ متأخّرًا هذا الصباح ووجدتُ أمّي تنتظرني لتخبرني أنّ عليّ لم ينمْ في البيت. حاولتُ تهدئتها وقلت لها لعلّه نام عند

أحد أصدقائه وسأتولّى البحث عنه. لكن رسالة كانت تنتظرني في صندوق البريد من أخي يعلن فيها أنّه مُضطر إلى مغادرة البلاد، وأنْ لا داعي للقلق، وهو يعتمد عليَّ في تصبير أمّنا.

خشيةٌ أخرى تنضاف إلى خوفي. أنا رفيق الصادقي أعلن بأعلى صوتي: أنا حانق، حائر، مضطرب. كنتُ أعلّق أملاً على الاستقلال في أن يجعلني أستفيد من الجهود التي بذلتُها في الدراسة وإعالة الأسرة؛ وإذا به يضعني أمام متاهات مُضيّعة، ويطرح عليّ أسئلة معقّدة لمْ آلفْها. بعد الاطمئنان والوثوق بالنفس على امتداد ثلاثين سنة من حياتي، أجدُني مقذوفًا في وطيسٍ مُلتهب من الصراعات والطرق المُتشابكة. وأنا مضطرّ إلى أختار من جديد «وَفقَ ما يُمليه الضمير والواجب» حسب تعبير أخي الأصغر المتمرّد. «رحَلَ مغربُ الأمس، **يقول**، وأصوات فتيّة بزغتْ لتكشف المخبوء، وزمن الإجماع ولّى إلى غير رجعة، وبدأ عصر الارتياب والدفاع عن المصالح الملموسة. لا يمكن أن نغمض العين على سياقٍ عالميّ موّار بإيديولوجيّات التغيير وابتداع المستقبل. كلّ ما طمَره الكبتُ والردع والطاعةُ العمياء يخرج الآن من مكامنه ليُعلن العصيان...».

أحسُّني شيخًا أمام كلمات عليّ المُتحمّسة، المُجنّحة. أراجع نفسي وأتساءل: ماذا لوْ كان مُحقًّا؟ كأنّما عشتُ في عماء حجَبَ عنّي ما كان يتبدّل تحت ناظري. ظللتُ مشدودًا إلى فلَكِ الشهادة الجامعيّة وتأمين مستقبلي المهني. وعلى رغم ذلك كنتُ أشعر أنّني أحبّ وطني وأتطلّع إلى يوم الحرّيّة. مَنْ أستهدي به في هذا

الديجور المُعتم؟ رحل الأستاذ كلود وخلَفتُه في مكتبه، وخالي يعيش في مرارة لا يخفيها لأنّ الحزب العتيد الذي ينتمي إليه انشقّ وتسلّل الضعف إلى أجنحته، والمخزن وزبائنه يستفردون بالسلطة، ما جعل خالي يُجاهِر بمسؤوليّة القصر في بثّ ڤيروس الانشقاق بين صفوف المنظّمة الحزبيّة وقادتها...

أستمع إليه ولا أجد ما أقوله. أنا أعيش صدمة التحوّلات في ذهولٍ وسُكات، وهو يُنفّس عن خيبةِ أمله في صخب وضوضاء، كأنّه ثور هائج في حلبةِ مصارعة، تُحاصره الطعنات.

ـ ٤ ـ

أتذكّر يوم زواجي كأنّه بالأمس: منذ ثلاث سنوات عند مُستهلّ ربيع ١٩٦٠. في لقاء مطوّل بيني وبين أمّي، نبّهتني إلى أنّها انتظرتْ أن أنهيَ دراستي قبل أن تُفاتحني في موضوع الزواج. الآن وقد اقتربتُ من سنّ الثلاثين، لم يعد هناك مجال للتأجيل خاصّة وأنّها تتلهّف على رؤية ذرّيّتي والاستئناس بها في ما تبقّى لها من عمر. أبديتُ بعض التردّد فقالت في نبرةٍ حاسمة: «العروسة موجودة وأنا غادي نبيعْ قطعة دا الأرض باشْ نعمل لك عرس فاعلْ تاركْ. ما ترفَدْ هَمّ».

وقع اختيارها على مريم، ابنة خالتي التي أستلطفُها وأعجب بدماثتها وعينيْها السوداويْن الناضحتيْن بالبراءة. توقّفَتْ عن الدراسة بعد إحراز البكالوريا لأنّ والديْها يفضّلان لها الزواج بدلاً من متابعة الدراسة. هي عائلة شُرفاء، محافظة وأنا أحبّذُ في أعماقي أن تكون شريكة حياتي امرأة مثل لالّة مريم. أطمئنّ إلى

الحسب والنسَب، وأحبّ في الزوجة الوفاء والثقة المطلقة من جانبها. أنا لم أعش تجارب عاطفيّة في مطلع شبابي، واكتفيتُ بفيْء الخادمات ومغامرات عابرة معدودة لم تترك بصماتٍ في حياتي المنذورة للتحصيل والعمل والتطلّع إلى الاستقرار داخل إطار يضمن العيش المُرفّه ووجاهة المنصب، والاعتراف بالجهد الذي بذلتُه لتأمين مستقبلي. كانت لديّ رغبة قويّة في أن أستظلّ بكنف زوجة تمنحني الراحة والذرّيّة الصالحة، وتزيد من التحام حلقات الأسرة.

ليلة الدخلة أحسستُني محمولاً على أجنحة نشوةٍ وسعادة لا توصفان. لمْ تُفرّط أمّي بالتقاليد فحرصتْ على أن يحملوني فوق «الطيفور» وأنا مُرتدٍ جلّابيّة بيضاء من السوسدي الخالص، وطربوشًا أحمر، وشارب كثيف السواد؛ ومريم الشريفة تختال في قفطانها ومنصوريّتها الحريريّة، والتّاجُ الذهبيّ يعلو رأسها، وعيناها السوداوان تنطقان بسحْر نافذ... هي أيضًا تطوف بها النكّافاتُ في طيفور خشبيّ مُزوّق. والزغاريد تُصاحب تَعداد أوصافِ جمال العروسيْن، فيما حشودُ النساء بلباسهنّ التقليدي زاهي الألوان يُنشدن مقاطع من الأشعار مع جوق الموسيقى الأندلسيّة... زائغَ النظرات، أتطلّع إلى الشريفة عروستي التي ستملأ، بعد حين، فراغًا كبيرًا طالما عذّبني. أنظر إليها في زينتها وبياضها الناصع وابتسامتها المحتشمة فتزداد نشوتي ويقيني بأنّني أقترب من اللحظة المرجُوّة.

طقوس تلك الليلة انتزعتني من كلّ الأفكار والتصوّرات. شبْهَ مذهولٍ كنتُ، أنفّذ ما يُطلَب منّي: أقدّم الحليب والتمر لعروستي،

أجلس إلى جانبها ليتعاقَبَ الأهل والأصدقاء لأخذِ صورة تذكاريّة معنا، أحني رأسي لأمُرّ من تحت قدَم أمّي إلى غرفة الدخلة لأنّ الجنّة هي تحت أقدام الأمّهات! كلّ ما يطلبونه منّي أنفّذه دون تحوير لأنّ كياني كلّه كان مُستَبِقًا تلك اللحظة التي سأختلي فيها بمريم عروستي. رحلة شاقّة هي ليلة الدخلة المثقلة بالطقوس الموروثة.

داخلَ الغرفة، مريم جالسة على طرف الفراش والنكّافة تساعدها للتخفُّف من الحلي والطرحة والقفطان فيما هي تهمس في أذنيْها بنصائح لا أتبيّنُها. بعد لحظة، التفتتْ إليّ مُرحّبة، قائلة وهي تهمُّ بالانصراف:

«تبارك الله على مولايْ السلطان. إيوا إيلا عندك الصحيحْ عرّي عليه. نَبْغيوْ سروال العروسة يحمّر وجهك ووجهنا...». ووجدتُني أتمتم مُجاريًا كلامها: «ما يكونْ إلّا الخير، لهْلا يحشمنا». أغلقتُ الباب وراءها ورجعتُ لأغوص في خبايا الجسد البضّ، الواعد.

كلّما هممَتُ بفضّ البكَارة، تستَمْهلُني مريم، فأطيل المداعبة وتَحسُّسَ مكامن اللذّة لأوقظ جسدها المنكمش، المُلجَم تحت وطأة الجهد الكبير المبذول خلال الاحتفال الطويل. غير أنّ صياح النكّافات وأصوات نساء الأسرة كانت تحاصرنا من خارج الغرفة مُطالبة بتسليم السروال، عربون الشرف والحسب الأصيل، ما جعلني في لحظة معيّنة أقتحم جسد عروستي متغافلاً عن توسّلاتها وصراخها. وجدتها فعلاً عذراء، وغمر الدم اللزج ما بين فخذيْها غير أنّه لم يمنعني من متابعة الضخّ بحثًا عن لذّة مُتعثّرة. كنتُ

مضطربًا، متضايقًا من الأصوات المُستعجلة فبادرتُ بتسليم السروال المبقّع بقطرات الدم القاني إلى النكّافة المترصّدة وراء الباب، وعدتُ لأستلقي إلى جانب العروسة التي لم ينقطع أنينها طوال ساعات. ليلة لا تُنسى فعلاً، بل صورُها تُلاحقني إلى الآن، كما يلاحقني نوع من الندم لأنّني انقَدتُ إلى ما تفرضه التقاليد. حرصتُ في الليالي التالية أنَ أتدارك الخطأ، فضاعفتُ من المُداعبة والتغزّل والكلام العذب لأوقظ جسد مريم الغافي. لكن جهودي لم تجد مسارًا سالكًا. ومن خلال المُسارّة والاستدراج، أخبرتني مريم أنّ تجربتها الجنسيّة منعدمة لأنّ المناخ العائلي المحافظ، زرعَ في نفسها حياء مفرطًا وخوفًا من جسدها واشتهاءاته. عند سنّ البلوغ وتحت تأثير الاختلاط في المدرسة الإعداديّة، أخذتْ تتحسّس جسدها وتداعب فرجَها، مكتفية بالاستمناء في فترات متباعدة، لأنّ الشعور بالذنب ظلّ يكبح شهوتها... مفاجأة لم تخطرْ بالبال. استيقظ التحدّي في أعماقي فقرّرتُ أن أجد حلًّا لمُتشكّلة البرود الجنسي عند زوجتي. تلافيًا للفضيحة والتقوّلات، قصدتُ طبيبًا فرنسيًّا قيل لي إنّه خبير بالموضوع. طمْأنني ونصحني ببذل الوقت الكافي لكي يستعيد جسد مريم حساسيّته وقدرته على التلذّذ. عليك بإطالةِ المداعبة والتفنّن في استثارة مكامن الشهوة، قال لي، ولا تُحجمْ عن لمس الأغوار، ولحْسِ تعاريجها ومصِّ النتوءات والثنايا. هذه حالة معروفة وعلاجها مؤكّد إذا استطعتَ أن تكسر حاجز الحشمة والطهوريّة.

على رغم محيطي العائلي، أحسُّني أقرب إلى السلوك البراجماتي الذي تشرّبتُ بعض مبادئه من المدرسة الفرنسيّة. أعتبر

تجربتي مع مدير الضرائب ثم تدريبي مع المحامي خلال فترة الحماية الفرنسيّة ذخيرة ثرّة تمدّني بقُدرة على المُؤالفة بين الموروث والمُكتسَب، أو هكذا يُخيّل إليّ. أستشعر حرصًا على الموازنة بين الثقافة العربيّة والأجنبيّة نتيجة تأثير أمّي وما ترسّخ في لاشعوري خلال فترة النضال الوطني من أجل الاستقلال. بيني وبين نفسي، أعتمد أيضًا على إيماني بالله في الوصول إلى أهدافي. هو إيمان لا يخلو من التباس، لكنّه قائم إلى حدّ الآن، ودائمًا أستمدّ منه الطمأنينة بأنّ ما أختاره هو عينُ الصواب. غير أنّني لا أكتفي بهذا الإيمان المساند لأنّني في الوقت نفسه، أعتبرُني محظوظًا بتفاعلي مع حضارة الآخر واستكشافي لثقافتي القوميّة وحرصي على الانتماء إلى العصر. لذلك أتساءل عمّا إذا لم يكن الإيمان إنّما هو عنصر ينضافُ إلى تلك الصدف ليُدعم مساري؟

هذه المرّة، بعد أن فوجئتُ بحكاية بُرودِ مريم على الفراش، اضطربتُ وكادتْ ثقتي في معادلة نجاحاتي تختلّ. لكنّني أصررتُ على تطبيق الوصفة التي اقترحها الطبيب، مُستعينًا بمقالات ودراسات تُجلي بعض أسرار الجنس عند المرأة والرجل، مُستميتًا في الخروج من المأزق لكي أوطّد صرح زواجي. هكذا، بين همس ولِمْس ولحْسٍ ومصّ وعضّ وعضْعَضة، أخذت حساسيّة الشريفة لالة مريم تستفيق وتُزيح سُدولها لتبرز مُتنزيّة، مُتعطّشة، مُستزيدة وأنا ألهثُ وراء جسدها المُتوثّب الظمآن، مُغتبطًا ومُتخوّفًا في آن. بدأ شهرُ العسل متأخّرًا كثيرًا عن موعده، إلّا أنّ نجاح وصفة الطبيب اقترَنَ بتخلُّق عاطفة قويّة، حدّ الجموح، نحو

مريم التي ملأتْ الفضاء برُمّته من حولي، وأدخلتني إلى ردهات الحبّ والجنس والحنان، بل إلى متاهة مختلطة من المشاعر والاستيهامات. سيْطَر عليّ إحساسٌ أنّني بتُّ أمتلك مريم عن طريق إيقاظ مكامن الشهوة في جسدها. هيَ الآن غير ما كانت عليه ليلة الدخلة؛ إنّها تحتفي بخلواتنا الجنسيّة أيّما احتفاء، مُندفعة، مُتلهّفة، مُسرفة، في ما يُخيّل إليّ، حينما تعبّر عن التذاذها في لحظات العِرابة. من ثم تُساورني الظنون أحيانًا أنّها قد تكون غدتْ مملوكة للشبَق الذي قد يقودها إلى البحث عن علاقاتٍ فاسقة! توهُّماتٌ وتخرّصات تقضُّ مضجعي، ما جعلني أبادر بالإنجاب في سنتين مُتتاليتيْن: فدوى أوّلاً ثم عبد الرفيع.

أحسستُ بتحوّل كبير في أعماقي: هل لأنّ الأبناء والبنات هم زينة الدنيا كما يُقال؟ أمْ لأنّني كنتُ مفتونًا بمريم التي اكتستْ جمالاً ووقارًا يُضاعفان من جاذبيّتها؟ استعدتُ الاطمئنان والروْق. تلاشتْ الهواجس والظنون واتّجهَ اهتمامي إلى توفير تربية لائقة لولديّ، فلم أتردّد في إلحاقهما بمدرسة البعثة الفرنسيّة، لأنّ مستوى مدارس حكومات الاستقلال المُعرّبة دون المطلوب وهو فريسة للارتجال والضحالة.

يُخيّل إليّ، منذ تزوّجت في ١٩٦٠، أنّ الوقت يمرّ بسرعة والسنوات لا تكاد تستوفي أيّامها المعدودة وفق الروزنامة. من ثم ذلك الانطباع بأنّ زمني ينفصل تدريجًا عن خطوات زمن التاريخ بعد الاستقلال: بِقَدْر ما تتعاقب الأحداث العامّة، ويستَعِرُّ الصراع حول السلطة بين القصر والمعارضة، بِقدْر ما يتقلّصُ اهتمامي بالشأن العامّ وأغدو مجرّد ملاحظ من بعيد يُسجّل ويُقارن ويحتفظ

لنفسه بخلاصة التأمّلات، مُحترزًا من الجدال وما قدْ يُؤدّي إليه انتقادُ الأحوال من خصومات وعواقب. وفي الآن نفسه، أنصرف بكُلِّيّتي إلى رعاية أسرتي، مُواسيًا أمّي في غياب أخي عليّ القاطن في منفاه بباريس، فاتحًا لها باب الأمل بعودته قريبًا إذا استنفَدتْ أزمنةُ الرصاص غايتها. تسألني باستمرار:

لمَ لا تسافر إلى فرنسا لزيارته والاطّلاع على أحواله؟ أعِدُها بذلك مُتحيّنًا الفرصة المناسبة.

نحنُ الآن في مطلع سنة ١٩٨٠: فدْوى تُشارف سنتها العشرين، وعبد الرفيع يستعدّ لامتحان الباكالوريا في نهاية السنة، ومريم في أوج أنوثتها وأمومتها، وأنا أعانق الخمسين من عمري، سنّ النضج والكهولة وأيضًا سنّ الانحدار نحو مجاهل الوجود والعدم. أحاول في لحظات التيقّظ والتأمّل، أن أستحضر المحطّات الأساس في ما عايشتُه بعد الاستقلال، فلا أكاد أعثر سوى على أحداث دامية، مُكفهرّة: مؤامرة مجهضة دبّرها مقاومون قدامى وجُدد ضدّ الملك سنة ١٩٦٣، اعتقالات ومحاكمات بالجملة، مظاهرات عنيفة انفجرتْ بالدار البيضاء ومدُن أخرى في مارس ١٩٦٥، تطالب بالعدالة والخبز والديموقراطيّة، اعتقال عشرات الشباب الماركسيين والوطنيين بتُهمة الإعداد لثورة شعبيّة، انقلابان عسكريّان فاشلان في ١٩٧١ و١٩٧٢ نظّمهما الجيش ووزير الداخليّة الجنرال أوفقير، نواةُ حربِ عصابات لتقويض المَلَكيّة تُجهض عند انطلاقها قرب الحدود الجزائريّة في ١٩٧٢، المسيرة الخضراء سنة ١٩٧٥ لاستعادة الصحراء وترميم دعائم العرش التي كادتْ أن تذهب أدراج الرياح... أستعرض هذه

الأحداث فيبدو لي كما لوْ أنّ «أزمنة الرصاص» تُغيّر جِلدَها بعد أن بلغتْ سرعتها القُصوى: هناك الآن هدف أسمى على الشعب أن يحقّقه بتحرير صحرائه، ومحاولة لإعادة تأصيل أسُس الدولة العريقة مع الانفتاح على الكفاءات الجديدة، ولكن هناك أيضًا العصا لِمَنْ عصا أو اعترض على سياسة مَنْ بِيده المُلكُ والأمر والنهيُ وإمارة المؤمنين. كلّ ما حدث، رغم فداحته، يُقدّم لنا على أنّه مجرّد «حادث سيْر» لا ينال من هيبة الدولة المتدثّرة بالمُقدّسات التي تحول دون التطاول أو التشكيك في صلابة النظام وديْمومته.

المُحاكمات لا تكاد تتوقّف على مدار السنة. المحامون، وأنا من ضمنهم، يتطوّعون للدفاع عن المعتقلين، والملفّات تُحضّر بتواطؤ مع المخابرات السرِّيّة ووزير العدل والقضاة المُعيّنين من فوق. وعلى رغم المرافعات الكاشفة للتلفيق والتزوير في الملفّات، تصدر الأحكام وفْقَ ما يُرضي السلطات العليا! يندّد المحامون وقوى المعارضة وجمعيّات حقوق الإنسان بالمحاكمات المطبوخة، وتنتقد الصحافة الدوليّة لُعبة الديموقراطيّة الشكليّة، لكنّ النظام مصمّم على الاستفراد بالقرار، مُحتميًا بالكلام المُزوّق والتصريحات المدّعية، مُمعنًا في نهْب الثروات، مُردّدًا عبْر الأبواق أنّ قاطرة الأمّة تسير على «المَحجّة البيضاء»، وأنّ شعار لإغناء الفقير دون إفقار الغني» هو المعجزة التي ستقدّم حلولاً ناجعة للمشاكل العويصة المُتراكمة.

لعلّي أبالغ في اختزال أحداث كان لها وقْعٌ كبير في حينها؛ لكنّني وأنا أفتّش في زوايا الذاكرة عن أبرز ما يُلخّص العشرين

سنة الماضية، لا أجدُ سوى ما ذكرتُ. يُمكن أن أضيف مشهدًا، يُلحّ عليّ، رافقَ تلك السنوات هو صورةُ الناس خلال ليالي الصيف، إذ يحتمون ببيوتهم من القهر ومظاهر التسلّط في الشوارع، فيلجأون إلى المسلسلات التلفزيونيّة يُتابعونها باهتمام على القنوات العربيّة، فيما هُمْ يلتهمون طناجر المُعجّنات وأنماط السباغيتي، قبل أن يُعرجوا على البطّيخ الأحمر يملأون به البطون ثم يأخذون في التجشّؤ بصوت مسموع وهُمْ يُراودون نومًا مُتعسّرا. . . شيء ما مُطفأ في العيون والوجوه ومُعجم الكلمات. حين أقابل الزملاء المحامين في المحاكم، وعند الاستماع إلى زبائني وهم يشرحون قضاياهم، يتولّد لديّ إحساس عارم بذلك الانطفاء والانكسار. لا أستطيع ألّا أقارن بين سنوات ما قبل الاستقلال وتلك التي تلَتْها لأمدٍ قصير، وما بين الذي أعايشه منذ عقديْن. أحارُ في تعليل ما أعاينُه من فروق، فأعزوهُ إلى فقدان الحماس. هذا ما يردّده أيضًا خالي المُنزوي، أكثر فأكثر، داخل المرارة وخيبة الأمل. لا أكادُ أصدّق ما آل إليه حالُ الخالِ العزيز. أهمَلَ هندامه وأطلق شعر لحيته، وأصبح حادّ الطبْع ينهَرُ زوجته من غير سبب، ويتردّد كثيرًا على المواسم الدينيّة مُنفّسًا عن توتّره بالانغمار في حلقات الأمداح وطقوس الجذبة.

لمْ تكن خيبتي أقلّ، لكنّني لمْ أرهنْ مصيري بالآمال العريضة التي كان الناشطون في الحركة الوطنيّة وأحزابها يُعلّقونها على ما بعد الاستقلال. الطريق الذي اخترتُه لبناء مستقبلي الخاصّ وفّر لي مسافة تقي من الاندماج في «القضايا الكبرى» وتقَمُّصِها إلى حدّ التماهي والاستشهاد من أجلها. لعلّها النظرة الذكارتيّة التي

تلقّنتُ مبادئها في الكوليج الفرنسي ما جعلني أعطي الأولويّة للخاصّ عندما أترابَطُ مع العامّ؟ بلْ هو وُثوق اكتسبتُه من الاعتماد على النفس حين إنجاز المسار الذي أهّلني لأن أصبح محاميًا مرموقًا يحظى بالاحترام والكسْب الوفير. ثم إنّ ارتباطي بالأسرة وعلاقتي بأمّي وزوجتي، وما أعقده من أمل على فدوى وعبد الرفيع، جعلني أتقبّل ضرورة الاستمرار على رغم الانكسارات واهتزاز ما كنتُ أعتبره الأفضل.

الاستمرار في الوجود وانتظار اللامُتوقع، يُثيران انتباهنا إلى الحركة التي تخترق كلّ شيء وتحمل تجدّدًا يكاد يكون لامَرئيًّا من شدّة تشابُهِ الظاهرات وتسارُعها. وما أعيشه منذ أسبوع، أعتبره حدثًا مُنعشًا هو بمثابة مكافأة على ما بذرتُه منذ عشرين سنة حين أشرفتُ على تعليم ابنيَّ بمُواظبة وحماس، وكنتُ محاورًا يُجيد الاستماع ويحثّ على الابتكار. . . هذا الأسبوع، وصلتُ صحبة فدْوى إلى باريس لأساعدها في تأجير غرفة للسكَن وتثبيت تسجيلها بكلّيّة الاقتصاد لأنّها تريد التخصّصَ في دراسةالسوق (ماركيتنغ). وهي مناسبة ألتقي خلالها أخي عليّ وأتعرّف عن قرب على أحواله، كما وعدتُ أمّي.

أثناء زيارتنا متحف اللوفر، طوال هذا اليوم، اقترحتُ على فدوى أن نبدأ بالجناح الإسلامي ثم الفرعوني ونُنهي جولتنا باللوحات والتماثيل المخصّصة لعصر النهضة الأوروبيّة، ابتداء من القرن الخامس عشرِ لنأخذ فكرة عن تطوّر أساليب التمثيل الفنّي، وحضور الرموز المُتغلغلة في المُتخيّل الثقافي لتلك الفترة. . .

لكنّنا فوجئنا أثناء الزيارة، بحادثة طريفة أضحكتْنا وأحزنتْنا في الآن نفسه: فيما نحن نتطلّع إلى لوحات تستوحي حياة المسيح عيسى ابنُ مريم، وخاصّة مسألة صلْبِه التي حظيتْ باهتمام كبير من رسّامي إيطاليا وهولندا وبلجيكا وفرنسا في تلك الفترة، فوجئتُ أنا وفدوى برجلٍ أسمر يخاطبنا بلهجةٍ خليجيّة عربيّة، سائلاً هل نستطيع أن نترجم كلامه إلى الزائرين الأجانب المُتحلّقين حول لوحات المسيح المصلوب؟ أجبتُه بأنّني فعلاً أعرف اللغة الفرنسيّة، فبادَرني وهو يتحدّث بصوتٍ مرتفع مُشيرا إلى الزوّار وإلى اللوحات، قلْ لهم: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم». أدركتُ أنّه يشير إلى الآية القرآنيّة ويريد أن يدحض الأعمال الفنِّيّة التي تمثّل ما ورَدَ في نصوص الدين المسيحي وتاريخه. . . وجدتُ أنّ موقفه ينطوي على مُفارقة هزليّة ستبعث مشاهدي اللوحات على الضحك والسخرية، فضْلاً عن أنّهم غير مستعدّين لإضاعة الوقت في الاستماع إلى رأي يَنفي تاريخًا ومعتقدات وإبداعاتٍ غدتْ مستقلّة عن سياقها. أمسكتُ الخليجي من يده وحدّثتُه بعربيّة فصيحة موضحًا أنّ علينا أن نحترم معتقدات جميع الديانات السماويّة، لأنّ التطاول عليها سيجعلنا هُزأةً أمام الناس. جادَلَني قليلاً ثم سرعان ما اقتنع بكلامي، فسألني عن جنسيّتي وأثنى على المغرب وطبيعته الساحرة ونسائه الجميلات؛ ثم فاجأني بالسؤال: هل صحيح أنّ حيّ بيغال هنا يُقدّم للزائر ما لا عيْن رأتْ ولا أذن سمعتْ؟ هل يمكن أن تُصاحبني هذا المساء إلى هناك؟ انتفضتُ مُبتعدًا عنه وأنا أنظر إليه شزرًا، وعدت لألتحق بفدوى وأنا أضحك في سرّي من هذا الداعية الذي يشتهي

أن يستمتع بما يزخر به حيٌّ بيغال!

في جميع المتاحف والمآثر التي زرناها بباريس استوقف نظري ذلك الحضور الملموس والمتباين لمراحل التاريخ عبْرَ السنين. معالم مختلفة في المعمار والملابس والأثاث وإبداعات الفنون، كلّها تتجاورُ لتُجسّد بصمات القرون وتحرّك في المُشاهِد الفضول لِمعرفة سياقات الفترة الحضاريّة ومُكوّناتها وتحوّلاتها. وجدتُني أتفاعل أكثر مع ما يُدرج ضمنَ الكلاسيكيّة. أعجبتني دارُ الأوپرا القديمة، وقصر ڤرسايْ وحدائقه، ومسرح لاكوميدي فرانسيز الذي شاهدنا به مسرحيّتيْ «لوسيد» لكورنيْ وَ«البخيل» لموليير؛ كما أحببتُ متحف ڤيكتور هيجو المشتمل على رسوماته ولوحاته التي لم أكن أعرفها، والرسائل التي كتبها بخطّ يده إلى عشيقته جولييتْ دروي التي كانت تبعث إليه رسالتين كلّ يوم على امتداد خمسين سنة... أقنعتْني فدوى بمرافقتها إلى معالم حديثة لم تصادف هوًى في نفسي، إلّا أنّها نبّهتني إلى ما هو جديد بالنسبة لي: شاهدنا مسرحيّة «الكراسي» لأوجين يونيسكو والتي تُعرَض منذ ثلاثين سنة وتحظى بإقبال كبير نتيجة لغرابتها العبثيّة؛ وحضرنا أمسية لموسيقى الجاز في قاعة بحيّ سان جيرمان، فوجدتُ قدميّ تتحرّكان رغمًا عنّي لمُسايرة الإيقاع الساخن، ربّما لأنّني تعوّدتُ على سماع أنغام كناوة وعيساوة في المغرب وهما أيضًا يندرجان ضمن الموسيقى التي تعطي الأسبقيّة للآلات الوتريّة والهوائيّة؟ حاولتْ فدوى أن تشرح لي موسيقى الجاز وتفريعاتها المُتناسلة عبر السوينغ والبوبْ، والجاز ـ روك، والبلوز...، لكنّني أحسُّني مثل الأعمى في الزفّة، يستعصي عليّ التمييز بين

الإيقاع الأساس وتلويناته المتناغمة.

طوال هذا النهار أمضيتُه مع أخي عليّ. لقاء لم يخلُ أوّل الأمر من توتّر وانفعال، غير أنّ حضور فدوى التي لمْ يرها منذ كانت طفلة تحبو، بدّد بقايا سوْرة الزعل القديم، ونقَلَنا إلى حاضر يبدو جدّ مختلف عن سنة هربه، ١٩٦٣. مرّ ما يقرب من عشرين سنة ونحن نعيش في ظلّ أزمنة الرصاص المُتدثّرة بغلائل الليبراليّة والرّفاه المصطنع الذي يرفل فيه الموالون للنظام وزبائن المخزن. اختباراتُ القوّة لم تتوقّف بين القصر والمعارضة بِشقّيْها السلمي والانقلابي، والجيش دخَلَ على الخطّ لحسابِ جهةٍ لا تُسفر عن وجهها، وأنصار الاستقرار يردّدون أنّ «العناية الربانيّة» تحمي البلاد من الأعاصير التي تجتاح أقطارًا عربيّة أخرى... ويبدو أنّ شدّ الحبل بين الطرفين وصلَ إلى مأزق يجعل الأوضاع دائمًا على حافّة الهشاشة. لمْ نعدْ نسمع صوتًا ثوريًّا يهدّد بإسقاط المَلكيّة، وتنامتْ خطاباتُ التعقّل والدعوة إلى اتّباع سبيل الديموقراطيّة...

أنظر إلى أخي وأنا أستحضر كلّ هذه الخواطر والتأمّلات التي أحسّ معها كأنّني أنتمي إلى قرنٍ آخر ومنه أطلّ على ما عشناه منذ الاستقلال. ما مِنْ وسيلة لابتعاث ذلك الماضي القريب، مهما أسرفتُ في استحضار التفاصيل، لأنّ طزاجة الحدَث في إطاره غير المسبوق يتعذّر استعادتها، ولذلك أظلّ، على رغم معايشتي للحدث ساعة حدوثه، خارجًا عنه. ما يتبقّى لي هو أن أزور الأحداث عبر عناوينها الكبرى وما خلّفتْه من

حفيف في الذاكرة؟

أنظر إلى أخي عليّ وقد تسرّبَ الصّلع إلى مُقدّم رأسه وغارتْ عيناه قليلاً فزادتْ حدّةُ نظرته المتحدّية. يرتدي بلودجين وقميصًا أسود وجاكتةَ جِلْد، شعَره أطول من المعتاد، وأصابعه لا تكاد تُفارق السيجارة. تغيّرت ملامحه عن ما كانت عليه في طفولته حين كنتُ أختلي به لأعطيه دروسًا في تقوية اللغة الفرنسيّة فكان يُقاطعني مرارًا ليسألني ما إذا كانت عنزةُ مسيو سوغان التي يتحدّث عنها ألفونس دوديه قد وُجدَتْ أم لا؟ وكنتُ أراوغ في الإجابة وأقول إنّ ذلك ليس مهمًّا، والأهمّ هو أن ينتبه إلى استعمال الأفعال في أزمنة مختلفة وإلى تركيب الجملة...

أنظر إلى عليّ وأتذكّر تلك الليلة الصاخبة من سنة ١٩٦٣ وهو يُناقشني بصوت مرتفع في الأوضاع التي آلتْ إليها أحوال البلاد بعد احتداد الصراع بين القصر والمعارضة. استَهدفني بالانتقاد ولم أكن في العمق مختلفًا معه. إلّا أنّني كنتُ مُنغرسًا في سياق يُثقلني بأعباء الأسرة وتنفيذ ما خطّطتُه منذ وفاة الأب. نوع من النضج المُبكر يجعلني أتريّثُ وأعاود التفكير قبل أن أقدم على الفعل. وهو، أخي، في رفضه لما آلتْ إليه الأمور، كان مُتناسقًا مع حماس الشباب وأصداء الثورات والانقلابات التي شملتْ دولاً عربيّة وإفريقيّة، وجعلت الكثيرين يظنّون أنّ قطفَ النجوم في مُتناول أصابعهم الفتيّة. لن أتبيَّنَ أبدًا ما الذي جعل طريقيْنا تختلفان على رغم وحدة المنبت وتواطؤ الطفولة.

أنظر إليه ولا أعرف من أين أبدأ، فكلّ كلمة قابلة لأن تنكأ

الجرح وتوقظ الجفاء القديم. أتحرّز وأحتاط وأنا أختار كلماتي كأنّني أمشي فوق البيض، كما يُقال. ازدادت الأوضاع سوءً منذ غادرتَ المغرب، قلتُ له، لكنّ الحياة مستمرّة، متدثّرة بغلائل وأقمطة تُخفي التفاوتات وإحصاء الأنفاس. أظنّك على علم بذلك، فالمقيمون خارج البلاد مطّلعون أكثر على الصورة وتفاصيلها؟

ـ «فعلاً، أتابع الأخبار وأتلقّى مراسلات من أصدقاء. اللوحة تُجلّلها بصمات السواد والرصاص. لكن، لأكون صادقًا معك وأنت أخي الأكبر، أقول بأنّ ما يؤلمني ويُحاصرني بأسئلة شائكة هو وضعُ المعارضة التي أنتمي إليها في الخارج. فوجئتُ بالوجه الكريه الذي يتقمّصه الثوريّون بعد أن يتعثّروا ويُعيدهم المنفى إلى خشونة الحياة اليوميّة وواقعيّتها. نتحوّلُ إلى اجترار الأحلام وابتداع تطلّعاتٍ أسطوريّة، ثم سرعان ما تطغى المرارة ويبدأ البحث عن كبش فِداءٍ نُعلّق عليه الأخطاء. العلائق المتسامية المُحصّنة بالمبادئ النبيلة سرعان ما تفقد هالتها وترتَدُّ إلى حجمها الطبيعي حيث يتجاورُ النبْلُ مع الخسّة، والتضحية مع الأنانيّة. ربّما يعود الخطأ إليَّ، لأنّ سنّي اليافعة ساعةَ انخراطي في مشروع الانقلاب «الثوري» لم تكن تسمح لي بإدراك بقيّة مُكوّنات الطبائع البشريّة وجيناتها الأرضيّة. أنا الآن أفضل لأنّ عشرين سنة من المنفى جعلتْني أتأقلمُ مع وضعيّة الثائر المنهزم أو المناضل الذي أخطأ السبيل. حين تخلّصتُ من طفْح المرارة والحُبوط، أدركتُ أنّ عليّ أن أنتمي من جديد إلى الحاضر في مُكوّناته الراهنة والملموسة. تسجّلتُ في الكلّيّة لإعداد إجازة في التاريخ وبحثت

عن عمل يضمن لي استقلالاً ماديًا، ورددتُ في دخيلتي: ليس هذا سوى الفشل الأوّل ولا مناصّ من أن أنطلق من جديد مُزوّدًا بأدوات ملائمة ورؤية تشرئبُّ إلى ما هو آتٍ. يحفّزُني في هذه التجربة أنّني أصبحتُ أعيش في بلاد مَنْ كانوا يستعمروننا بالأمس القريب. أزعمُ الآن أنّني أحيط بالصورة من كلّ جوانبها، لأنّني أوجد مُتماسًّا مع حضارة شامخة، مشهود لها على رغم أطماعها الكامنة وراء توسّعاتها الاستعماريّة. صرتُ أعي أنّ التاريخ له أكثر من وجه ومنطق على أرض التحقّق. منذ ثورة ١٧٨٩ الفرنسيّة التي فُتنتُ بها، وصولاً إلى هذه الحقبة الأخيرة من القرن العشرين، تبدو لي فرنسا حاضنةً كلَّ الأسئلة التي قد تُخامر شعوبًا تتطلّع إلى توازنات معقولة تضبط علاقة الفرد بالدولة، أي لُبُّ الصراع الإنساني الذي كلّف الكثير ولا يزال... أحيانًا أقول مع نفسي إنّ هذا التماهي مع تجربة مُغايرة لتلك التي يعيشها شعبي، قد تُبعدني عن هويّتي وانتمائي وتُحيلُني إلى مجرّد صدى. غير أنّني أستشفّ، على مرّ الأيّام، أنّ الهويّة المنغلقة أو المُحدّد سقفُها، لمْ تعد فاعلة في مجرى حيوات الأفراد والشعوب. وأنا، في وصفي منتميًا إلى تلك الصفوة الغائمة القسَمات والتي ارتبطتْ بأسئلة تتخطّى سياق المنبت والجذور، لا يُمكنني الإحجام عن مُعانقة سيرورة البحث عن أفق إنساني مشترك يفجّر الحدود المصطنعة... هي تصوّرات تتخايلُ لي منذ سنوات، ولا أخفيك أنّني أحسّ بانجذاب لا يُقاوَم نحوها، إذ أحدسُ أنّه أفق سيطرح، مع الأيّام، الاختيارات نفسها بغضّ النظر عن الفجوات والثقوب التي يمتلئ بها تاريخ بلادي...».

لَمْ أشأ أن أقاطعه لأنّني حريص على معرفة منحاهُ الفكري والسياسي بعد فراقنا الطويل. وعلى رغم أنّني لم أستوعب كلّ ما قاله ووجدتُه محلّقًا في أجواء طوبويّة، فإنني سُررتُ لإصراره على التجدّد عبر المقارنة وتوسيع معرفته.

أمّا أنا فقد تعلّمتُ، بحُكم السنّ أكثر ممّا هو نتيجةُ معرفة، أنّ التاريخ قائم على تغيّر الأحوال والمواقف والعلاقات، وهذا التغيُّر يُرغم الإنسان على أن يبدّل تحليلاته وأحيانًا موقعه، مع أنّه قد يُصرّ على إيهام نفسه بأنّه هو مَنْ يغيّر مجرى التاريخ! لا يهمّ. الأساسي عندي، في هذه الرحلة، هو أنّ أخي عليّ استطاع أن يُجاوز عنق الزجاجة وأن يُغادر تلك المرحلة التي جعلتْه شبْهَ مُستلَبٍ تجاهَ إيديولوجيّة أمشاج تُبشّر بالأفضل فيما هي تقفز على الواقع.

قلتُ له: بعضُ الأمارات يشير إلى أنّ أفق أزمنة الرصاص يتوغّل في طريق مسدود ولم يعد ينفع في تأجيل انفجار الأزمة المُستدامة، وقد يضطر المخزن إلى انفتاح يُدشن أفقًا آخر.

ـ «أستشعر ذلك، لكنّني لا أستعجل العودة لأنّني أرفض «التوبة» التي يشترطُونها للانفتاح، وأعتبر خطأ المخزن أفدح من خطئي. لذلك أنا غير مستعدّ لأنْ ألتحقَ بموكب مَنْ رضعوا الاستبداد. أنا هنا في وضعٍ يسمح لي بترميم ذاتي وتقويم رؤيتي الحياتيّة، وحين أحسّ أنّ عودتي لن تُرغمني على الولاء المشبوه، سأبادر إلى العودة لأنّني لا أنكرُ أنّني مشتاق إلى أمّي وإلى الأسرة وهواء الوطن...».

حانَ موعدُ عودتي إلى الرباط، فدعوْتُ هذا المساء أخي وصديقته البرازيليّة وفدوى إلى العشاء في مطعم صيني. تحدّثنا في موضوعات شتّى، من بينها ثورة مايو ١٩٦٨ التي استأثرتْ بالقسط الأوفر من الوقت. كانت فرصة استعاد خلالها عليّ ذكرياته عن الثورة الطلّابيّة التي يعتبرها تعبيرًا عن ضرورة تغيير السياسة والاقتصاد باتّجاهٍ يُحرّرهما من جشع اللوبيات ورأس المال المتوحّش. وحين أشرتُ إلى وصول الحزب الاشتراكي وحلفائه إلى الحكم منذ شهريْن، أعرب عليّ عن ارتيابه في قدرة الاشتراكيين على تغيير البنيات بالقدْر الذي يوقف التفقير المُتزايد ويُرسي قيَمًا تحُدّ من سطوة السوق ومن شراهة الفردانيّة المُفرطة. قلتُ له إنّ تداوُل الحكم بين اليمين واليسار هي المسألة الأهمّ، لأنّها تُتيح للمواطنين أن يقارنوا ويختاروا ويُراقبوا الانحرافات والاختلاسات، ومن ثم لا تكون هناك سلطة مُؤبّدة تسوس وفْقَ نزواتها ومصالحها الزبونيّة... وافَقَني على ملاحظتي، وانتقل الحديث إلى موضوعات أخرى. وقبل أن ننصرف، أصرّ عليّ على أن نشرب نخْبَ لقائنا في باريس، فطاوعتُه على رغم أنّني قلّما أتناول المشروبات الروحيّة.

جوّ الألفة والانبساط والتقائي بأخي بعد فراق، أنعش في نفسي شعلة الأمل التي رافقَتْنا قبل الاستقلال. هي لحظاتٌ تبدو فيها المشكلات أضعف من الإرادات والعزائم المُتّقدة. ووجدتُني أتخيّل ملامح المستقبل عبر فدوى وعليّ، عبْرَ ذلك الآتي الكامن في ثنايا الأيّام والليالي. بلْ أحسستُ فجأة أنّ الخمسين سنة التي أمضيتُها من حياتي، تكتسب تضاريس تشعُّ برموز مُضيئة افتقدتُها

في العقد الأخير المنصرم عندما كنتُ أتابع الأوضاع الغائصة في الرصاص والانتظار. قد تكون زيارة باريس هي التي انتشلتْني من الفُسولة واللامبالاة. استعدتُ صحوتي أيّامَ الليسيه الفرنسي فيما أنا أعاينُ التاريخ مجسّدًا في الشوارع والبنايات والمؤسّسات والجامعات والمعارض والمتاحف... كلّ شبر من هذا الفضاء الباريسي يعُجّ بالأحداث والمآثر، والصراعُ حيٌّ ملموس من أجل ترقية البلاد وصوْن حقوق الناس. هناك، في بلادي، أتظاهرُ بأنّني أعيش حين أكون في المكتب أو المحكمة أو عندما ألتقي الزملاء والزبائن. دثار من الخوف والتوجّس يغلّف الأجواء ويجلّلني أحتمي بالقناع. داخل البيت، أستعيد بعض الصفاء والطمأنينة مع زوجتي وابنيّ وأمّي. لكن ازدواجيّة حالتي النفسيّة يُقلقني وينزع من صدري فتيل الحماس ولذّة الإقبال على العالم.

أعود غدًا إلى المغرب وبأعماقي جذوة مُتحفّزة تجعلني أتخايلُ أنّ الأشياء يمكن أن تتحوّل باتّجاهِ استعادة شهيّة الاكتشاف والمعرفة والرغبة. كمْ أشتهي فعلاً أن أستعيد حالة التحفّز والتحدّي التي عرفتُها في مطلع مشوار الحياة. منذ أمدٍ وأنا أحسّ أنّ حماس الشباب باخ وأفَلَ لهيبُه. وأقول مع نفسي لا أحد يستطيع أن يدرك، ولوْ بالخيال، مدى الفرق بين حالتيْن يتعاوران على الإنسان: حال الاشتعال والاعتقاد في إمكان تغيير العالم، وحالة البوخان والركود والشعور بالضآلة والتناقُص أمام آلةٍ كاسحة لا صادّ لها، تلهو بنا وتستعملنا لفترةٍ قبل أن تُحيّدنا.

ـ ٥ ـ

ما حكاه توفيق الصادقي، المُخضرم الطموح، عن المحيط الذي تربّى فيه والأحداث الكبيرة التي عاصرها على امتداد مسار حياته، يُوحي لنا أنّه إنسان ذو إرادة قويّة مكّنتْه من أن «يفرض» تطلّعاته على واقع صعب رافَقَ رحلته. وكما يُقال، الوصول إلى المُبتغى يقترن عادة بنوع من السعادة والرضا عن النفس قد يبلغ أحيانًا درجة وُثوق مُفرط. لكن ما لم يُدخله توفيق الصادقي في الحُسبان، هو ما تتَالىَ من وقائع بعد عودته من زيارة باريس والشروع في الاستعداد للتقاعد والتفرّغ للاستمتاع بالوئام العائلي.

ويُخيّل إليّ، أنا مساعد المؤرّخ، مِنْ ما حكاه لي والتقطتُه من أفواه بعض مَنْ عرفوه في أيّامه الأخيرة أنّ أصعب مهمّة هي التأريخ لحيواتِ الناس، لأنّها تختلف عن الأحداث التاريخيّة البارزة التي نستطيع أن نلمس مسارها وغاياتها ضمن السياق والأفعال ذات الصبْغة العموميّة. أمّا حيوات البشر فهي غالبًا ما

تُظهِر غير ما تُخفي ولا يمكن الاقتراب من «حقيقتها» إلّا إذا افترضنا دومًا أنّ ما يطفو على السطح من سلوكها، إنّما هو بمثابة قِشْرٍ تختبئ تحته دوافع ونوازع وغرائز وملفّات سرِّيّة تستوطن اللاوعيَ ولا تُعلن عن نفسها إلّا من خلال الفلتات أو في لحظات الاستبطان، أو على أريكة المحلّل النفساني. ما يُضيف تعقيدًا إلى الموضوع، أنّ اللغة التي يستعملها مَنْ يستعرض حياته تكون، في الغالب، لغة تقريبيّة لا تُطابق اللحظات التي عاشها بِقدْر ما تحرص على تشييد ذاتٍ متلاحمة، مُقنعة في صورتها العامّة وقريبة من الانطباع الذي تولّده عند الآخرين...

لأجل ذلك، وأنا أتولّى سردَ المشهد الأخير من مسار توفيق الصادقي، سألجأ إلى الحياد ما استطعتُ، تاركًا للقارئ أن يعيش، بدوره، حيرة التأويل وإعادة التركيب والتحوير، وربّما التماهي أو النفور.

عاد توفيق من رحلته إلى باريس مرتاح البال، متفائلاً بعد أن اطمأنّ على انتظام ابنته فدوى في دراستها الجامعيّة، وبعد لقاءات طويلة مع أخيه عليّ في جلساتٍ راوَحتْ بين العتاب والبوْح، تخلّلها تمحيص الماضي القريب واستعادة لحظات هنيئة من طفولة مشتركة. حواراته مع أخيه عليّ زعزعت المياه الراكدة بأعماقه منذ الطفولة، وجعلتْه يذهل أمام تلك المناطق المعتمة التي تراكبتْ خِلسةً أثناء ما كان يركض لاهِثًا وراء بلوغ مقاصده وتحقيق ما خطّطه وسهر عليه بعزم وإرادة. وها هيَ الصورة المختبئة تنقشع في مرآة أخيه الكاشفة: هُما معًا عاشا في حضن العائلة ذاتها؛

غير أنّ السياق انطوى على اللامُنتظر، وصنع مصائر متألّقة وأخرى مُترنّحة تُجسّد الكبوة والعثرات المكدّسة في أصقاع الصمت الذي لا ينفكُّ يسائل مَنْ أسعفهم الحظّ.

يرددذ على مسامعي ما قاله أخوه أثناء لقائهما: أنا لا ألومك أنت، لأنّك لم تدّخر جهدًا في رعاية مسيرتي الدراسيّة، وكنتُ معجبًا بقدرتك على الإنجاز مُزاوجًا بين العمل ومتابعة تعليمك العالي. لكنّني أدرك الآن أنّني، في مناخ فورة ما بعد الاستقلال وبداية سنّ الشباب، كنتُ مثل ورقة نشّاف تتشَرّبُ كلّ ما تُفرزه أجواء الطلبة المتلهّفين على التغيير والعدالة. وكلّ ما كنتُ أسمعه أو أقرؤه كان يُقنعني بصدقيّة ما تقترحه مبادئُ إيديولوجيا الاحتجاج... ستّينيّات القرن الماضي في جميع أنحاء العالم، كانت متدثّرة بشعار «الثورة الآن وليس غدًا». والرموز الفاتنة تنبثق من كلّ الأصقاع: الصين، كوبا، كونغو ـ لومومبا، مصر عبد الناصر، كوبا ـ كاسترو وَشي غيفارا، فرنسا وهَبّة ١٩٦٨... كنتُ مشدودًا إلى هذا الأفق الخارجي الذي يجعل الحياة مقبولة في إهابِ صورةٍ ما يجب أن تكون عليه العلائق والأشياء؛ لذلك أعتبر نفسي مسؤولاً وحدي عن اختياري تلك الطريق الطوبويّة. كان اختيارًا في مرتبة الإيمان الذي يحجب ما عداه؛ وهو ما جعلني أتّخذك أنت، أقرب الناس إليّ، موضوعًا لانتقاداتي...

يسكتُ الأستاذ توفيق قليلاً سارحًا ببصره عبر نافذة غرفته في بيته الأنيق بحيّ أكدال، ثم يتابع كلامه الأقرب إلى حوار داخلي: أنا أيضًا، بعد الزيارة واللقاء، أحسّ كأنّ غشاوة على عينيّ كانت

تحول بيني وبين الرؤية الأقرب إلى الواقع وتعقيداته. كأنّما كنتُ مُستلبًا، مأخوذًا في شَركِ سرديّات الذات المُتوثّبة المسكونة بأحلامها. لم أكن أسمح لنفسي بالتوقّف للتأمّل وتقليب الأمور على أكثر من وجه. كالثور المشدود إلى الطاحونة كنتُ. بعد المكاشفة مع أخي، صرتُ أدرك معنى ملاحظته عن ذلك الفرق الكبير بين حالتيْ النقيض: حالة الاشتعال والحماس ونحن نعتقد في القدرة على تغيير العالم؛ وحالة الهمود والركود والشعور بالضآلة ونحن في حالة الفسولة، كأنّنا أمام آلةٍ ـ غُول تلهو بنا قبل أن تلفظنا...

لا يمَلّ توفيق الصادقي من تكرار ما دار بينه وبين أخيه عليّ في باريس، يسرد ويعيد ناسيًا أنّه حكى عن ذلك من قبل، وربّما بالكلمات نفسها التي استعملها أخوه وقرأتموها في فصلٍ سابق... أنا، بعد أن سجّلتُ معه ما حكاه بلسانه، ظللتُ ألتقي به من حين لآخر، في بيته أو عند الدكتورة نبيهة النعسان، المحلّلة النفسانيّة التي نجحتْ في أن تعقد بِبيْتها كلّ شهر، جلسة سمَر تضمّ أطبّاء ومحامين وصحفيين وأساتذة جامعيين، يتحدّثون في الخاوي والعامِر، ويُراوحون بين الجدّ والهزْل، كما ستحكي لنا هي بنفسها في فصول قادمة... والحقيقة أنّني دائمًا أجد ما يجذبُني إلى الأستاذ توفيق لأنّه مهموم بما يحدث الآن، لكنّه يبدو كأنّ جذوره مُنغرسة في تُربة أخرى. هو نموذج لـ «الهُنا» و«الهُناك»، أيْ مرحلة الحماية الفرنسيّة وبداية الاستقلال، أو ما أسمّيه «الخضْرَمة» في وصفها سماتٍ تنتمي إلى مرحلتيْن مختلفتيْن، تنعكس على السلوك وطريقة التفكير، خاصّة ما يتّصل

بالحنين إلى الأفضل في ما مضى، والحرص على استيعاب ما هو قائم في الحاضر. وكلّما أمعنتُ في معاشرة الأستاذ توفيق والاستماع إليه، بدا لي أنّه مُوزّع بين الديمومة المُتعالية عن الأمكنة وَالتواريخ وَالزمن المتعاقب المتّصل بالمكان وتحوّلاته.

المهمّ، أمضى توفيق الصادقي سنة كاملة في ارتياح وانشراح، وخلال الصيف جاءت فدوى لقضاء جزء من عطلتها في الرباط بعد أن تفوّقت في أداء امتحاناتها. أقامت العائلة حفلة شاي وحلويات للأهل والأصدقاء الذين جاؤوا للتهنئة بالنجاح والتملّي بطلعة الوافدة من باريس في إهاب مختلف يجمع بين قَصّة الشعر الغلاميّة وقميص حريري مرسل على بنطالون جينز. بدتْ فدوى للجميع مرتاحة في جِلدها، تجيب على الأسئلة في تلقائيّة وهي واثقة من نفسها، وجسدها اكتسب تعبيره الأنثوي الجذّاب. الأمّ لالة مريم فرحانة بابنتها وجدّتها لا يسعها مكان ولا يكفّ لسانها عن الدعاء بالمزيد من النجاح، والأب سي توفيق في أوج البهجة والحبور... بعد انصراف المدعوّين وانتهاء العائلة من العشاء، قالت فدوى لوالدها باللغة الفرنسيّة إنّها ترغب أن تحادثه في موضوع خاصّ إذا اتّسع وقته. لم يمانع واقترح أن يصعدا إلى مكتبته في الطابق الأوّل. حرصتْ هي على أن تغلق الباب وجلست أمامه على الكرسي مبتسمة، وبعد لحظات قالت له بصوت محايد ولغة فرنسيّة أنيقة: «أريد أن تكون أوّل من يعرف أنّني قابلتُ في مطلع السنة الدراسيّة رجلَ حياتي. اسمه ميشيل ومعه أحسّ كأنّنا نتنفّس من رئة واحدة. يدرس معي في الاختصاص نفسه ولديّ إحساس أنّه سيمنحني السعادة

والاستقرار...». قال لي الأستاذ توفيق وهو يحكي لي لقاءه هذا مع ابنته بأنّ المفاجأة كادتْ تُخرجه عن الطوق وتدفعه إلى إشباعها لطمًا وطردها من مكتبته. إلّا أنّه مسك أعصابه واستعاد ملامح فدوى مقترنة بشخصيّتها القويّة وذكائها اللامع، وتذكَّر اكتشافه لهذه الجوانب المميّزة أثناء ترافُقهما في رحلة باريس. تتحدّث بهدوء مراعية الدقّة في تعبيرها، ممتلكة لخلفيّة معرفيّة أدهشتْه، ومتحيّزة لعالم اليوم وتطلّعاته المستقبليّة، ولا تُخفي أنّها تعرف ما تريد... تمالَك توفيق إذن أعصابَه وطلب من فدوى أن تترك له وقتًا للتفكير، وهو لا يهضمُ بعد أنّ ابنته ذات العشرين ربيعًا تستطيع أن تختار رفيق حياتها هكذا ببساطة وتجرُؤ على أن تُعلن له ذلك وهي تعلم أنّ مَنْ اختارته لا ينتمي إلى دينها ودين أبيها. أحسستُ أنا أنّ سي توفيق لا يبلع مسألة اختلاف الديانة بين الأزواج، فحاولتُ أن أهوّن من العواقب على أساس أنّ الآفاق المشتركة بين شباب العصر عديدة والتسامح أضحى سمةً غالبة؛ لكنّه صارحني بأنّ لديْه تحفّظات لا تعود فقط إلى البيئة التي نشأ فيها، المُشبعة بروح الإسلام وطقوسه، وإنّما تتصل أساسًا بمسؤوليّته كأب، يتحتّم عليه أن يتأكّد من أنّ الأسرة التي سيتصاهَرُ معها ستحترم ابنته وتصون كرامتها وتحميها من الإهانة. فالزواج، في نظره، لا يتوقّف نجاحه فقط على صلاحيّة الزوج أو الزوجة، بل يعتمد على الأسرتيْن المتصاهرتيْن ومدى تلاؤم مستواهما الاجتماعي والمادّي والأخلاقي، والدين جزء من الأخلاق...

بعد التفكير والتدبُّر، اهتدى الأستاذ توفيق إلى فكرة تخرجه

من المأزق وتجعله يلائم بين واجبه في التعرّف جيّدًا على أسرة الشاب الذي اصطفاه قلب ابنته العزيزة، ويبدو أمامها متفهّمًا، منسجمًا مع قراره بأن يفتح لابنته أبواب المعرفة وضمان المستقبل. اقترح على فدوى أن يوجّه دعوة استضافةٍ إلى ميشيل وأبويه ليُمضوا في المغرب أسبوعًا يتيح لهم أن ينسجوا نوعًا من الحميميّة ويتعرّفوا على العادات وطرائق السلوك في المغرب. بعد ذلك سيغدو كلّ شيء سهلاً، وستتقبّل العائلة الوافد الأجنبي، خاصّة بعد أن يُعلن إسلامه. هذا شرط لا مناصّ منه، قال لِفدْوى، وبذلك نَبْعُد عن الإحراج ونكون قد سلكنا الطريق المستقيم...

غير أنّ الطريق لا يستقيم إلّا ليتعرّج من جديد، إذ الواقع أشبه بلُغز موصول الحلقات قد يفوق التخييل في مُفاجآته.

قبلَ أن أنتقل إلى المفاجأة التي لم تكن على البال، أستعيد مُفارقةً استرعتْ انتباهي، تتّصل بحالة الأستاذ توفيق وهو يحكي لي نُتَفًا من تفاصيل حياته، في سياق التذكّر واسترجاع اللحظات. لقد وجدتُه مختلفًا في لغته وانفعالاته عن حالته حين حكى عن مسار حياته الإجمالي في تناسق وحياد. انتبه الآن إلى أنّه، في استرجاعه بعض اللحظات، يلجأ إلى عبارات دارجة مصحوبة بإشارات من يديه ورأسه وتقاسيم وجهه. يقول مثلاً: «**لمّا خبّرتني فدوى، زاد معايا الخضِر. بها، بها تتزوّج واحد نصراني؟**». يهدأ قليلاً ثم يقول: «**بديتْ نخمم في الوالدة وفي امراتي، كيف غادي نخبرهم؟ غادي يقولو لي إيوا سيدي تبارك الله على تربيتك لبنتك**

والحرّيّة اللي كنت عاطيها لها...».

عندما أذكّره بأنّه هو أيضًا اختار طريق الانفتاح على العصر ودرس في معهد فرنسي، وأنّ المسألة تندرج في سيرورةٍ عاديّة، يجيبني: **«صحيح. لكن هناك حدود. أنا عمري ما فرّطتْ في التقاليد. حْنا كنّا باغيين فدوى تكمل قرايتها ونزوّجوها على يدينا ونفرحو بها. أنا ما فاهمش كيفاش قرّرتْ تختار هاد ميشيل وهي ما زالت في أوّل الطريق؟ على كلّ حال أنا بقيتْ حيران وخفتْ نغلط معها. وعلى ودّ داك الشي اقترحتْ عليها نعرضو عليهم يجيوْ يضايفو عندنا باش نْعرفو مع من غادي نتناسبو (...) أنا دايمًا تنقول مع راسي في لحظة الغضب: مياتْ تخميمة وتخميمة ولا ضربة بالمقصّ».**

أحيانًا كنتُ أتساءل وأنا أنصت إلى الأستاذ توفيق عمّا إذا لم يكن يستطيب أن ينفخ في هذه المسألة ليُوهِمَ نفسه بأنّه ما يزال في الواجهة، يُصارع ليجدَ الحلول كما أَلِفَ أن يفعل في مضمار المحاماة. إلّا أنّ مرور الشهور بل السنوات، جعلني أميل إلى أنّ الأستاذ توفيق تربطه بذويه وابنته وابنه، آصرةُ التملّك وعاطفة أبويّة تحثُّهُ على اعتبار مشاكلهم تخصّه أكثر منهم، لدرجةٍ يتوهّم معها أنّه يمكن أن يعيش بدلاً عنهم، تجاربهم أو على الأقلّ يجعلهم يعيشونها على هدي خبرته وحكمته... ويمكن أن أسجّل أيضًا أنّ الأستاذ، وهو يحكي لي عن تفاصيل تجربته مع ابنته، بدا لي أكثر إثارة للتجاوُب ممّا كان عليه وهو يسرد قصّة حياته.

المُهمّ أنّ دعوة أسرة ميشيل أرسِلَتْ وتمَّ الاتّفاق على أن

يكون موعدها في عطلة ربيع السنة المقبلة. واستطاع الأستاذ أن يقنع أفراد العائلة بضرورة هذه الزيارة، رابِطًا إتمام خطبة فدوى بموافقتهم على التصاهر مع الأسرة الفرنسيّة. «**حْنا عيننا ميزاننا، واللي بغاها الله هي اللي تكون**»، ردّد على مسامع زوجته وأمّه.

لكن، مَنْ سيُهندسُ الضيافة ويحدّد برنامجها وتفاصيلها. طبعًا هو الأستاذ توفيق الذي أحسّ فجأة بحماس يدبُّ في عروقه، فجعل من الزيارة فرصة لإظهار حنّةِ يديْه، مستعينًا بخبرته الطويلة في المحاماة على نسْج حلقات أيّام الاستضافة... صباح مساء يخلو إلى نفسه ليتصوّر برنامج الزيارة مستعينًا بلائحةٍ تضمّ أسماء أصدقائه في بلدات الأطلس المتوسّط، ومستوحيًا استيهاماته وهو يرسم ملامح حفلات العشاء وسهراتها الموسيقيّة: «**غادي نورّيهم شكونْ هي عائلة الأستاذ الصادقي واش تتسْوى، وكيف هي أصول الضيافة والكرم في المغرب**».

ها إنّ عطلة الربيع هلّتْ على الرباط، ومعها ميشيل وأبوه جورج وأمّه دومنيك. حملوا معهم هدايا بسيطة: قارورة عطر شانيلْ، ربطة عنق حريريّة، شالٌ بألوان زاهية، وعُلبة شوكولاتة جوديفا. التحايا والابتسامات، وتقديم الحليب والتمر قبل أن يستقرّ الضيوف في الغرف الثلاث بالطابق الأوّل ليستريحوا قليلاً في انتظار ساعة الغداء... فدوى تتحرّك بِراحتِها وتقدّم أفراد عائلتها، والأستاذ توفيق يتدخّل من حين لآخر، مستعملاً عباراتٍ فرنسيّة مطرّزة تراعي الدقّة في تطابُق أزمنة الأفعال، وكلّ شيء يشير إلى أنّ لحظة الاستقبال مرّتْ في ظروف حسنة.

على المائدة الموضوعة وسط الدار، تناوَبَتْ الأطباق الشهيّة بعد المُفتتَح التقليدي: بسطيلة محشوّة بالحمام واللوز والبيض تلَتْها تنويعات من المُقبّلات ثم ضلعةُ غنَم محمّرة وصحن كبير يحوي أربع دجاجات مُكتّفة عليها قطع الليّمون المُرقّد وتدْغميرة البصل والزعفران. واشتمل الحِلو على بطّيخ أحمر وفطيرة من الفواكه صُنعت في البيت. وكان نادلان يرتديان جاكتة بيضاء يقومان بالخدمة... نظرات الإعجاب والانبهار لا تغادر وجوه الضيوف، وتعليقات الأستاذ توفيق تجمع بين تفسير وصفات الطبخ، وسردِ بعض المستملحات والأمثال. وحين قال جورج إنّ هذا الطعام أكثر من اللازم، ذكّره المضيف بالمثل المغربي «**كل طعام تيدير بلاصتو**».

عند الأصيل، جولة عبْر معالم الرباط وزيارة بيت الوالدة في سلا، وتعليقات وشروح أبدع فيها الأستاذ توفيق وأجادَ. فدوى وميشيل يبدوانِ في منتهى الانبساط وثغراهما لا يفتُران عن الابتسام. صور للذكرى مع كؤوس أتايْ منعنع وحلويات كعب الغزال، في مقهى الأوداية عند مغيب الشمس.

على مائدة العشاء، ادّخرَ الأستاذ لضيوفه مفاجآتٍ مطبخيّة تجمع بين شربة الحريرة والكباب المغدور والكُسكس المدفون المُرفَق بكؤوس الحليب... وعلى رغم أنّ الأب جورج أشار إلى أنّهم في فرنسا غير متعوّدين على الوجبات المكتظّة في العشاء، فإنّ الأيدي امتدّتْ واللقمات تعاقبتْ، والحديث استطال إلى منتصف الليل متنقّلاً من التاريخ إلى السياسة، ومن أساليب الطبخ

إلى صعوبة تطبيق مبدأ التعادل (Parité) بين الرجال والنساء في عهد الاشتراكيين. . .

نام الأستاذ توفيق راضيًا عن نفسه بعد نجاح خطّة اليوم الأوّل. في اليوم التالي، عندما استيقظ الضيوف متأخّرين بعض الشيء، وجدوا أنواعًا من أطعمة الفطور مصفوفة على المائدة: قطع خبز مستطيلة مقليّة في البيض، السفنج، هلاليّات، أنواع من المربّى والعسل وزيت الزيتون، حلويات وعصائر. . . لا فائدة من أن يستكثر الضيوف وفرة الأطعمة، فقد أدركوا أنّ هذه عادة متأصّلة عند أهل الدار وما عليهم إلّا أن يتذوّقوا ويستمتعوا ويمتدحوا.

برنامج الزيارة لليوم الثاني يتضمّن الذهاب إلى بلدة الرمّاني لتلبية دعوة أصدقاء الأستاذ وأصدقاء والده المرحوم القايد الصادقي، لأنّهم يودّون التعرّف على الأصهار الفرنسيين المحتملين. هناك، وجدوا في استقبالهم مجموعة من الطبّالة والغياطة، وفرقة أحواش تهزج بالأغاني وقد تجمع من حولها عدد من سكّان الحيّ وأهل الدار الكبيرة. زغاريد وتصفيقات والأستاذ توفيق، بجلبابه الأبيض وطربوشه الأحمر، يختال إلى جانب المضيف، الفلّاح الغني، صديق والده المرحوم. ما مِنْ حاجة إلى القول بأنّ هذا الغداء حفَلَ بالخرفان المشويّة، والكسكُس المفتول، والحلوى الشبّاكيّة، وبرارد الأتايْ تحت الخيمة الكبيرة التي أقيمت لاستقبالِ الضيوف الذين وجدوا أنفسهم في مناخ غير مألوف، فتواترت أسئلتهم واستحساناتهم، وتضاعفتْ فرحة

الأستاذ بما ألهمه الله إليه من اختيار.

على هذا المنوال تتالتْ الأيّام الستّة التي أمضاها ميشيل ووالداه في ضيافة عائلة فدوى، وخلالها أثبت الأستاذ توفيق قدرته على أن يبتدع لكلّ يوم زيارة، ولكلّ وجبةٍ قائمة طعام مُغايرة. وحسب تقديره العامّ، مرّتْ الزيارة وفق ما خطّطه وَدبّره، ولوْ أنّه لم يكن راضيًا عن تلك الخرجات الخاصّة التي أقدمتْ عليها فدوى صحبةَ ميشيل بعد العشاء، بدعوى زيارة أصدقائها في الرباط. إلّا أنّه أدرك أن ليس لائقًا أن يعترض على مثل هذه الخلوات المُدبّرة بذكاء.

ها نحن نقترب من المفاجأة «التي لم تكن على البال»؛ فبعد أن أخلد الأستاذ توفيق إلى الراحة قليلاً قبل أن يزنَ عائلة ميشيل بميزان الذهب، كما يحلو له أن يقول، فوجئ برسالة مسجّلة على عنوانه في مكتب المحاماة، بعثها ضيفُه جورج أبو ميشيل. ما أن قرأ الرسالة ـ حكى لي فالح الحمزاوي ـ المتدرّب معه في المكتب، حتى تبدّلتْ سحنته وبدأ يُرعد ويزبد ويشتم باللغة الفرنسيّة مَنْ أسماه الحقير، ناكر الخير، قليل الذوق والأدب. . . خرج فالح من مكتبه مذعورًا ليجد الأستاذ كثوْر هائج، والرسالة بيده يُلوّح بها قائلاً: اقرأ ما كتبه الخنزير الذي دلّلته هو وزوجته العاقوص، العجفاء، وابنه المغرور. اقرأ لكيْ لا تظلّ مبهورًا بالفرنسيين الأجلاف عديمي اللباقة. . .

قال لي فالح إنّه أمسك الرسالة من يده المرتعشة وهو لا يجرؤ على النظر إلى الغضب المرسوم بِبشاعةٍ فوق وجهه وعينيْه

الجاحظتيْن. أستفسرهُ عن محتوى الرسالة، فابتسم معتذرا «لأنّ الأسرار أمانات لا يجوز إفشاؤها أو التفريط فيها».

حين اتّصلتُ بالأستاذ توفيق في بيته، بادَرني: أين اختفيتَ؟ تعال فلديّ ما أحكيه لك. وكان ما توقّعتُ، ما أن وصلت حتى مدّ لي الرسالة وهو يدعوني إلى النظر في الجزاء الذي يناله فاعل الخير!

الأستاذ توفيق الصادقي

بداية، أتردّد في أن أشكرك على أيّام الضيافة الحاتميّة التي خصّصتَها لنا، أنا وزوجتي وابني. أتردّد لأنّني رجعتُ من المغرب ونفسي ممتلئة مرارة، جرّاءَ الإحساس بالمهانة. نعم، أقول المهانة على رغم أنّك عاملتَنا بحفاوة بالغة، وأغدقتَ علينا كرمًا مُسرفًا حدَّ الشطط.

طوال الإقامة أحسستُ كأنّني أجلَدُ، وعليّ أن أحافظ على ابتسامتي وإعجابي بتلك الولائم الألفليليّة التي تفنّنْتَ في إعدادها وإخراجها. ما حيّرني، في العمق، هو أنّك درست في مدارسنا وجامعتنا، وزرتَ باريس ـ الأنوار وتُتابع بِدأبٍ أخبار بلادنا وما يجري في العالم الذي لا ينفكُّ عن التحوّل. وقد أحسستُ خلال محادثاتنا، أنّ أشياء كثيرة تضعنا على معيار النغم نفسه الذي يوجّهنا في الحياة. إلّا أنّ إسرافك في الكرم وإلحاحك على طقس استعراض الأطباق والطبخات النادرة، جعلني أتساءل عن حقيقة سلوكك ومدى التحام شخصيّتك. قلتُ مع نفسي وأنا ألاحظ تلذّذك بمنظر الطواجين والصحون الصينيّة حين تقديمها ممتلئة في

جميع الوجبات، لعلّها نقطة ضعف ورثها عن تقاليد الأسرة العريقة، ولا بأس من أن أتحمّلها. لكنّني وجدتُ في تعليقاتك ومدائحك للمطبخ المغربي وإشادتك بكرم الضيافة، ما ضايقني وقزَّم وجودي أنا وأسرتي، وكأنّك تبعث برسالةٍ ضمنيّة لا تخلو من تحقير ضيوفك، فيما أنتَ تتظاهر بإعزازهم!

ما قوّى لديّ هذا الشعور، أنّك لم تُبدِ اهتمامًا بعملي ولا بالطريق الصعب التي اتّبعتُها لأتمكّن من أن أدفع تكاليف دراسة ابني ميشيل في الجامعة. وعلى رغم أنّني استمعتُ جيّدًا إلى ما حكيتَه عن مسارك المتميّز في عهد الحماية وبعد الاستقلال، فإنّني لم أجد لديك ميلاً إلى الاطّلاع على تجربتي أنا الذي أنتمي إلى طبقة العمّال والذي بذلتُ أقصى الجهد لأرتقيَ في العيش والثقافة والوظيفة.

ما لم تسأل عنه ولم أقله لك، هو أنّني أيضًا اضطررتُ إلى العمل والدراسة في الآن نفسه لأنّ أبي العامل بشركة «بوجو» لصُنع السيّارات، لم تكن أجرته وأجرة أمّي تكفيان لإعالة إخوتي الثلاثة. وعندما التحقتُ بمصانع بوجو في أوائل ستّينيّات القرن الماضي، حرصتُ على إتمام إجازتي في القانون، وانخرطتُ في نقابة س.ج.ت الشهيرة، وتعلّمتُ معنى التضامن والدفاع عن الحقوق. كان بودّي أن تسأل وأن تُبدي اهتمامًا لأحكي لك عن تجربة الأخويْن جيلْ وَإميلْ بوجو اللذيْن نجحا في أن يحوّلا طاحونةَ حُبوب إلى مسبكةٍ للفولاذ ثم إلى معمل للدرّاجات الهوائيّة، ثم إلى مصنع لإنتاج أوّل سيّارةٍ بنزين سنة ١٨٩٠... مثلُ هذا الإنتاج أفتخر به ولا يهمّني إن كان الأخوان بوجو وذرّيّتهما يحتفون بالأكل والولائم. ما

له جدارة عندي، هو المصانع والاختراعات التي شجّعاها وأشرفا على تحقيقها، وطبقة العمّال الواسعة التي ترعرعتْ في أكناف هذه المصانع مُؤمّنة الإنتاج المتطوّر إلى يومنا هذا. . .

أنا الآن في إطار قانوني في الشركة، وزوجتي أستاذة في مدرسة إعداديّة، والولدان الأصغران يقتربان من الجامعة، وما أحرص عليه هو أن أواكِب داخل مجتمعي وفي أقطار العالم، حركة التغيير الواعدة بإنصافِ المستضعفين. لا تهمّني الديانات ولا الأصول الإثنيّة ولا الإيديولوجيّات التبشيريّة. انتباهي مشدود إلى الممارسة الموضوعيّة المناهضة للعولمة الربحيّة واليمينيّة العنصريّة. وهذا ما كنتُ أتطلّع إلى أن نتحدّث عنه ونحن متحلّقون حول مائدةٍ تُغني بساطتُها عن اكتظاظها الذي يسدّ النفس.

التمستُلك العذر أوّل يوم، لأنّك ربّما ظننتَ أنّني من فئة الفرنسيين هواة الفخفخة الذين ينتهزون الفرص لملأ البطون على غرار سلالة المُعمّرين في عهد الحماية. وحاولتُ ان أفتح معك موضوعات تضيء لك اهتماماتي وموقعي داخل مجتمعي، لكنّك حسبتَ أنّ ذلك لا يعدو أن يكون تصريح نوايا سرعان ما يتلاشى أمام ملذّات البطن التي لا أحد يستطيع مقاومتها. لذلك لم أستطع أن أستريح طوال أيّام الضيافة التي عشتُها كمِحنةٍ مكتوبة على الجبين، إذ لم يكن بإمكاني أن أحزم حقيبتي وأعود من حيث أتيتُ، لأنّني أعرف مدى تعلّق ميشيل بفدوى، وأدركُ كُنهَ علاقتهما النابتة على أطرافِ تناقضاتٍ تنتصب في وجه عواطف شابّة تنتمي إلى شساعة الحياة وترفض أن تنغرس في خانات مُسبقة سطّرتْها التقاليد والأعراق والأديان.

أتذكّر يوم قدّم لي ميشيل صديقته فدوى، وأستحضر غبطتي وأنا أستمع إليها تتحدّث عن بلادها وعن العالم بنظرةٍ مُتفتّحة يغمرها الأمل والثقة في قيَمٍ إنسانيّة مشتركة تتخلّق ضمن شروطٍ صعبة، لكنّها هي تُحسّها جزء من كيانها. وكان ميشيل مأخوذًا بحديثها وجرأتها ومُنجذبًا في الآن نفسه إلى جمالها ورقّتها. فيهما ومن خلالهما، أستشعر صورة تتشكّل لِعالمٍ أرحب لا أحد يستطيع أن يعوق ولادته. لأجل ذلك ضغطتُ علّى نفسي وانغمرتُ في ولائمك المُتهتّكة، وجاريتُ انتشاءك بما تفتّقتْ عنه ميولك الساديّة وأنت تُعذّبنا بعرض الطواجين والأطباق وقصَعات الكسكس المرصّع باللحم والخُضر حينًا، وبالبصل والزبيب واللوز أحيانًا. أتظاهر بالأكل وأسترق إليك النظر وأنت تشرح وتُعيد متحدّثًا عن أسرار الطبخ المغربي وكأنّها معادلاتُ أينشتاين!

أرجو أن تتحمّل عنف كلماتي لأنّك أنت أيضًا مارستَ عليّ عنفًا أفظع، أنا الذي أعتبر الأكل جزء من منظومة تُضفي بتناغمها توازنًا على وجودنا، وليس هو عنصرًا للتباهي والاستعراض.

ملحوظة:

بعد أن أنهيتُ كتابة هذه الرسالة، تردّدتُ في إرسالها إليك، إذ تفطّنتُ إلى أنّني لا يمكن أن أستوعب شخصيّتك خلال أسبوع واحد، خاصّة أنّني تذكّرتُ ما قرأته في إحدى الروايات، من أنّ معاشرة سنوات بين شخصيْن قد تجعلهما يُعايشان السطح فقط دون النفاذ إلى أعماق النفس. مع ذلك، ها أنا ذا أرسلها كما هي بوقاحتها وعنفها وأحكامها المتسرّعة، لأنّني أريدك أن تعيد النظر

في هذا الجانب المقلق من سلوكك وأن تنتبه إلى أنّ كلًّا من فدوى وميشيل لا يحفلان بهذه المظاهر ولا بالأسيجة التي تضعها التقاليد أو الدين في طريقهما. دعهُما، إذن، يجرّبان ويبحثان عن أنموذج أقرب إلى عصرهما. وأظنّك متّفقًا معي في أنْ لا أحد يستطيع أن ينوب عن الآخر عندما يتعلّق الأمر بتجربة الحياة واحتمالاتها من الخطأ والصواب؟

جورج جوبير

طال سكُوتي بعد قراءة الرسالة فيما الأستاذ توفيق يتطلّع إليّ منتظرًا تعليقي، فوجدتُني ألوك الكلمات، مُتلعثمًا حريصًا على أن أخفّف عنه فداحة الأحكام القاسية التي تضمّنتْها رسالة الضيف جورج جوبير. قلتُ له إنّ هذا كلام مُتهافت، لا يستند إلى منطق، لأنّ عادات وتقاليد بلديْنا مختلفة، وأنت فعلت ذلك بدافع توطيد الصداقة، والأكل الجيّد هو أفضل ما نتمتّع به في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضًا، لأنّ المولى جلّ وعلا وعَدَ عباده المتّقين بأطيب الأطعمة وأشهاها، وأنا شخصيًّا يلذّ لي أن أحضر الولائم المُعتبَرة، والمطبخ المغربي أوّل شيء أفتخر به عند ما أكون مع الأجانب. . . لذلك لا أفهم ردود فعل هذا الفرنسي الموتور، وغالب الظنّ أنّه قال ذلك عن حسد وغيرة، أو أنّه يعاني من جوع تاريخي تعوّد معه على التقشف والإعراض عن ما لذّ وطاب. وأرجوك ألّا تتأثّر لهذا الهراء ولا تَنْسَقْ مع الغضب وأنت تقرّر بالنسبة لاختيار ابنتك. وأضفتُ بأنّ عليه، في نظري، أن يعتبر الرسالة مجرّد مزحة ثقيلة يستحضرها في أوقات التفكُّه والسخرية من الذين يلذّ لهم أن يبصقوا في الحريرة المغربيّة الممتازة!

أتكلّم وأصطنع الحمية والانفعال، والأستاذ توفيق يهزّ رأسه موافقًا على ما أتفوّه به في ارتباك بادٍ للعيان. ولعلّه هو أوّل من أدرك ارتباكي، إلّا أنّه بحاجة إلى ما يخفّفُ كربه ومرارته. امتدّ الصمت بيننا مُمِضًّا إلى أن سمعته يقول: يصعب عليّ أن أتنصّل ممّا تربّيْتُ عليه لأنّني أعتبره جزء من كياني. وأنا لست منغلقًا وأقدّر ما هو جيّد لدى المجتمعات الأخرى. هذا ما يجعلني مستاء من كلام ضيفي. ولولا أنّ فدوى وقع اختيارها على رجل أجنبي لما وصلنا إلى التعامل مع هذا الصنف من الناس. لكن معك الحقّ في أن تذكّرني بأنّ عليّ ألّا أخلط بين كبريائي وبين مستقبل ابنتي. لها الحقّ في أن تختار صيغة حياتها ما دامت تعتقد أنّها تستجيب لميولها ومشاعرها، ولا يجوز أن أتدخّل لتكسير انطلاقتها، لأنّني أعرف حالات من هذا التدخّل الأبوي آلتْ إلى مآسٍ من الاكتئاب والانطواء وما يشبه الجنون...

اقترن لقائي هذا بالأستاذ توفيق في بيته، بصورة المرارة الطافحة على وجهه وصوته. إلّا أنّ هذه الصورة المعتمة ستتلاشى تدريجًا خلال السنوات العشر التالية التي كنتُ أقابله فيها ببَيْت الدكتورة نبيهة أو عند فالح الحمزاوي الذي استلمَ مكتب المحاماة بينما اكتفى الأستاذ توفيق بالإطلال من حين لآخر، والمشاركة الفعليّة كلّما تعلّق الأمر بقضيّة مهمّة تستدعي خبرته وعلاقاته. توزّعت لقاءاتي به على هذا النحو، إذن، وكان إحساس يتكوّن لديّ بأنّ الأستاذ وضع مسافة بينه وبين الأشياء والناس، فلم يعد يكشف عن ذلك الغِلّ والمرارة اللذين كانا يتدفّقان من كلامه وتعبيراته تجاهَ الزمن. بل إنّ صُفرة الميّت علتْ وجهه فأسبغتْ

عليه طمأنينة وروْقًا. ولعلّ أحداث الفقدان التي عرفها هي التي هدّتْ حيله كما يقال، لأنّه فقد أمّه وخاله وقرّرت فدوى الاستقرار في فرنسا، واختار أخوه عليّ المنفى بدلاً من العودة، وتزوّج ابنُه عبد الرفيع وأنجب، واستجاب الأستاذ لطلب زوجته مريم فانتقلا إلى العيش في دار أمّه بمدينة سلا، حيث استعاد إيقاعًا أقرب ما يكون إلى العزلة والتوحُّد...

أظنّ أنّني سأتوقّف عند هذا الحدّ من روْي قصّة توفيق الصادقي، مع أنّني أعلم أنّ هناك تفاصيل أخرى لم أتطرّق إليها. أتوقّف مع احتمال أن أعود إليه من خلال ما التقطتُه في سهرات الدكتورة نبيهة النعسان حين كان الأستاذ يحضرها في فترات متباعدة. لكنّني أقول هذا ضمْنَ الاحتمال، لأنّ خبرتي الروائيّة محدودة لا تُسعفني، أنا مساعد المؤرّخ، عليّ أن أقرّر في ما ستسمح به الفصول الآتية التي لم أكتبها بعد. لذلك أفضّل الانتقال إلى شخصيّة فالح الحمزاوي الذي التقيتُه بمكتب الأستاذ توفيق أثناء فترة التدريب، ثم امتدّت العلاقة حين سَطَعَ نجمُه كمُحامٍ تقدّميّ ومُتحدّث بارع، مُجادل، في صالون الدكتورة نبيهة.

فالح الحمزاوي

(١٩٥٦)

دُرْ مع الزمان

ـ ١ ـ

مملوءٌ بطفولتي أحسُّني. هي وحدها تكاد تطفو على ما عشته من سنوات تجاوزت الثلاثين. امتلاء يعود، فيما أحسب، إلى أنّها طفولة ارتبطتْ بمدينة فاس القديمة، بحيّ «المخفيّة» وما جاوَرهُ، وصولاً إلى ساحة الصفارين ومكتبة القرويين وأبواب المسجد السبعة التي كانت تجتذبُنا ونحن نتجارى عبر الأزقّة الضيّقة المحيطة بها. بل أقول الآن، لعلّ شعوري بامتلاء طفولتي مُتحدّر أكثر من ذلك الفضاء الغاطس في ما بيْن العتمة وضوء الشمس المُتسلّل؛ فضاء يشمَلُ مجموع المدينة، سرعانَ ما يُحوّلها عبْرَ التذكّر، إلى مدينة مسحورة تسندها الخرافات والحكايات العجيبة والنماذج البشريّة غير المُتوقعة.

هل أسْقِطُ عليها السحر والبهاء لأنّها منحتني طفولة سعيدة، مُقترنةً بالحركة والشيْطنة المتحرّرة من أوامر الردع والإلجام؟ ربّما في ذلك بعض الصحّة؛ فعندما كبرتُ وبدأت أقرأ الكتب،

صادفتُ في أكثر من موضع عباراتٍ تؤكّد أنّ الطفولة السعيدة تمنح صاحبها قدرة على التحدّي ونبذ الكآبة. قد يعود، إذن، هذا الإسقاط إلى ما قرأته، وربّما أيضًا لأنّنا، مع تقدّم العمر والملاحظة، نتبيّن أنّ قسطًا كبيرًا مِمّا نعيشه إنّما يتمُّ عبْر محكيّ ينقُل بدوره محكيّاتٍ نَسجتْها الذاكرةُ والقراءة والتعليقاتُ الشفويّة العالقة بمخزوناتنا السمعيّة. لا يهمّ، فأنا أنطلق، خلال استعادة حياتي في مرحلتها الأولى، من تلك الصورة الزاهية، الهنيّة، لطفولتي في مدينة فاس القديمة، أحكيها عبْر ذاكرتي وعبر ما تراكمَ من محكيّات سمعتُها عن فاس.

كنّا نسكن في الجزء الفوقي من دار تقليديّة الطراز، يكسو الزليج معظم جُدرانها، والفِناء الواصل بينها وبين الضوء ينتهي بمربّعات حديديّة مثبتة على حوافّ المساحة المنفتحة على السماء عند السطح. وهي قضبان وُضعتْ خوفًا من أن يتدحرج الأولاد وهم يلعبون في هذا الفضاء المفضَّل لديْهم.

أبي مْعلّمْ دبّاغ، ينتمي لعائلة معروفة بخبْرتها في هذه المهنة؛ وأمّي من عائلة مستورة وتمتلك جمالاً لافتًا للنظر؛ وأختي الكبرى ترعاني منذ الصغَر، وتحثّني على الاجتهاد في المدرسة. منذ السادسة، أحسستُ أنّني ابنُ العائلة المُدلّل، وأنّ الكلّ يرعاني ولا أحد يُعاكس رغباتي. ووجدتُ أنا هوايتي في اللعب بالأزقّة المعتمة والتردّد على فناء ضريح مولاي إدريس، وصحْن جامع القرويين حيث يلذُّ لي أنا وأصحابي، أن نقلّد المصلّين في حركات الوضوء، وأن نجري مُتصايحين عندما نلمح مُقدّم المسجد يتعقّبُنا.

المدرسة فضاء آخر استولى على اهتمامي لأنّ الاحتكاك بالتلاميذ يستثير الفطنة ويقود إلى المنافسة. وكنتُ أقبل على القراءة والكتابة مستعينًا بأختي لمعرفة المزيد وإثبات تفوّقي.

مناسباتُ الأعراس وحفلات الختان، وعودة الحُجّاج من الحجاز، تكون فرصة لامتداد ما كان يستحوذ على حواسّي الشغوفة باللعب والصخب والجري والضحك ومُناكفة العجائز والشيوخ... وعندما كان ينمو إلى سمعنا أنّ أحد الأقارب أو الأصدقاء سيذبح ثوْرًا لإعداد لحم الخليع المُصبّر، كانت فرحتنا تبلغ أوْجَها، فهي مناسبة لاجتماع العائلات وتكليف الأولاد والبنات الصغار والمراهقين بالمبيت فوق السطح، لحراسة القديد خوفًا من أن تسطُوَ عليه القطط المتربّصة. ليالي الحراسة تلك، تنقلبُ إلى ساعات لهْوٍ ومزاح وتدريب للحواسّ على نكهة الصبايا وحضورهنّ الأنثوي. أغمضُ عيني الآن، أم أنّهما وحدهما تنغلقان، لأرى حشد الأطفال والأولاد والبنات في هوْجتهم الفرحانة، وأسمع أغانيهم تردّدها سطوحُ البيوت المجاورة:

ربيعة يا ربيعة حلّي لي باب الدارْ
النهار طلعْ عليَّا وأنا راسي عريانْ

لا يمكن أن أستعيد لحظات الطفولة المشرقات وَفْقَ ترتيب معيّن، فهي تحضر دفعة واحدة مثلما أنّها تتوارى ساحبة كلّ أذيالها. وهي، إنْ كانت ملوّنة بنِثار الذهب وألق الأفراح، فإنّ بعض ومضاتها لا تخلو من حواشي الأسى والحزن الصامت. يكون ذلك عند موت بعض الأحباب، أو عندما يتعرّض أحد

الصبايا العاملين في دار الدّبغ لانزلاقٍ بين الأحواض ينجم عنه كَسْرٌ في القدم أو رضْخ في الرأس. إلّا أنّ الفرح سرعان ما يعود ليلُفّ طفولتنا الهنيّة بردائه الرجراج.

هل هي شقاوة الطفولة التي جعلتني لا أنفُر من منظر الدم، مُتدفّقًا عند نافورة ضريح مولاي إدريس، بعد كلّ ذبيحة ينجزها أصحاب الحنطات قُربانًا للشرفاء الأدارسة وصدقةً للفقراء؟ كنتُ أظلّ مأخوذًا بمنظر الأولاد والشبّان وهم يتعاركون في لُعبة المشاتفة، يتربّص الواحد بالآخر ليُوقعه على الأرض الزلِقَة، المكسوّة بدماء الثيران الصريعة. مناظر غير مألوفة تستولي على لُبّنا وتمدُّنا بمشاهد وطرائف لا نملّ من حكيها. طفولة تلتمع في الذاكرة من خلال المقاطع والمفاصل المتجدّدة التي تجعل كلّ واحد من أطفال الحيّ متحفّزًا لاستقبال المفاجآت ورفع التحدّي. إذ يكفي أن يكتشف أحدنا أنّ هناك سينما قريبة، في باب بوجلود، تعرض أفلامَ رعاة البقر وأخرى بوليسيّة وأفلامًا يلعب فيها فريد شوقي أو عبد الحليم حافظ، لنتنادى ونتّفق على رحلة جماعيّة إلى قاعة الأحلام المعلّبة التي تمدّنا بزادٍ وافر لأسمارنا حول سقاية السبيل، تحت المصباح الكليل لحيّنا الآهل بالمارّة إلى ساعة متأخّرة.

متى تبدأ الطفولة وأين تنتهي؟ ما الذي يجعل زمنيّتها متلاحمة، متداخلة الحلقات وكأنّ الأيّام والليالي منصهرة في قالبٍ واحد يثير الانفعالات والانجذاب نفسه؟

لعلّ أوّل مرّة شعرنا فيها بتخطّي الطفولة، تعود إلى مشاركتنا

في مظاهرة تلاميذ المدارس الثانويّة، احتجاجًا على قرار حكومي يحذف مادّة الفلسفة من برنامج قسم البكالوريا، في نهاية ستّينيّات القرن الماضي. كنتُ في الثانية عشرة بالقسم الإعدادي الأوّل، لكن صديقي حفيظ أقنعني بالمشاركة لأنّ المسألة في رأيه، تمسّ مستقبلنا أيضًا. وبالنسبة لي، وجدتُها فرصة للإضراب والانغمار في كرنفال مظاهرات التلاميذ الآتين من مدارس فاس المختلفة. نسمع الشعار فنردّده بحماس، ونتبارى لإظهار البراعة في شتم الحكومة والسخرية من رموزها. وعيٌ ملبّس آنذاك إلّا أنّه يلامس ما كانت تحبل به تلك السنوات من غضبٍ وتطلُّع إلى التغيير. وشيئًا فشيئًا، بعد سنتيْن، سنصبح أنا وحفيظ، في موقع أقرب إلى بؤرة التحريض لتسييس التلاميذ عبر اجتماعات يؤطّرها طلّاب جامعيّون ينتمون إلى تنظيم ماركسي أو حزب يساري. على هذا النحو، بين مِزاحٍ وجِدّ، بدأ طعمُ السياسة يتسرّب إلى أعماقنا. أخذنا نستشعر صوابَ ما يقوله لنا هؤلاء الطلبة المتمرّدون؛ فالفروق تتفاقم بين الأغنياء والفقراء، وأبواب الشغل تنغلق أمام المتخرّجين من الجامعات، والحكومة خيالُ مآتة تُحرّكها مشيئة مطلقة تأمرُ فتُطاع، والماسك بخيوط السلطة يلهو كما يشاء...

أحيانًا يغلب على ظنّي أنّ مشاهد من طفولتي هي التي هدتْني إلى طريق الرفض المبكر، لأنّ استيقاظ أبي كلّ يوم لصلاة الفجر استعدادًا للشروع في العمل، مبكرًا دون ملل أو هوادة، هي صورة تلاحقني باستمرار: يبدأ باستبضاع الجلود وشحنها إلى المدبغة حيث يصل قبل معاونيه؛ وسرعان ما يخلع الجلابة ويرتدي قميصًا نصّ كُمّ وسروالاً قصيرًا، كاشفًا عن عضلاته

المفتولة. ثم يرتاد أحواض الأصباغ المخلوطة بموادّ كيماويّة تُثبّت الألوان، مُنبّهًا معاونيه إلى ما يجب أن يفعلوه لتنسيق إيقاع العمل. حركة لا تهدأ إلّا عند سماع أذان الظهر.

لا أزال أراه، في دأبِه وحركاته كلّما زرتُه وهو ينتقّل بين الأحواض في سهولة تثير إعجابي. وهو الأب نفسه الذي يغدق، في المساء، الحنانَ على أسرته دون أن ينسى أن يخصّني، أنا ابنه المدلّل، بأسئلة عن المدرسة وما تعلّمتُه فيها... وحين تتدخّل أمّي لتلاحظ أنّ اللعب يسلُبُ عقلي، وأنّني أعاركُ أولاد الحومة ولا أوقّرُ مَنْ همْ أكبر منّي، يبتسم وهو لا يكفّ عن تمسيد شعري قائلاً لها: «**الزْعامة مزيانة. الولدْ الزعيمْ يْسلّك راسو**». كلمات دعّمتْ لديّ الجسارة وحبّ المغامرة. ولم تكن أختي زهور أقلّ تشجيعًا، فكنتُ أشعر كأنّ عليّ أن أعيش بدلَ أبي وأمّي وأختي ما لا تسمح لهم ظروفهم بأن يعيشوه.

سنونُ الطفولة تقفز وأنا أتقافز معها، منتقّلاً من طور لآخر، يحدوني الاندفاع والتجاسُر والفضول نفسهما. بداية المراهقة حفَلتْ بالمغامرات البريئة، العابرة بين أحضان بنات الأقارب وأخوات الأصدقاء. إقدام وإحجام. انقُبْ واهربْ. بينما أخذ الانشغال بالمُثُل العليا يتراءى لي أفقًا جاذبًا كلّما توغّلتُ في المراهقة، خاصّة في المرحلة الإعداديّة الأخيرة. وكانت قراءات أدبيّة تُغذّي نزوع التعالي لديّ وتُطوّح بي في أصقاع الحبّ والإيروس حيث تستغرقُني أحلام اليقظة، وتسْري اللذّة في أوصالي مشاهد يُطرّزها الاستيهام... ما أزال أستحضر همساتنا،

نحن المراهقين في حومة المخفيّة، ونحن نتبادل الوصفات لإطالةِ أزبابِنا الورديّة الناعمة، فكان الإجماع يذهب إلى فعاليّة الفراشات حين تُدعَك على آلات الذكورة!

تتقافَزُ الأيّام لأجدَني مُتنبّهًا إلى أنّ ضآلة الوضع المادّي لأسرتي، لا يتواءم مع ما تجيش به نفسي من أحلام أتوق إلى تحقيقها، ابتداء من دراسة الحقوق في جامعة الرباط. صحيح أنّني، طوال الطفولة، لم أشعر بالحرمان في تجلّياته القاسية، لأنّ بعض الأقارب وأصدقاء العائلة الموسرين لا يكادون يُشعرونك بالمسافة الفارقة بينهم وبيْنك، ويفتحون أبوابهم وجيوبهم ليعاملوك كأنّك رضعْتَ من ثدْي واحدٍ مع أبنائهم... سِمَةٌ تعود، في ما أحسب، إلى ذلك المناخ الجمْعي، التضامني، السائد في فضاء مدينة فاس القديمة، مناخ يعبّر عن نفسه في الخفاء والعلَن، كأنّه ميثاقُ عَصبيّةٍ تضمّ الأهل والأقاربَ ومَنْ تآختْ أذواقهم ونفوسهم على دربِ المُعاشرة ومواجهة صروف الأيّام. مع ذلك، شعرتُ وأنا أقترب من مفرق الطرق، أنّ رحابة الطفولة تتقلّص، وأنّ عليَّ أن أدبّر الأمر بما يستحقّ من جدّيّة. وجاء قرار أختي حاسمًا ومُنقذًا، لأنّها اختارت أن تتوقّف عن الدراسة وتعمل سكرتيرة بإحدى الإدارات، لتساعد أبي على نفقات تعليمي الجامعي. اكتفتْ بشهادة البكالوريا وأصرّت على قرارها رغم رفض أبي لاختيارها.

هل أغامر بالقول إنّ محاولتيْ الانقلاب العسكري في ١٩٧١ وَ١٩٧٢، كانتا وراء اندفاعي نحو السياسة وأنا على

مسافة ثلاث سنوات من التحاقي بالجامعة؟ قلتُ مع نفسي، حسب ما تستحضره الذاكرةُ الآن: إذًا ما كنّا نقرؤه في المناشير ونهتف به في مظاهرات التلاميذ، هو يعبّر عن مطالب مشروعة ما دام الجيش الذي يعتمد عليه الملك في قمع الناس، يريد أن ينقلب عليه؛ والشباب اليساري الذي يوجد في السجون هو أيضًا على صواب، ومن ثم فإنّ النضال من أجل التغيير يصبح جزءً من وجودي ومستقبلي... بهذه الكيفيّة التجريديّة، الاستقرائيّة، كنتُ أتفاعل مع الأحداث الساخنة، مُتعجّلاً الوصول إلى الجامعة والانخراط في صفوف الطلّاب الذين يجرؤون على فضح الاستبداد. لكن، ما أن تمرّ بضعة أشهر على الحدث السياسي البارز حتى أبدأ في تقليبه والنظر إليه بكيفيّة مغايرة. وهذا ما تعلّمته بعد انخراطي في شبيبة حزب يساري عند التحاقي بالجامعة، لأنّ الاستماع إلى الآخرين والجدال الصريح، يقودان إلى توسيع الرؤية والتأنّي في إصدار الأحكام. إلّا أنّ ما ظلّ مُتمنّعًا عن الفهم، هو ما كان يتفوّه به رئيس الدولة في خُطبه التلفزيونيّة ويستثير غضبي، فكنتُ أتساءل بصوت مرتفع داخل خليّة الشبيبة عن ظاهرة مهاجمة المِلك للمثقّفين والشباب بكيفيّة لا تخلو من عداءٍ وحقد، إذ يصفهم بالأوباش تارةً، وبأنصاف المتعلّمين تارة أخرى، بل نعتَهم مرّة بالذين باعوا أنفسهم للشيطان الخُميْني... كنت أتساءل: كيف لمثل هذه العلاقة العدائيّة أن تعشّش في نفس مَنْ يعتبر نفسه أبًا لمجموع أبناء الشعب؟ تأتي الأجوبة مُتحايلة، تؤكّد ضرورة الاحتكام إلى توفير شروط فرْض الديموقراطيّة، لأنّ عصور

الحكم الفردي الطويلة ببلادنا، رسّختْ لدى مَنْ هو متربّع على القمّة أن يلغيَ حرّيّة المواطنين ويختزلهم في صنْف «الرعيّة» المحتاجة إلى مَنْ يقودها صوْبَ «المحجّة البيضاء». على هذا النحو، غدا شعار الديموقراطيّة هو المفتاح السحري الذي نعلّق عليه إصلاح الأحوال في المستقبل غير المنظور؛ ما جعلني أتندّر مع صديقي حفيظ بأن أذكّره بقولة لينين «لا أحد يستطيع أن يتنبّأ بالضربة المُفجّرة للثورة»، فيردّ عليّ بالآية الكريمة ﴿إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

نعانق شعار الديموقراطيّة مهما كانت الظروف، ونتحمّل تعسّفات الحكم الفردي، وندعو الله لهداية مَنْ ضلّ سبيل إنصاف الشعب: تلك هي ملامح اللوحة التي كانت تتراءى لي عندما التحقت بكلِّيّة الحقوق في جامعة الرباط سنة ١٩٧٤. كانت أماراتُ الغليان مُتواترة بين الطلّاب بعد أن حصدت الاعتقالات عشرات منهم ينتمون إلى اتّجاهات يساريّة متباينة. لكنّ السخط متعاظم، والجدال لا يتوقّف إلّا ليبدأ.

أخذت الرباط تبدو لي أكثر نضارة وخُضرة من فاس. والبحر يجذبني بشساعته وزرقته. حضوره هادر يُعدي بالحركة والتبدّل. أفواج الطلبة مُتعدّدي المنبت والمطامح تثير فضولي وتدعوني إلى توسيع دائرة الصداقة. غير أنّ شعورًا عارمًا طغى على أعماقي خلال الأسابيع الأولى من إقامتي في الحيّ الجامعي بالرباط، وهو تحقيق تلك الاندفاعة المنطلقة من قاع فاس نحو فضاءات أرحب، لا تحدّها جدران أو أسوار متداعية. انطلاقة لا تتوقّف

وكأنّني أركب صاروخًا صغيرًا يتباعد عن تلك البقعة الغائرة حيث تتكدّس البيوت المتلاصقة وتنتصب صوامع المساجد، وتتداخل السطوح. أستشعر، هنا في الرباط، أنّ تآلفي مع فاس وافتتاني بأزقّتها ولثغَة بناتها الساحرات، لم يمْحِ من مخيّلتي تلك الرغبة الجارفة في مغادرة القاع المعتم والفضاء المسيّج، لمعانقة فضاءات متناسلة يُسلِمُني أحدها على الآخر. لماذا يخيّل لي الآن، أنّني أمضيتُ طفولتي مشدودًا بوثاق غليظ إلى حُجرةٍ دافئة، حمّالة أسرار كانت تسحرني، ثم فجأة تحوّلَ هوايَ نحو فضاء ساطع بلا حدود أو جدران؟

مِن حجرة تلك الأسرار، يطفو مشهدٌ أرى فيه «مباركة» السوداء التي كانت تعمل عند جيراننا في الدور السفلي: فارعة القوام، عينان واسعتان ونظرات تفيض ببهجةٍ لا حدود لها تجعلني أنجذب إليها وأتمسّح بها وهي تداعب شعري. وذات صباح، استيقظنا على أصوات وضوضاء تنبعث من السفليّ فأطللتُ من الدربوز لأجد مباركة مكوّمة على نفسها وهي تتلقّى الضربات من الجار المتلفّظ بأقذع الشتائم نحو الخادمة التي أنجبتْ لقيطًا وأرادت الاحتفاظ به. حاول أبي أن يتدخّل ويُهدّئ من روع الجار، لكنّه أصرّ على أن تغادر البيت ومعها «حرامها». صورة مباركة تبدو لي، كلّما استعرضتُ فيلم الطفولة، جميلة، متحدّية من وراء دموعها ظلمَ السادة الأتقياء.

وطيْف آخر يتسلّل من حجرة الأسرار المعتمة ليبتعث الأسى ويحرّك الأشجان، هو طيف «هنيّة» ابنة عمّ أبي التي كانت تكبرني

بعشر سنوات، إلّا أنّها تخصّني بمحبّةٍ تستثير مخيّلتي كلّما تذكّرتها. كانت تلحّ على أمّي لتسمح لي بأن أمضيَ الليل من حين لآخر ببيْتهم في حيّ رحبة الزبيب، وتدعوني أن أنام معها هي وأختها في الفراش نفسه لتحكي لي قصصًا وخرافات تحلّق في أجواء توقظ الحواسّ. وذات مساء، وجدتُ أمّي تبكي فاستفسرتُها عن سبب بكائها فقالت باقتضاب: «**هنيّة صاحبْتَكْ مْشاتْ عند الله**». كيف أسمّي تلك اللحظات التي ينتزع فيها القدرُ جُزرًا من البهجة المُترعة التي تشدّنا إلى طفولتنا المضيئة؟ هي بهجة لا حدود لمسرّاتها، لكنّها إلى زوال مهما أوهَمْنا أنفسنا بغير ذلك.

خلال الزيارات التي قمتُ بها إلى فاس بعد أن التحقت بمكتب للمحاماة، وقبل أن أستقرّ نهائيًّا بالعاصمة، كنتُ أداري شعورًا بالضيْق وأنا أرتاد أزقّة المدينة القديمة لأزور الوالد وبيت الطفولة. كأنّ قبضة حديديّة تمسك بمخنقي وأنا أجتاز أمكنة أحفظ أسماءها عن ظهر قلب، أصبحتْ بيوتها مدعومة بألواح خشبيّة سميكة أو قضبان حديديّة متقاطعة هي بمثابة رتاج يُؤجّل سقوطها.

أعلم أنّ محاولة استرجاع لحظات مضيئة من طفولتي ومراهقتي تظلّ بعيدة عن أن تعانق تمامًا ما عشتُه؛ فوقائع الماضي البعيد تُحوّلها الذاكرةُ، أو بالأحرى تُعيد عجنها، لتُكسبها ألقًا خاصًّا يجعلنا نستعيدها معزولةً عن سياقها البدْئيّ، مفصولة عن ألياف الزمن وظلاله التي كانت تغطّيها. ومع أنّني أميل إلى الظنّ

بأنّ الأمكنة لا توجد منفصلة عن أزمنتها المتعاقبة التي تمنحها النكهة والتخصيص، إلّا أنّني كثيرًا ما أجد اللحظات تسطَعُ في الذاكرة منفردة، مُتخلّصة من كلّ ما قد يُثقل خفّتها المنجذبة إلى العوالم الأثيريّة.

ـ ٢ ـ

لا يمكن استيعاب الحياة من خلال يوم واحد، كما قال أحدهم، مهما كان ذلك اليوم طويلاً، زاخرًا بالدلالات والعبر. هي بالأحرى ـ ولعلّ أحدًا آخر قالها ـ سلسلة من الأيّام والليالي المتباينة على رغم تشابهها الظاهر، وكلّ يوم يحمل زاده من المعرفة والفرح والألم والندم..

أراني في الحيّ الجامعي بالرباط سنة ١٩٧٦، وقد انطلق العام الدراسي بكلّيّة الحقوق، وأعداد الطلبة يفوق المائتيْن ونفسي تغلي كالمرجَل، لأنّ التجربة هذه السنة تنقلني إلى أجواء مركّبة: تحمُّلُ مسؤوليّة النضال في شبيبة الحزب، تأمينُ النجاح في امتحانات نهاية السنة، مدُّ جسور علاقات مع الطالبات «المتفتّحات» أو المفتوحات (وهذا الصنف الأخير هو الأفضل إذا تيسّر). هذا ما يتخايل لي الآن وأنا ممدّد على فراشي أراودُ النوم، فيما استسلم صديقي حفيظ إلى مداعبة الأحلام. اختلفتْ

طريقانا في اختيار التخصّص، لأنّه آثرَ الالتحاق بشعبة الفلسفة، لكنّ السكن جمَعنا مثلما آلفَ بيننا النزوع السياسي.

نستأنف السنة الدراسيّة في مناخ متوتّر لأنّ أصداء اغتيال عمر بنجلون، ديسمبر ١٩٧٥، على يدِ متطرّف ينتمي إلى جماعة أصوليّة، نبَّهَ الجميع إلى ما يحوكُه المخزن من مناورات بعد نجاح مؤتمر الحزب الثالث (يناير ١٩٧٥) وبروز تأثير عمر على جموع الشباب والمناضلين. لا يمكن لمثل هذه الجريمة أن تتمّ دون تواطؤ الأجهزة السرّيّة التي حاولت، قبل أشهُر، استعمال الطرود البريديّة المتفجّرة لتصفية عمر ومعه قياديّون آخرون. التحقيق جارٍ كما يردّد مسؤولو الأمن والقضاء، إلّا أنّ الدلائل تتواتر باتّجاه تواطؤ المخزن مع منفّذي الاغتيال. ردود الفعل عارمة في سخطها، وإصرار المناضلين يبدو أكثر صلابة، وأنا وحفيظ متحمّسان لرفع التحدّي.

في قاعة اجتماع مكتب الشبيبة بحضور ممثّل من قيادة الحزب، أمس، كانت الوجوه مُكفهرّة والحديث متعثّرًا، مُسرفًا في التعميم. طلب حفيظ الكلمة ليقول، بوضوحٍ فاجأني، إنّ اغتيال عمر رسالة واضحة من المخزن إلى الحزب، تشير إلى أنّه إذا كان يسمح باستئناف نشاطنا وإعادة تنظيم صفوفنا، فإنّه يريد في الوقت نفسه أن يتخلّص من الذين يعتبر أنّ «رؤوسهم سْخونة» أكثر من اللازم، وثوريّتهم تتخطّى الخطّ المخزبي الأحمر. وأضاف بأنّ ما توهّمناه من اتّعاظ خصومنا بعد محاولتي الانقلاب العسكري، ما هو إلّا ذرّ للرماد، لأنّ طبيعة المخزن، منذ وُجِدَ،

هي الارتياب في جميع مَنْ لا ينضمّون إلى دائرة زبائنه، والحذر من منافستهم له على السلطة. لهذا، ألحّ حفيظ، لا مناصّ من استحضار فحوى هذه الرسالة ونحن نفكّر في استراتيجيّة المواجهة. . .

تنحنح المسؤول الحزبي أكثر من مرّة وهو يبحث عن مقامٍ صوتي مناسب، ثم أخذ يُفيض في تحليل الظروف الصعبة التي يمرّ بها الحزبُ بعد فترة القمع الشرس، وأنّ علينا ألّا نعطي للجناح المتشدّد في الحكومة، فرصة التصعيد مرّة أخرى، ولا مناصّ من هذه التضحيات الجسيمة ليستمرّ الحزب ويوسع قاعدته، وأفضل استراتيجيّة هي المراهنة على المستقبل وتوعية الجماهير إلخ. . .

في المساء ونحن عائدان إلى الحيّ الجامعي، خيّمَ علينا صمْتُ اليُتم. بدأتُ أستشعر مدى استطالة طريق النضال ومدى قسوة النظام المخزني المتدثّر بأغلفة تمويهيّة. لا شيء يمكن أن يقنع هذه البنيات السلطويّة بالعودة إلى العقل والحوار. هي أجهزة ديْدنها الاستبداد وهدفها الأسمى تبويء كلمة المخزن المكانة الأعلى؛ وكلّ ما عدا ذلك تفاصيل وحِيَل ومناورات. سُلّمان مختلفان من القيم، والذين هم أقرب إلى الحقيقة لا يملكون قوّة كافية تردع المنحرفين. . . لحسن الحظّ أنّ لحظات الشكّ والخوف والتقزّز لا تلازمنا إلى ما لانهاية. ويكفي أن نلتقي الأصدقاء الغاضبين، ونستمع إلى خطاب الكذب الصراح يتدفّق من وسائط الإعلام، لنستعيد قوّة الرفض والتحدّي الكامنة

بالأعماق. شيئًا فشيئًا يتعاظم إيقاع الحركة من جديد: مناشير، اجتماعات، جدال حول المستقبل. تنصَبُّ انتقاداتنا على سياسة الحكومة ـ الدمية التي تنفّذ سياسة ليبراليّة عرجاء، وتضطهد قوى المعارضة، وتوهمُ الناس أنّهم في مملكة سعيدة يزدهر فيها العمرانُ والمضاربات العقاريّة، وتنعَمُ بالحفلات والأعياد، وتقبل بكثافةٍ على حفل الولاء والبيعة السنوي لتأبيد الخضوع ومظاهر التأليه! لعبة مضحكة في نهاية الأمر، لأنّ مَنْ بِيَدِهِمْ السلطة يعلمون أنّ المغرب على بُعْدِ خطوات من أوروبا، والأحداث والأفكار تجتاز الحدود في سهولة، والمقارنة عنصر توعية وتثوير، وما من سبيل في مثل هذا السياق أن يستديم الاستبدادُ حلمه بِغُرفةٍ مغلقة يأسر فيها شعبًا بأكمله ليظلّ مُغمض العينيْن.

لكن ما يشدّني أكثر إلى حومة النضال، هو تدفّق حيوي أحسّه يسري بين الصلب والترائب، ينبض متعطّشًا إلى معانقة الحياة في اتّساعها وصخبها وتجدّدها. قوّة داخليّة، فيزيائيّة قبل كلّ شيء. لا أحسُّني جزءٍ من هذا القاع الصّفصَف الذي تعوي في جنباته كلابُ المخزن الجائعة. هيكلٌ لا تملؤه سوى رغائب النهب والإهانة والفخفخة البلهاء. كلّ كياني يتنسّم رياح الأصقاع التي تحرّر الحواسّ والعقل وتُمهّد للآتي المفتوح على احتمالات الحلم... لأقُلْ إنّ الانخراط في مشروع جماعي لا يُلغي ذلك الحيّز الذاتي الذي يحمله كلّ واحد في دخيلته ويتّكئ عليه ليُقيمَ توازنًا ضروريًّا بين التاريخ الشخصي والتاريخ العامّ.

لم يكن مجرى علاقتنا، أنا وحفيظ، بالطالبات سالكًا بالقدر

الذي تصوّرنَاهُ، لأنّ بحثنا عن صداقة مفتوحة بدون عواقب، سرعان ما اصطدم بِكيانٍ حُرّ، واعٍ، يضع في الحسبان أفق العلاقة واستعداد النفس والجسد للتجاوُب مع رغبة الآخر. وبالنسبة إلينا، نتبيّنُ الآن كأنّنا قرّرنا أن تكون علاقتنا بالمرأة خالية من الارتباط الجدّي، لأنّ وضْعنا العائلي وانخراطنا في السياسة يقضيان بتأجيل مشروع الحياة الخاصّة. نُلامس الموضوع في حذر ونلجأ إلى حُجج مُراوغة. لكن حيويّة الشباب وقوّة الغريزة، ورياح «التحرّر» تُقنع فئات واسعة من الطلّاب والطالبات بأنّ حقوق الجسد ولُعبة العواطف العابرة لا تقبلُ التأجيل، والإنسان لا يعيش شبابه سوى مرّة واحدة، وتقاليد العفّة والتنسُّك لم تعد تناسب عصرنا، وكلّ علاقة تجد الحلّ الملائم: حججُ الإقناع في هذا المجال أكثر من أن تحصى!

غير أنّ ما بدا لنا جديدًا في هذه العلاقات، هو التكافؤ والحضور المتكامل بين الجسد والعواطف والعقل. لا مجال مع الطالبات لاختصار المرأة في مجرّد قدرتها على إثارة الغريزة. من ثم وجدتُني أعيش تجربة مختلفة، تقتضي منّي جهدًا في التفاعل مع طالبات أستشعرُ انجذابًا إليهنّ. أحسّ أنّني أستنفرُ كلّ ما أتوفّر عليه من إمكانات الفَتْنِ والاستمالة والإقناع لأتوصّل إلى لحظات لا تغيب عن متعتها نشوةُ العقل والاكتشاف. وأدرك الآن، أنّنا لا نستطيع أن نضع حدودًا مُسطّرة، مُسبقة، لعلاقتنا بالجنس الآخر. لكن تناقض الرغائب مع الشروط المُتاحة يدفعنا إلى ردود فعل لا تستجيب دومًا لِمَا هو ألصقُ بالنفس.

أطلُّ الآن على السنة الرابعة والأخيرة بكلّيّة الحقوق. التوازُن قائم بين نشطي السياسي والتحصيل الدراسي، والعلائق المفتوحة لا تخلو من مفاجآت دراميّة... المُستجدّ في هذه السنة هو التقائي خلال عطلة الصيف بـ «لبنى»، ابنة أحد أصدقاء أبي المُوسرين. هي أيضًا تدرس الحقوق بكلّيّة فاس، وسبَقَ أن تعرّفتُ عليها في إحدى المناسبات العائليّة وأنا تلميذ بالمدرسة الإعداديّة. بشَرةٌ بيضاء، عينان زرقاوان واسعتان، وقوام مُتناسق متدثّر بفستان نبيذيّ غامق يزيد من مفعول العينين المُقتحمتيْن. هي توجّه إليّ عتابًا مصحوبًا بابتسامة متواطئة، وأنا أحاول أن أخفّف من وطأة الهجوم، مُسائلاً مع نفسي كيف تغافلتُ عن لبنى ولم أخُض غمارها وهي الجميلة الجريئة الواثقة من نفسها ومستقبلها؟ يحدث هذا كثيرًا إذ نُهمل ما هو قريب من مرمى اليدِ والبصر. أخذتُ أتدارك الموقف مُقترحًا عليها أن نتعشّى خلال الأسبوع قبل مغادرتي فاس، فبَادرتْ إلى القول بأنّها هي التي تدعوني إلى مطعم في الضاحية وأنّها ستنتظرني بسيّارتها في الغد. سارت الأمور في سلاسة نبّهتني إلى مدى إغفالي الحركة الدائمة المغيّرة للأشياء والوعي والسلوك، على رغم ما يبدو لنا من ثبات واستقرار. لبنى التي كنتُ أصنّفها في خانة البورجوازيّة المحافظة، المنتظرة عريسًا «قدّ المقام»، هي غير ذلك لأنّها تعيش بتلقائيّةٍ حياتها الجامعيّة وتربط علاقات، وتحضر اجتماعات الاحتجاج، وتشارك في نشاط الطلبة. بلْ إنّ لغتها تحمل بصمات الجرأة وخشونة الواقع. وفاجأتني بسؤالها: «واش طالبات الرباط متهليينْ فيك؟ ربّما هم اللي مْنسيينك فينا؟». وسرعان ما انفتح الطريق

أمام تبادل التعليقات الضاحكة، وتلامُس الأيدي ثم الانتقال إلى «نعيم من القُبَل» داخل السيّارة.

مضت الآن سنتان منذ عرفتُ لبنى. حصلنا معًا على إجازة الحقوق في السنة الماضية، ومع ذلك لم تستقرّ علاقتنا على أفق مشترك. في الأشهر الأولى، انتظمت الزيارات بيننا كلّ أسبوع تأتي هي مرّة إلى الرباط وأزورها في فاس. عشنا عبْر التعاشق واستغوار لذائذ الجسد لحظاتٍ جدّدتْ خبرتي ومشاعري وجعلتني على حافّة عذاب الحبّ والتعلُّق. وأنا أخوض غمار لبنى وأتذوّق مفاتنها وتعبيرها المحموم عن انفعالات جسدها، أجدُ أنّ هذا هو الأمر الطبيعي والضروري لاكتمال وجودنا؛ وحينما أنفرد بنفسي وأنا بعيد عنها، أتساءل عمّا إذا لم تكن حرّيّة جسدِ لبنى وعلاقاتها المفتوحة تتخطّى الحدود. أيّ حدود؟ أجدُني في صلب المفارقة: أنا المتعطّش إلى التحرّر في كلّ المجالات ما أزال أتعثّر أمام مسألة امتلاك العشيقة والزوجة ووضعها «تحت السيطرة التامّة» قبل اتّخاذ قرار العيش سويّة!!!

فاتحتُ صديقي حفيظ في الحيرة التي تستبدّ بي، فأجابني بأنّني لستُ الوحيد الممزّق لأنّ المحيط الذي نعيش فيه تبتلعه تقاليد ماضويّة، وقوّة الدفع باتّجاه التحرّر المتكامل ضئيلة، من ثم تجلّيات هذه الشيزوفرينيّة الموروثة...

حينَ سألتُ لبنى عن مصير علاقتنا، ردّتْ في هدوء بأنّ الوقت لم يحنْ بعد لطرح هذا السؤال، والأهمّ هو أن يوطد كلّ واحد منّا موضعه في مجال المحاماة، ولا شكّ أنّ التدريب

سيأخذ زمنًا قبل أن نُثبت أقدامنا في ساحة سباقٍ يتعاظمُ عدد مُرتاديها. ما يهمّها بالدرجة الأولى، هو أن تحقّق استقلالها المادّي فلا تعود بحاجة إلى أن ينفق عليها والدها. أمّا الزواج أو الارتباط فيأتي لاحِقًا: «نحن معًا بدأنا التدريب منذ أشهر، أنت في الرباط وأنا في فاس، وها كلّ منّا يتعرّف على الآخر، ولا داعي للتفكير في القفص الذهبي. أم أنّك ترغبُ في ممارسة دوْر السجّان منذ الآن؟».

بين جدّ وهزل، تتمكّن لبنى من الإبقاء على علاقتنا في منطقة المؤقّت الدائم؛ بينما أنا منصرف بكلّ قواي لإرضاء المحامي الكبير الذي قبِلَ أن أتدرّب في مكتبه، ويخصُّني بالرعاية والتوجيه مُلوّحًا لي بأنّني أستطيع الانتساب إلى مكتبه بكيفيّة دائمة. هي صدفة نادرة جعلتني أتعرّف على الأستاذ توفيق الصادقي في حفل زواج أختِ أحد الأصدقاء بالرباط، وكنتُ حديث عهد بالتخرُّج فوجدتها فرصة لاستفساره عن عالم المحاماة ومسالك المهنة. ويظهر أنّه توسّم في شخصيّتي ما يجعلني صالحًا لأن أكون محاميًا فعرض عليّ قضاء فترة التدريب بمكتبه.

الأستاذ الصادقي ينعت نفسه بالمخضرم لأنّه كوّنَ نفسه خلال فترة الحماية الفرنسيّة، وتشبّع بالعقلانيّة واكتسب تقاليد المحاماة على يد فرنسي ليبرالي تعاطفَ مع مطالب المغرب في الحرّيّة والاستقلال. قال لي يومًا إنّه كان يتمنّى أن يلتحق به ابنه عبد الرفيع في مهنة المحاماة إلّا أنّه آثر أن يخوض غمار التجارة، وابنته فدوى اختارت طريقًا آخر بفرنسا. تعاطُفٌ وتفاهُم يسري

بيننا على رغم أنّه غير مقتنع بدور الأحزاب. يعرف انتمائي ولا يعارض أن أتطوّع للدفاع عن المناضلين السياسيين الذين تتوالى محاكماتهم طوال السنة وكأنّها جزء من طقوسِ أزمنة الرصاص التي لا تقبل أن يخفت صوتُ الاتّهام الذي يلاحق المواطنين في كلّ حين.

منذ أسبوع وأنا منهمك في الدفاع عن مجموعة من النقابيين والسياسيين الذين اعتقلوا بعد إضرابات ١٩٨١، وما آلت إليه من اختبارات القوة بين الحكومة وتنظيمات اليسار. وفوجئتُ بصديقي حفيظ ضمن المعتقلين لأنّه منذ تعيينه أستاذًا بإحدى ثانويّات الدار البيضاء، انخرط في العمل السياسي بانتظام وتقلّصتْ لقاءاتنا وأصبح الاتّصال الهاتفي هو الرابط المحافظ على صداقتنا. كان حفيظ أصغر المعتقلين في هذه المجموعة، إلّا أنّني وجدتُه رائق المزاج يحلّل الأحداث، كما عهدتُه، بطريقة متأنّية دون تساهل أو مُهادنة. قال لي قبل أن تبدأ جلسة هُذا الصباح: «حملة الاعتقالات وما صاحبها من عنف هي إشارة من المخزن إلى أنّه لن يسمح لقوى المعارضة أن تستعيد صوتها. سندفع الثمن بضعَ سنوات من عمرنا ثم نخرج لنستأنف دورنا في تمثيليّة يُخرجها المخزن».

على رغم المرافعات المسنودة بالحجج القانونيّة التي هيّأناها في لجنة الدفاع، موضحين أنّ المعتقلين كانوا يمارسون حقًّا مُثبتًا في الدستور، فإنّ الأحكام صدرتْ متراوحة بين سنتين وأربع سنوات، ما يؤكّد الطابع التأديبي، الزجري للمحاكمة. دأبتُ على

زيارة حفيظ مرّة في الأسبوع، أمُدّه بالكتب والصحف والملابس التي يحتاجها، واصلاً بينه وبين أسرته في فاس. وعند كلّ لقاء، يبدو لي حفيظ مُبحرًا في سماوات التأمّل ومراجعة المسار الذي قطعه على طريق النضال. يسألني عن أوضاع الحزب فأخبره بأنّ أجهزة التنظيم تتحرّك ببطء والناس يميلون أكثر إلى التفرّج على بهلوانيّات الحكومة وتصريحاتها المتلاشية كأنّها ضربات سيفٍ في الماء؛ واستعدادات الحزب للمؤتمر الرابع في سنة ١٩٨٤ تنطلق على استحياء، لكنّ التوجّه الغالب هو أن يشتمل التقرير المذهبي على تحليل مفصّل يحلّل أزمة المجتمع المغربي السائر بخطوات حثيثة نحو الباب المسدود نتيجة لهذه السياسة التي تُكرّس غنى الأثرياء ولا تقدّم شيئًا لفئات المستضعفين. يهزّ حفيظ رأسه ويصمت فترة مديدة. نُعاود الحديث فيقول لي إنّ السجن يمنعه من أن يحضر المؤتمر، لذلك يريد أن يشرح لي وجهة نظره، فقد أقتنع بها وأتولّى طرحها على اللجنة السياسيّة. بعد قليل، أخرج ورقة من جيْب سترته وناوَلني إيّاها. ورقة مكتوبة بخطّ دقيق ومن جهة واحدة. فردْتُها وقرأت:

«الإخوة المؤتمرون

ظروف قاهرة تحولُ بيني والمشاركة في المؤتمر الرابع الذي نعلّق عليه جميعًا أملَ الوصول إلى رسم معالم واضحة للمستقبل، سواء ما يتّصل بتقوية التنظيم وتوسيع قاعدة المنخرطين، أو تحديد أفق التغيير الملموس لسياسة المغرب في سياق يمور بالتحوّلات والأطروحات المتناسل. وعلى رغم أنّ انتمائي لا يتعدّى أربع عشرة سنة، منذ كنت تلميذًا في المرحلة الإعداديّة، فأنا أزعمُ أنّني

مستوعب لموقع الحزب وتاريخه وتمثيليّته الرمزيّة في خارطة النضال والتضحية. . . أنا لا أشكّ في أنّ الاختيار الاشتراكي الذي بلوّره الحزب منذ الانفصال عن حزب الاستقلال في ١٩٥٩، هو توجُّه فرضَ نفسه بحُكم تعارُض مصالح المخزن وفئاته المستفيدة مع تطلّعات الأغلبيّة التي كافحتْ من أجل إنهاء الحماية وبناء مجتمع الكفاية والعدالة. وعضّدَ هذا التوجُّه أنّ الصراع على المستوى الدولي، في ظلّ الحرب الباردة، كان يشطر العالم إلى قوى رأسماليّة وأخرى اشتراكيّة. لنْ أتوقّف هنا عند الالتباسات الكثيرة التي كانت تحفُّ هذا التمييز بين الاتّجاهيْن؛ لأنّ ما يهمّني قبل كلّ شيء، هو التساؤل عن مدى تلاؤم انتمائنا إلى الحركة الاشتراكيّة العالميّة الآن، مع سياق بلادنا الداخلي الذي يضع عقبات أمام توسيع المنخرطين وخلق تيّار شعبيّ غالب، يتيح لنا أن نضغط باتّجاه التغيير المنشود.

أنا أعلم أن القمع الشرس حَدّ التوحّش، هو في طليعة أسباب انحصار امتدادات الحزب، وأنّ المخزن لم يُبدلْ من جوهره سوى بعض المظاهر الطفيفة، وهو لا يتورّع عن التعاون مع الشيطان في سبيل تأبيد حُكمه مهما كلّف ذلك من تنازل أمام الرأسمال العالمي، غير مُبالٍ بنهب خيرات البلاد. . . أضع كلّ ذلك في الاعتبار، إلّا أنّ المفارقة التي تشغلني هي عدم وعينا لما نمثّله حقيقة ضمن خارطة المجتمع الآن، لأنّني أجد أنّ المُنضوين والمتعاطفين معنا لا يُشكّلون عصب الإنتاج ولا يمثّلون الفئات القادرة على تطبيق الاشتراكيّة. من ثم أعتبر أنّنا أقربُ إلى خانة الاشتراكيّة الديموقراطيّة التي تتغيّا الإصلاح سبيلاً لتغيير ميزان

القوى، ولسنا متوفّرين على شروط الاشتراكيّة الثوريّة التي تُبشّر بها أدبيّاتنا. بلْ أنتم تعلمون أنّ هذا الالتباس هو ما استظلّ به إخوة لنا مناضلون ليبرّروا تنظيماتهم الانقلابيّة بِتحالُفٍ مع عسكريين في الجيش الملكي. وها قد مضى ما يقرب من ثلاثين سنة على الاستقلال، ونحن مشدودون إلى هذا التصارع القاحل بين مخزن يعانق الاستبداد إلى آخر رمق، وقوى وطنيّة اختارتْ، من يأسها، أسلوب الانقلاب وصولاً إلى السلطة. ويخيّل إليّ أنّ أغلبيّة أعضاء الحزب الآن، يتشبّثون، وسط هذه الأعاصير، بالديموقراطيّة سبيلاً إلى إخراج البلاد من مزالق الحكم الفردي وتجنيبها نظامَ السلطة المُنزّلة بالمظلّات من فوْق. لأجل ذلك أقترح تأكيد هذا التوجّه الغالب داخل منظّمتنا.

لكن ما يدعو أكثر إلى توضيح هويّتنا السياسيّة، هو أنّ ممثّلي الاشتراكيّة العالميّة، خاصّة في أوروبا، بدأوا يستندون إلى الواقع بجميع مكوّناته المعقّدة، بدلاً من المثل العليا المجرّدة. لديْنا نموذج واضح تعيشه فرنسا في هذه السنة بالذات (١٩٨٣)، ولمْ يمض على فوْز الحزب الاشتراكي برئاسة الجمهوريّة سوى سنتيْن. وها ميتيران يتراجع عن وعود البرنامج المشترك الذي فازَ اليسار على أساسه، مُتخلّيًا عن مبدأ التأميم وسياسة الإنعاش بواسطة الاستهلاك، ليلتحق بحظيرة التقشّف. لم يتردّد في الاستجابة لمقتضيات الواقع وما تسمح به من إمكانات التحقّق. لذلك لا يجوز لنا نحن، أن نُغرّر بالمواطنين من خلال الإيهام بأنّنا قادرون على القفز بهم إلى جنّة الاشتراكيّة في ظلّ دولة العناية الإلٰهيّة.

والأكثر إلحاحًا في نظري، هو أنّ تأكيدنا على الاشتراكيّة

الديموقراطيّة سيُطابق أكثر مقاصدنا الإصلاحيّة التي يتيحها الواقع، كما سيضع حدًّا فاصلاً بين المناضلين الانقلابيين والديموقراطيين. وأنتم تعلمون أنّ عملنا وقيادتنا مرتبطان بوجودنا داخل الوطن، وتغيير اختيارنا وخطابنا صوْبَ هذا الاتّجاه هو ما سيشرّع الأبواب أمام فئات الشعب الراغبة في الإصلاح وانتزاع الديموقراطيّة سِلميًّا.

أعتذر عن هذا الاندفاع في طرح مسألة هُويّة الحزب، لكن خُلوَة السجن شجّعتْني على صياغة وجهة نظري هذه صياغة متعجّلة قد يُقابلها الكثيرون بالاستنكار. وكم كان بودّي أن أستمع مباشرة إلى ردود أفعالكم وأتعلّم من الحوار الذي ستثيره مختلف التحليلات المواكبة لمؤتمر حزبنا الرابع».

حفيظ السدراتي

لم تفاجئني مقترحات حفيظ الواردة في ورقته، إذ طالما ناقشْنا العلاقة بين القوى السياسيّة الحزبيّة والأهداف التي نصبو إلى تحقيقها. كان حفيظ يتوقّف كثيرًا عند الانفصال داخل الحزب سنة ١٩٥٩، مُلاحظًا أنّ التصنيف الاجتماعي والمستوى الإيديولوجي لدى المنتمين إلى حزب الاستقلال ولدى الجناح المنفصل لا يختلفان في العمق، والهدف المشترك بينهما يتمثّل في وضع حدّ لهيْمنة المخزن وقيمه السياسيّة والسلوكيّة، من أجل إرساء دعائم ديموقراطيّة... ويستدلّ حفيظ على صحّة تحليله بعودةِ الحزبيْن إلى نوع من الالتحام، سنة ١٩٧٠، بإعلانهما عن كتلة وطنيّة تواجه التدهور المتسارع. في رأيه، قبل تحديد خطّة

المستقبل، لا مناصّ من مواجهة العوائق التي تفرض علينا العيش في الماضي. بلْ كان يذهب إلى أبعد من ذلك، متسائلاً عمّا إذا لم يكن القصر قد لعب دورًا في تعجيل الانشقاق داخل «الحزب العتيد».

استطعتُ، إذن، أنا ومجموعة من الرفاق، خلال انعقاد المؤتمر الرابع هذا الأسبوع، من أن نعرض مضمون ورقة حفيظ، في وصفها وجهة نظر تسائل هويّة الحزب وتتوخّى الوضوح والإقلاع عن عادة المناقشة في غُرَفٍ مغلقة بين القياديين لكي نضعَ حدًّا لثنائيّة «الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، ونبتعد عن التصنيفات الجاهزة التي تميّز بين المناضلين «الثوريين» وَ«المُعتدلين»... أخذ النقاش وقتًا طويلاً وتشعّبت الآراء، إلّا أنّ الاتّجاه الغالب مالَ إلى تأجيل إعادة النظر في تدقيق الهويّة، خاصّة وأنّ المواجهة مع المخزن وتفَاقُم أزمنة الرصاص سيوحيان للرأي العامّ أنّ هناك تراجُعًا عن اختياراتنا الثوريّة وتنكُّرًا لمبادئ حركة التحرير الشعبيّة التي يُعتبَر الحزبُ امتدادًا لها...

استمع إليّ حفيظ بإمعانٍ وأنا أنقل إليه مناخ الجدل الذي دار في لجنة الشؤون السياسيّة انطلاقًا من ورقته. بعد فترة صمتٍ جاء تعليقه مُقتضبًا، إذ لاحَظَ أنّ الظروف الراهنة قد لا تكون ملائمة لمثل هذا الحسْم، إلّا أنّه يستشعر أنّ مرحلة تاريخيّة تنتهي وأخرى تُعلن عن ميلادها، حاملة بذورَ تصوّراتٍ وأدوات عمل مُغايرة، غير أنّ الشروط لم تنضج بعد لبروز قوى تنغرس في صلب التحوّل البادئ، وتدافع عن تحليل مُستجدّ يُراعي دواعي التغيير

ويُجاوز الثنائيّة المعطّلة لرأبِ الصدع. أضافَ، بعد قليل، إنّ علينا أن ننتظر، وإنّه هو قد قرّر ألّا يستأنف النضال، بعد خروجه من السجن، وسيكتفي بالمراقبة والتحليل اللذيْن طالما تعذّرا عليه خلال انغماره في دوّامة الفعل.

أوّل أمس، وأنا عائد من زيارة السجن، باغَتَتْني تلك اللحظة المُثبطة التي تجعلني أسير مُفرَغًا من شهوة التحدّي والإقبال على الحياة. كأنّني أدورُ معصوبَ العينيْن حول طاحونةِ ماءٍ ينسكب ما أضُخُّهُ منها في جردلٍ مثقوب. وعلى شاشة ذاكرتي تتعاقبُ مشاهد حياتي اليوميّة في الأشهُر الأخيرة. وأظنّ أنّ كلام حفيظ نبّهَ صورًا معيّنة من غفْوَتها. لم يكن مخطئًا في تحليله لأنّني أعيش علاقات مفتوحة مع زملائي المحامين المُستقلّين أو المنتمين إلى أحزاب حكوميّة أو معارضة. نتبادل الزيارات والدعوات لجلساتِ الشراب والعشاء، نتحدّث في الأوضاع القائمة ونلجأ إلى الغمْز واللمْز والانتقادات، لكنّنا نحسّ بنوْعٍ من التكامُل على رغم اختلاف انتمائنا السياسي. أشبَه ما نكُون بطبقة واحدة لها تلاوينُ لا تخدش عناصر اللوحة المؤتلفَة في مُجملها. أعي ذلك جيّدًا، لكنّني خلافا لحفيظ، لا أستطيع أن أعلّق نضالي أو انتمائي في انتظار أن تتّضح معالمُ الصورة. أحسُّني ناقصًا من دون سمةِ الانتماء المعلّقة على جبيني والتي تمنحني جزء من هُويّتي المُختلطة المعالم. لعلّ فرديَّتي الجامحة تحتاج إلى هذا الارتباط الغيْري المستجيب لمشاعر تخلّقَتْ بأعماقي منذ الطفولة الباكرة.

في الآن نفسه، ينتابُني الضيْق كلّما استحضرتُ علاقتي

بلُبْنى: أشتاقُ إليها وإلى خُلوتنا فوق الفراش ومناجاتنا الحميمة، وتعليقاتنا المرحَة بعد إشباع جوع الجسديْن. لكنّني لم أعدْ أحتمل تشبّثها بأن تظلّ علاقتنا متحرّرة من أفقٍ ترسو عليه. «الأيّام ممتدّة أمامنا، والعجلة من الشيطان» كانت تردّد ضاحكة باستمرار. وهذا الموقف الملتبس يجعلني أتملّص، من حين لآخر، من لقائنا الأسبوعي. ثم أحسُّ لهَبَها ساريًا في عروقي فأعاوِدُ الاتّصال لأجدها فاتحة ذراعيْها دون مُماحكةٍ حول أسباب غيابي لفترةٍ قد تُطاول ثلاثة أسابيع. أصبحتْ لبنى، على رغم تعلّقي بها، حالة تستفزّني وتُضاعف قلقي.

في ما يشبه الومضَ، ذات مساء، مطلع ١٩٨٦، وأنا جالس وحدي في شقّتي بالرباط أشربُ وأفكّر في المستقبل، قرّرتُ أن أتزوّج من امرأة تُطاوعُني وتقف إلى جانبي لأحوز ثروة أسعد بها أسرتي الفقيرة، وتتيح لي أن أبنيَ بيتًا وأنجب أطفالاً. كأنّما انتبهتُ لأوّل مرّة، أنّ الحياة تجري ولا يمكنني أن أعيشها مرّتيْن، وأنّ الحظّ يضحك لي الآن، وعليّ أن أغتنم الفرصة لأستلم مكتب المحاماة بالتشارك مع الأستاذ الصادقي.

اتّصلتُ بأمّي في فاس وطلبتُ منها أن تختار لي فتاة تناسبني. ضحكتْ وهي تذكّرني بأنّ «أولاد اليوم» عليهم أن يختاروا بأنفسهم. لكنّني ألححتُ عليها فأخذتْ تستعرض معي أسماء بنات لهنّ قرابة بعائلتنا، إلى أن استقرّ الرأيُ على سميرة التي تعمل سكرتيرة بمحكمة الاستئناف في فاس، وتنتمي إلى عائلة تحترم الأصول وتنفتح على العصر بخطوات موزونة. بنت

بَحْياها، قالتْ أمّي. دبّرتْ لي لقاء مع سميرة، فوجدتُها جميلة، ناضجة في تفكيرها. كان حديثي معها مُغرقًا في العموميّات، إلّا أنّني أقنعتُ نفسي بأنّها هي التي أحتاج إليها لتحقيق ما أصبح يستولي على اهتمامي. كأنّما دخلتُ حلبة سباقٍ وعليّ أن أصِل إلى الهدف في أقرب فرصة. كان حفل الزواج بسيطًا أقمناهُ في بيتٍ يؤجّر للأعراس، حضرهُ الأستاذ الصادقي الذي هنّئني على مبادرة الزواج الضامن للاستقرار، والذي يجعله حسب تعبيره، مطمئنًّا على مستقبل مكتب المحاماة. أضاف مبتسمًا: «بعد ثلاثين سنة من العمر تفقِدُ العزوبة طعمها».

لمْ أخبر لبنى بزواجي ولم أجرؤ على وداعها، وأحسستُ بنوع من الخِسّة والجبن، كأنّني أهرب من مواجهةٍ أخمّنُ أنّني منهزم فيها. هي، اكتفتْ بإرسال س.م.س تقول فيها على لسان الأغنية «أروح لمِنْ؟ وأقولْ يا مين ينصفني منك؟».

كنتُ متهيّبًا قبل اتّخاذ قرار الزواج، لكنّني الآن وقد مرّت سنة، أجدُ أنّ كلّ شيء اندرج في خانةِ العادي والمألوف. مشدود أكثر إلى مرحلة حياتي الجديدة، في انتظار المولود الأوّل. ما أزال مواظبًا على حضور اجتماعات خليّة المحامين، مُساهمًا في الدفاع عن المعتقلين السياسيين، مُتآلفًا مع المناخ العامّ المُتجهّم على رغم اكتظاظ شاشة التلفزيون بمشاهد التدشينات والخُطَب الواعدة بمشاريع الرخاء والازدهار. وُعودٌ تتكاثر في كلّ عيد شباب ملكيّ يهلّ علينا، لتنسخها وعود أخرى في أعياد تالية، يبشّروننا مرّة بأنّ هذه السنة ستعرف توقيفًا للهجرة من القرية إلى

المدينة، ويعِدوننا مرّة أخرى بإصلاح التعليم، وفي عيد سابق كان العزم معقودًا على إصلاح العدالة، وكلّ عيد يُلغي وعودَ الأعياد السالفة ويُنسينا إيّاها...

زرتُ هذا الأسبوع صديقي حفيظ في الدار البيضاء بعد خروجه من السجن. وكانت مناسبة لاستعادة الماضي واستحضار الأوضاع اللزجة التي يُستعاض فيها بالخطب والوعود عن الفعل والتنفيذ: وسيلة يلجأ إليها الحكم الفرديّ لربح الوقت. علّقَ حفيظ على ما يعيشه المغرب منذ عقديْن، بأنّ المخزن وقد استأثر بالسلطة، باتَ يظنّ أنّ الاحتفاظ بها سهل خاصّة وأنّ وسائل المراقبة وأجهزة القمع غدتْ جدّ مُتقدّمة، ويكفيه أن يُناور ويشتري الذمم ليحقّق الاستمرار في ظلّ شرعيّة موروثة. إلّا أنّ هذه، يضيف، ليست محجّة بيضاء، بلْ عَمَاءٌ يحجب ما تحمله الرياح الأربع من تمرّد وغضب ورفضٍ للاستبداد... لا تخلو كلمات حفيظ من مرارة وشجَن، وهذا ما جعله يقرّر استئناف الحياة من موقع التأمّل وتحليل الأوضاع، وتسجيل ما يعِنّ له من خواطر. قال لي في نهاية اللقاء مُمازحًا: «أنتظر أن تبحث لي عن عروس جميلة، سلسة القياد، ساهلة ماهْلة، مثل سميرة»!

خلال الأشهر الأخيرة، كثُر الحديث عن استقواء التنظيمات الأصوليّة المُتدثّرة بخطابٍ إسلاميّ يدعو إلى تقويم اعوجاج العقيدة وتطبيق الشريعة لوضع حدّ للسّفَهِ، وإنصاف الناس من ظلم الحاكمين... كانت البذور موجودة منذ ظهر كتاب «الإسلام أو الطوفان: رسالة إلى الحسن الثاني» (١٩٧٤)، في طبعة سرّيّة تمّ

تداولها تحت المعاطف. ومنذ ذاك، اتّسعتْ دائرةُ المُنضوين تحت دائرة «الإسلام هو الحلّ»، وأنا شخصيًّا ألحظ تعاظمَ هذه الحركة من عدد المحاكمات التي يُتّهَمُ فيها شبّان بـ «التشويش على عقيدة المؤمنين»، من غير أن تحتوي ملفّاتهم على عناصر ملموسة تُدينهم. مِنْ قبْل، انشغلت الشرطة السرِّيّة بمتابعة مناضلي الأحزاب اليساريّة والتقدميّة وأغفلتْ تنظيمات الأصوليين لأنّها كانت تعتمد على العيون المبثوثة داخلها؛ لكنّ المَدّ تكاثر والتفقير أسعف الواعدين بجنّة السماء، فتقاطرتْ الجموع على تنظيماتهم. حَبْلُ القمع قصير، والغربال لا يحجب أشعّة الوعي.

قال حفيظ معقّبًا على ما حكيتُه عن استشراء الأصوليين: صدّعتْ وسائل الإعلام رؤوسنا وهي تمتدح استثنائيّة المغرب قياسًا إلى بقيّة الأقطار الشقيقة، من حيث الحصانة الدينيّة التي يتمتّع بها بفضل المذهب المالكي وإمارة المؤمنين. لكنّها نسيَتْ أنّ الشعارات والتباهي لا يقفان سدًّا أمام الفقر والظلم وانتهاك الحقوق. ما من استثنائيّة تستطيع أن تصُدّ سيرورة التاريخ وتحوّلاته. نحنُ، مثل بقيّة العرب الأشقّاء: أضعْنا الفرصَ وفرّط راعينا في إرساء ديموقراطيّة الحكم، فانتشرتْ إيديولوجيا ماضويّة، وبسطت الأصوليّة هيمنتها، ولا مناصّ من أن نتكبّد تجربة التقهقر نحو عصر «ذهبيّ» تُطرّزه أوهامُ المهووسين بالجنّة.

أحاول، عبثًا، أن أمسك بالدوافع التي جعلتني أنزلق إلى علاقة خارج إطار الزوجيّة، بعد مُضيّ سنتيْن على ارتباطي بسميرة وسنةٍ على ميلاد ابني رابح. كلّ ما يتراءى لي الآن ويملأ شاشة

الذاكرة: صباح مشمس من شهر إبريل، وأنا عائد من المحكمة. أوقَفتُ سيّارتي أمام المكتب وبدأتُ أتمشّى باتّجاه ساحة بيتري عبر شارع آسفي. عند مستوى بُوتيكْ للملابس الأنيقة المستوردة، توقّفتُ لأتطلّع في الواجهة الزجاجيّة إلى أشكال الفساتين والقمصان والتنانير. رفعتُ بصري إلى داخل البوتيك فرأيتُ امرأة في منتصف العمر، تشي ملامحُها بأنّها أجنبيّة؛ وإلى جانبها فتاة سمراء تقترب من الثلاثين، قوامها مُتناسق ونهداها متحفّزان، وعيناها تفيضان بتعبير مرِح يجمع بين الوثوق والتحدّي والجاذبيّة. التقتْ عيوننا من وراء الواجهة فاتّسعتْ ابتسامتُها. حينئذ لم أتردّد في دفع الباب والدخول، مُبديًا اهتمامًا بالفساتين ومستفسرًا عن الأثمان. سرعان ما عرفت من أسئلة جانبيّة، أنّ المحل تملكه السيّدة الإيطاليّة الجالسة وراء المكتب، وأنّ البائعة مغربيّة لها خبرة في إرشاد الحائرين مثلي. هكذا وجدتُني أشتري تنّورة لزوجتي وأدسُّ بطاقتي في يدِ البائعة على أساس أنّنا جيران في الحيّ، وقد تحتاج البوتيك أو العاملة فيه إلى محامٍ يُرشدها. كان تصرّفي يبدو لي عاديًّا، إذ أردتُ أن أبحث عن زبون محتمل وفي الآن نفسه أعطي نموذجًا لحسْنِ الجوار. إلّا أنّ طيف البائعة السمراء ظلّ يلاحقني طوال النهار، لأنّها تمتلك حضورًا كاسحًا يجمع بين التلقائيّة والفتنة والشهوانيّة الواعدة. وجميع تلك الصفات تتدثّر بحضور لا يمكن اختزاله في عنصرٍ جاذبٍ وحيد. قلتُ مع نفسي وأنا أراودُ النوم في نهاية الليل: «امرأة من هذا النوع، مملوءة باطمئنان الجمال الأنثوي، هي قادرة على أن تُلغي لدينا العقلَ والمواضعات والوفاء الزوجي وما لستُ أدري من

الاعتبارات. كلّ شيء يبدو باطلاً أمام بشَرَتها المصقولة مثل قشرة المِشْمِش تتضوّع منها فتنة نابعة من جسدٍ يلغي الماضي والمستقبل...». قلتُ في نفسي أشياء كثيرة أقرب ما تكون إلى الهذيان وأنا أجهد في أن أجعل طيفَها ينثني عن مخدعي.

في الغد، استيقظتُ متأخّرًا عن وقتي المعتاد؛ إلّا أنّ شيئًا لم يتبقّ من استيهامات الأمس. تابعتُ مجرى الأيّام التالية وفق برنامجي المألوف مُوزّعًا بين المكتب والمحكمة واجتماعات الحزب والسهرة أمام التلفزيون إذا اتّسع الوقت. لكن، حدث بعد خمسة أيّام ما لمْ يكن بالحسبان، إذ تلقّيتُ مكالمة في المكتب من بائعة البوتيك التي استفسرتها عن اسمها فقالت ضاحكة «اسمي إيطالي: صوفيا. وأنا سأسمّيك ألبرتو»! يتدفّق كلامها في عفويّة ومرح، وتنتهي المكالمة بالاتّفاق على موعد. شعرتُ في التوّ أنّني اندفعتُ إلى حدّ التهوّر وأنا أقبل خوْضَ هذه المغامرة التي دقتْ بابي، فالرباط مدينة مكشوفة وكاشفة، وأنا رجل معروف لدى فئاتٍ لا بأس بها، وعُمْر الزواج طريّ، فكيف أدبّر الأمر؟

مرَّ عشاؤنا الأوّل، بمطعم على شاطئ الرمال الذهبيّة، في تناغم وانسجام. فاجأتني صوفيا بامتلاكها طاقة حيويّة لا ينفد معينها: تجادل وتناوش، تستفزّني بالأسئلة ذات الخصوصيّة، ثم تنتقل لتحكي عن عائلتها وعلاقتها المميّزة بوالدها، تاجر عاديّات له دكّان غير بعيد عن ساحة الجولان، يحتوي على قطع خشبيّة مزخرفة ومجوهرات من الفضّة، وكراس مزوّقة عتيقة، وتحف

جمعها من كلّ أنحاء المغرب. أبوها يُعزّها ويهديها حليًا بربريًا وصحراويًا نادر المثال... لم تكمل دراستها وآثرت السفر إلى إيطاليا مع ابن صاحبة البوتيك، وبعد ثلاث سنوات من العيش البوهيمي، قرّر العشيق الإيطالي أن يرحل إلى أميركا ليبني مستقبله، وعادت هي إلى الرباط لتُدير المتجر وتتعزّى عن العصفور الطائر بوالدته المتصابية، المحافظة على طقوس الرومان في شقّتها الرحبة بحيّ حسّان. صوفيا لا تأسف على شيء لأنّها ابتلعتْ طعم الحياة الهنيّة (الدوتشي فيتا) خلال سفرتها الطويلة وضربت عرض الحائط بالتقاليد والزواج المرتّب. مزاجها يوجه اختياراتها وسلوكها، إلّا أنّها شغوف بالتعرّف على أصدقاء جدد يضيفون إيقاعًا غير مسبوق إلى حياتها.

هي تحكي وأنا أستمع. لم تصدمني جرأتها فهي مدركة لطبيعة مغامراتها، وإقبالها على الحياة بمثل هذه التلقائيّة والجسارة هو أفضل من تضييع الزمن بالتقسيط في الزواج والولادة وأشغال البيت. وجدتُ صوفيا مقنعة في اختياراتها، منسجمة مع بحثها عن الجنس ومتعة الصداقة المتحرّرة من الحسابات. وأنا لستُ قسّيسًا يُقنع الزائغين بالتوبة، ولا واعظًا يَهْدي مَنْ ضلّ سواء السبيل. أنا رجل متزوّج، ومناضل سياسي لا يطيق الظلم، لكنّني أحسّ في ذات الوقت جوعًا لمْ يُشبَع، وتعطّشًا إلى المُسارّة والبوْح لمْ يُرْوَ، فيما صوفيا هذه التي تجلس أمامي ما من إرادة تستطيع أن تُقاوم فتنتها. لستُ مستعدًّا الآن لأن أتساءل عن سبب فشل الرجال في احترام تعاقُد الزواج، ولا أن أتصوّر الألم الذي سأسبّبُه لزوجتي سميرة لو عرفتْ إقدامي على هذه المغامرة. ما

كان يشغلني بعد العشاء، هو ضمان انتظام لقاءاتي مع صوفيا في مكان لا تَحُومُ حوله الشبهات. فاتحتُها في الأمر ونحن نتبادل القبلات واللمسات والدغدغة داخل السيّارة، ففكّرتْ قليلاً ثم قالت إنّها تُقدّر حرصي على تأمين خلوتنا بكيفيّة تحمي سمعتي كرجل متزوّج، لذلك هي تقترح أن تتمّ اللقاءات بالمكتب نفسه بعد أن ينصرف المتدرّبون والسكرتيرة، وأبقى أنا لأستقبلها في أوّل المساء كزبونةٍ تفضّل أن تزور محاميَها تحت جنح الظلام! فوجئتُ بالاقتراح، إلّا أنّه كان جدّ مُلائم خاصّة وأنّ بالمكتب سريرًا من عهد المحامي مسيو كلود، كان يستريح عليه إذا أحسّ بالتعب. لا بأس، إذًا، من أن يتحوّل السرير من حيّز لإراحة الجسد إلى حلبةٍ لتنشيط غُدد الشهوة ومسالك الإيروس.

كلّ ما سردتُه ليس مهمًّا، لأنّ ما أستحضره بقوّة ولا ينفكُّ يلاحق ذاكرتي، هو جسد صوفيا الباذخ ذو التعاريج والانعطافات المتناغمة، واللون القمحيّ المصقول، والنهدان الإجّاصتان الشامختان، وصوتها المُتهدّج يهمس، كأنّما هي أمام مذبح كنيسة القدّيسة ماريّة: «ألبرتو، زدْني، زدْني، أعطني من ما أعطاك الله»!

مُمدّديْن على السرير أو على سطح المكتب، أو حاملاً إيّاها، مُسندًا ظهرها إلى الجدار، هي تعلوني أو أنا أعلوها دائمًا تكون لحظات لقائنا موصولة الحركة، لحظات لا توصف ولا تستوعبها الكلمات. أعيشها بكلّ زخمها وكأنّ جسدي لمْ يعد ينتمي إلى الأرض، كأنّه ريشة في مرابع الأثير... وحين نستعيد وضعنا الطبيعي متلاصقيْن فوق السرير الضيّق، أغمض عيني

مستعيدًا لقطات الرحلة المحمومة التي حملتْني على أجنحتها إلى عوالمِ مجهولة. في كلّ لقاء مع صوفيا أخرج من جلدي. أحسُّ ارتعاشاتٍ كهربائيّة تضعُني على مبعدة من حياتي المعتادة. أقول مع نفسي «لها جسد من سلالةٍ انقرضتْ، جسد انفَلتَ من محبسه العلويّ وجاء إلى أرض الخانعين القانعين ليُنبّهنا إلى سحر الجمال متواشجًا مع عشق الحياة وكرم العواطف. يحدث هذا في هذه العاصمة الكابيّة، المطمئنة، وأكون أنا، ألبرتو، مَنْ يرتاد جنّة صوفيا ذات الجسد والروح اللذيْن ينِدّان عن الوصف والإحاطة. ويكون الكلام بيننا في غيْر حاجةٍ إلى بلاغة أو تحذلُق، ويكون التواصل مزيجًا من الإشارات واللمسات والابتسامات والمناوشات يجمعها مغناطيس داخلي يحدسُ أنّ هذه المغامرة اللامتوقّعة، تلخّص ما قبْلها وربّما ما بعدها، لأنّ صوفيا وألبرتو ارتادا بتلقائيّة وجسارة منطقةَ الشفافيّة الخالصة، بعيدًا من التملُّك، بعيدًا من الضوضاء، قريبًا من السُكاتِ والحلول في الآخر. حالة عُبور لا تتوقّف ولُهاث مُتنامٍ لاستدامة اللحظات المنفلتة. لُغزيّةُ المتعة أجدها جزء من جوهر الوجود وأسئلته المُحيّرة. ماذا تستطيع أناي في عالم الآخرين؟ وماذا يستطيع الآخر أن يُضيفه إلى ذاتي المُتوحّدة، المُوزّعة بين الأنانيّة والغيْريّة؟».

حالة توزّع غريبة عشتُها طوال سنة مع صوفيا. بعد كلّ لقاء، أتواعَدُ مع نفسي أن أقاوم هذا «الضعف» الذي يجعلني أعيش منفصلاً عن التزاماتي وطقوسي المألوفة. كلمة «ضعف» لا تعبّر عن حقيقة شعوري، لأنّ استجابتي لصوفيا كان اختيارًا واعيًا وسعيًا إلى ما تمنحني إيّاه من تماسك وامتلاء وانتشاء. إلّا أنّ

لقاءاتنا، على جمالها وروعتها، كانت تخلّف لديّ نوعًا من التأنيب إذ أجدُني مُنجرفًا في هيامي، مُتناسيًا وضعيّتي العائليّة وارتباطاتي. سرعان ما أعاهد نفسي أن أتباعد عن صوفيا، لكن يكفي أن أسمع صوتها عبر الهاتف، بِنغمته المترنّحة وكلماته النعسانة، ليستيقظ العفريت الكامن في الشرايين وبين الفخذيْن، والمستبطن تضاريس القلب. أصبح طقسًا لديّ كلّما تواعدتُ مع صوفيا، أن أفرغ ذهني محاولاً أن أعود إلى نقطة الصفر، إلى نقطة مغايرة لما كنتُ مُستغرقًا فيه، حتى أتمكّن من أن أصبح غيري، أغدو ذاتًا أخرى أرتادُها لأعود إلى فضاء داخليّ أكونُ فيه أقرب إلى نفسي السواء. هي عودة تتراءى لي كطوْق نجاةٍ يُنقذني من الضوْضاء التي تبتلعني وتُكبّلني بهديرها المعطّل للحواسّ. أُفرغ، إذًا، ذهني كلّما تواعدتُ مع صوفيا لأتوفّر على حيّز ضئيل أكون فيه أنا غيري، عندما ألتقيها. أصير أنا غيري لأرتقي إلى تدفُّقِ عطائها، ناهلاً من مسرّاتٍ تعتّق الذات من ألجمَتها وتحرّر الحياة من رتابتها. لم أكن بحاجةٍ إلى ما كان يرويه حفيظ عن ديكارتْ القائل بأنّ علينا أن نحدّد استراتيجيّة تُسعفنا على فهْمِ الوجود والامتزاج بالجوهر، والانفصال عمّا هو عابر... مع صوفيا، أعانق الجوهريّ والعرضيّ، العقل والقلب، دون أن أحسّ أنّني أضفي عليها ما لا تمتلكه. وهي لم تكن تخطّط لهذه العلاقة المفتوحة الزاخرة بما لم أكنْ أخمّنُه. صوفيا تلقائيّة ومنسجمة في التفاصيل كما في ذروة لحظات التواصُل. أقول مع نفسي: «يا إلٰهي! مثالُ المرأة التي كنتُ أحلم بها نورانيّة، مسرفة في جمالها المجرّد، يوجد بالقرب منّي. وهيَ الصدفة وراء هذا

اللقاء، وما مِنْ تفسير يمكنه أن يُبدّد هذه الدهشة التي تغمرني». لذلك صمّمتُ أن أعيش التجربة بكلّ ما أملك من اندفاع وصدْقيّةٍ وعطَش. لا يهمُّ ما سيحدث، كما لا تهمّ الصدف التي تنبثق في ما سيأتي من أيّام. أعيش المغامرة وأنا أردّد مقطعًا لشاعر إنجليزي عثرتُ عليه في إحدى الروايات:

«الورودُ انبثقتْ حيث لم تكن

سوى الأشواك

وعلى الأرض البائرة الماحلة

يغنّي النحل.

طريق الشطط تقودُ إلى قصْر الحكمة».

حفظتُ المقطع لأنّني أعجبت بفكرة الشطط الذي يقود إلى الحكمة. وتذكّرتُ ما كان يحدّثني به حفيظ عن نيتشه الذي ينادي بتدمير الأخلاق العتيقة، الوعظيّة، اللاجمة، لتحرير الحياة ممّا يعوقها عن أن تكون حياة... وأظنّ أنّ الشطط، بهذا المعنى، يغدو سبيلاً إلى الحكمة؟

وقد تأتي الحكمة والتعقّل من لدن المحرّض على الشطط، لأنّني فوجئتُ ذات يوم بصوفيا تكلّمني من باريس لتقول لي إنّها قرّرتْ أن تعمل في بلدٍ أوروبي وتمضي أوقات فراغها في السفر عبر أقطار القارّة الواسعة، لأنّ المغرب لا يلائم ما تريد أن تكون عليه حياتها... وعندما عاتبتُها لأنّها لم تستشرني في مشروعها، أجابتْ بأنّ جذوري أنا منغرسة في أرض الوطن، وهي لا تريد

أن تكون عنصر تشويش في حياتي، والأفضل أن أهتمّ بتربية ابني وَبملفّات المُتقاضين. أمّا هي، فقد تعوّدتْ أن تعيش سعادتَها في ما هو مؤقّت ومحظور. وحين تحسّ أنّ الأمر قد يؤول إلى تسميم حياة الآخرين، ترحل بعيدًا باحثة عن سعادة أخرى مؤقّتة... كانت تتكلّم بعفويّة وانشراح، وكأنّ ما تخبرني به من المفروض أن أتوقّعه وآخذه في الاعتبار. فعلاً، صوفيا في منتهى الشفافيّة باطنُها كظاهرها، وأنا الذي عميتُ عن الرؤية الواضحة. تلجلجتُ ثم سألتُها متى ستأتي في زيارة للمغرب، فقالت إنّ ذلك لن يكون قبل سنوات، وإذا جاءت فهي تعرف أين تلقاني. وختمتْ مكالمتها قائلة: ألا تتمنّى لي حظًّا جميلاً؟

طبعًا تمنّيتُ لها التوفيق في ما اختارتْه؛ ودخلتُ في كآبةٍ لازمَتْني عدّة أسابيع، ثم عاودتُ حياتي المعتادة واسترجعتُ اسمي في الحالة المدنيّة «فالح الحمزاوي»، مُتناسيًا اسم ألبرتو الذي اختارته لي صوفيا عاشقةُ إيطاليا المفتونة بالسعادة المحظورة، المؤقّتة.

أستقبل تسعينيّات القرن العشرين وأنا أقترب من سنّ الأربعين. صرتُ أولي اهتمامًا أكبر للمكتب وملفّات الزبائن، خاصّة وأنّ حضور الأستاذ الصادقي أصبح مُتباعدًا، إذ غالبًا ما يكتفي بالهاتف ليستفسر عن سير الأمور وهل أنا بحاجة إلى مشورَته. كلّ شيء على ما يُرام، ودخْلُ المكتب في تزايُدٍ ملحوظ، أتاح لي أن أشتري شقّة للعائلة في فاس وأخرى لأختي الكبيرة التي ساعدتني على متابعة تعليمي.

في واجهة السياسة، عدتُ إلى المواظبة على حضور اجتماعات الحزب والمساهمة في تحليل ما يُطرح من قضايا، معظمها لا يكاد يختلف عمّا ناقشناه في العقد المنصرم. إلّا أنّني لاحظتُ أنّ بعض القياديين يميلون إلى تحليل لا يخلو من تفاؤل، لأنّهم يرون أنّ الهامش الذي كان يتيح للمخزن وأتباعه أن يتحرّكوا ويُناوروا، مُمعنين في الفساد واللامُبالاة، قد ضاق عمّا كان عليه، والأوضاع الاقتصاديّة زادتْ تدهورًا، والضغط الأوروبي والأميركي هو باتّجاهِ فتح «طريق الديموقراطيّة» لإشراك كلّ القوى بما فيها أحزاب المعارضة والحركات الإسلاميّة...

علّقَ حفيظ على ما نقلتُه إليه بأنّ ذلك جائز، لأنّ مُؤخّرة المخزن بدأتْ تنكشف بعد أن جرّب وصفاتٍ متنوّعة لم تُفلح في ستْر الفضائح وسوء التدبير. آخر محاولاته، اللجوء إلى وزراء تكنوقراط تخرّجوا من جامعات أوروبيّة مشهود لها، لكنّهم أيضًا اصطدموا بالسقف المخزبي الأحمر الذي يُحرّم ويحلّل حسب مصالحه المقدّسة!

قلتُ لحفيظ بأنّ ما قاله ملحوظ منذ عقود، إلّا أنّ استفحال الفوارق واقتصاد الريْع، وتعاظُم النهْب، يجعلون السلطة في مهبّ الريح؛ لذلك لا مناصّ من التنازل واقتسام السلطة مع قوى سياسيّة أخرى، لكيْ لا يظلّ المخزن أمام فوْهة المدفع، مسؤولاً وحيدًا عن الخراب... «ربّنا يسمع منك» أجابَ حفيظ. ثم أضاف «لكنّني أميل إلى الاعتقاد أنّ المخزن إذا أعطى بِيدٍ فإنّما ليأخذ باليدِ الأخرى».

أستعيد الآن، ونحن نلِجُ القرن الواحد والعشرين، ما عشتُه خلال العقد الأخير، وبخاصّةٍ ما تتالى من أحداث بعد مناقشتي الأخيرة مع حفيظ، فلا أكادُ أصدّق أنّ كلّ هذا التحوّل السياسي وقَعَ بمثل هذه السلاسة والانفتاح. هي أحكامُ الضرورة، قلتُ مع نفسي، التي تدفع إلى التغيير لتجَنُّبِ المآزق. والإحصائيّات والأرقام الناصعة جعلت الملك يُعلن في خطاب متلفَز وبلهجةٍ مهولة، تراجيديّة، أنّ المغرب مهدّد بسكْتةٍ قلبيّة! على الجميع، إذًا، أن يهبّ لإنقاذ الوطن، لا فرْق بين معارضين ومُناصرين وأصحاب مال. علينا أن نتناسى أزمنة الرصاص، ونهْبَ ثروات الأمّة، واستفحال البؤس والتهميش... وبدأتْ المفاوضات لتُسفر عن فكرة التناوب على الحكومة، لا تداول الحكم. والتناوُب سيكون على ماذا؟ على احتلال كراسي حكومةٍ لا تملك سلطة القرار ولا حقّ المبادرة والتغيير. هذه خطوة ملَكيّة ميمونة، والخيْر أمام، والديموقراطيّة آتية إذا برهنتْ الأحزاب على روح التعاون، وأظهر الشعب الرزانة والتعقّل! الأهمّ والأسبق هو أن تشارك المعارضة في حكومة التناوُب المقترحَة عليها دون اشتراطات، لأنّ الوقت لا يتّسع لمثل هذه التفاصيل خاصّة ونحن مطالبون بوقف النزيف.

أنا لم أستغربْ أن ينبثق مثل هذا الخطاب من داخل الحزب، لأنّ المُستوزرين تعبوا من الانتظار، وزبائن المخزن يتّسع عددهم، ونفوذهم غدا كالأخطبوط، وَهَا إنّ الاعتراف بدور الحزب في الإنقاذ يأتي من أعلى سلطة في البلاد، فلا مجال للتقاعُس أو التملّص، وتضحيات مناضلينا وثقة الناس فينا تُحتّمان

أن نقود التناوب وندفع باتّجاهِ الإصلاح. . . (تذكّرتُ، وأنا أسمع هذا الخطاب من المستوزرين، ما سبق أن اقترحه صديقي حفيظ على مؤتمر الحزب في ١٩٨٤، من منظور إعادة تحديد الهويّة، ولم يجد آذانًا صاغية).

لا بأس. دارت الأيّام وتبدّل المشهد، وعلينا أن نخوض غمار هذه التجربة، لأنّنا لم نُخلَق لنخْلُدَ في المعارضة. كلام معقول. وشُرّعت الأبواب لاختيار ذوي الكفاءة والخبرة، لكن شهيّة مَنْ لا كفاءة لهم انفتحت أيضًا، وبدأ التسابُق نحو الوظائف، وأصبحت الوساطة هي جواز المرور. وقد يكون هذا التهافت طبيعيًّا من منظور بشري، لكن أن يبلغ درجة مضحكة هو ما فاجأ العارفين تاريخَ الحزب في الفترات العصيبة.

ما لاحظتُه ونبّهَني إليه أيضًا حفيظ، هو أنّ الحزب لم ينجح، بعد مرور سنتيْن على التناوب، في إشراك أكثر من ربْع مناضليه في تدبير شؤون الحكومة، بينما بقيَ قسط مهمّ من المنخرطين على الشاطئ يتطلّع إلى ما يجري بين أحزاب غير متجانسة، ويحاول أن يفهم العلاقة الملتبسة مع القصر الملكيّ وديوانه العتيد، وهو مشدوه أمام بلاغة التفاؤل الإرادوي، قبل أن يتحوّل المناصرون إلى متفرّجين غير مبالين بهذا المسلسل الذي آل إلى «محلّك سِرْ»!

لعلّني أبالغ، لأنّ بعض المشاريع التنمويّة صُودِقَ عليها، ونزعة الإصلاح بدأتْ تنشر معجمها، والسكتة القلبيّة تباعَد شبحها مع مجيء ملك جديد يُلوّح بالإصلاح وتقليص الطقوس

والفخفخة... غير أنّ مطلع القرن الواحد والعشرين شهد نوعًا من التقهقر يتجلّى في العودة إلى طقوس المخزن (تقبيل يد الملك، تقديم الهدايا من لدُن الأعيان، إقامة حفل الولاء...) والتخلّي عن «المنهجيّة الديموقراطيّة» بحسب تعبير قيادة الحزب الذي قادَ التناوب التوافُقي ثم وجد نفسه، بعد انتخابات ٢٠٠٢ وعلى رغم تصدُّره في الترتيب، يُبْعَد عن رئاسة الحكومة لصالح أحد خُدماء القصر، نصف تكنوقراط ونصف رجل أعمال!

تساءلتُ آنذاك، هل يكفي أن نبتدع مثل هذه الجُمَل الفضفاضة (خطأ في المنهجيّة الديموقراطيّة) لنحتجّ على إجراء تعسّفي يعود بالبلاد إلى منطقة السكتة والشلل وبرلمانات السيرك؟ توقّع الرأي العامّ، أن ينسحب الحزب من الحكومة عقب تلك الإهانة العلنيّة الصراح، إلّا أنّ فئة المستوزرين والذين ذاقوا البزّولة واستطابوا الكراسي سرعان ما زعموا أنّ الانسحاب هو تخَلٍّ عن برنامج الإنقاذ الذي طرحه الحزب، ومن ثم ضرورة المشاركة في الحكومة الجديدة للسهر على تطبيق ما بدؤوه! مَنْ سيسهر على ماذا؟ وأيّ سلطة يملكها من ينصّبُ نفسه ساهرًا على برنامج تطايَرتْ محتوياته شذر مذر؟

لكن طرافة هذه الوقائع وهزليّتها لا تكتمل إلّا باستحضار ما تعاقب بعدها في نوع من التدحرُج المؤلم. ذلك أنّ الناخبين عرفوا هذه المرّة كيف يعاقبون الأحزاب التي لم تتمسّك بالحدّ الأدنى من المبادئ والشجاعة. وكانت انتخابات ٢٠٠٧ فرصة فقَد فيها الحزب العتيد ثقة جزء كبير من الناخبين، فأخذنا نتوقّع

انسحابه من الحكومة ليُعيد بناء صفوفه ويُجدّد خطابه وتواصله مع الذين راهنوا عليه منذ خمسين سنة. غير أنّ المفاجأة هذه المرّة هي التشبّث بالكراسي ولوْ كانت كراسي مُلحقة «ستروبانتان»، لا تؤثر ولا تغني من جوع! ولم تكن هناك حاجة، هذه المرّة، إلى تبرير البقاء لأنّ حبّ الكرسيّ أعمى الأبصار والكلام المرصّع فقَد المعنى.

كان علينا أن ننتظر نتائج انتخابات ٢٠١١ لِينكشفَ الغطاء بعد فوز حزبٍ له مرجعيّة دينيّة، يخوّله الدستور الجديد أن يرأس الحكومة. وهو دستور وُضِعَ بعد انطلاق حركة شباب ٢٠ فبراير للمطالبة بمحاربة الفساد وإرساء دعائم الديموقراطيّة. استجاب الدستور لبعض المطالب دون أن يضع حدًّا للمَلكيّة التنفيذيّة. فازَ الدستور في الاستفتاء، وأصبح الكُلّ مع التغيير لكيْ لا تنفجر الطنجرة، لكنّ «الثوابت» تظلّ فوق المراجعة والتعديل. مشهد يوحي بخلْطِ الأوراق، لكن سرعان ما تعود الأوضاع إلى سيرتها الأولى مع رتوش خفيف يُلهي ويُسلّي وينفخ في مسالك الكوميديا المُغذّية لشعبويّةٍ لها، على الأقلّ، فضيلة الإضحاك.

عندئذ، أدرك الحزب «العتيد سابقًا» أنْ لا مناصّ من أن يجمع «قلوعه» ويعود إلى المعارضة! أمّا فترة المعارضة هذه التي نحن في بدايتها، فهي مليئة بالطرائف والمفارقات لأنّها تُدشّن عهد التحايُل وتحويل الأحزاب إلى قِطَع غيار، وتجعل العمل السياسي وسيلة للكسب والتزلّف والدفاع عن «الإجماع المُنقذ»! وهي مرحلة تحتاج إلى موهبة كاتب مسرحي مثل موليير، ليلتقط

فيوض الكلام المرصّع وعيّنات السلوكيّات الطرطيفيّة والزعامات «المُحنّكة». . .

قال لي حفيظ بعد أن استمع إلى تأمّلاتي في الأحداث التي نعيشها: «لا تُوتّر أعصابك. ما عشناه خلال العقديْن المنصرميْن يؤكّد أنّ مرحلة انتهتْ من تاريخ الحزب والممارسة السياسيّة، دون أن تبلور معالم الفترة التي غدتْ تتميّز بهيْمنة اللاعبين الأصوليين وتنامي العنف الديني الأعمى، وتحايُل المخزن على امتصاص جُموح التيّارات المتطرّفة وتحجيم هبّةِ الشباب. نحن في زمن البيْنَ بيْن، ومستقبلنا أنا وأنت أصبح وراءنا، والفرصة الآن سانحة لـمَنْ يعرفون توظيف ذلك الماضي لإبقاء أعناقهم وخياشيمهم على سطح الماء».

ما لا أستطيع أن أصوغه في كلمات، مع أنّني أحسّه ملازمًا تفكيري في ما يُشبه الهوس، هو شعوري الطاغي بـ «الخديعة» في تجلّياتٍ مستشرية في أكثر من مجال: انطلاقًا من تجربتي السياسيّة ووصولاً إلى أرخبيل الجنس والحبّ ودلالة الموت في مناخ يلفّه اللونُ الرمادي. كلّما استمعتُ إلى حفيظ وهو يحلّل ما نُعايشه من أحداث أو يعلّق على كسوف إشعاع الحزب وتدحرجه إلى الأسفل، أجد أنّ حججه العقليّة غير مقنعة بما فيه الكفاية، وأظلّ أحوم حول سؤال: ما الذي يجعل وهج الاعتقاد والتضحية من أجل الأفضل يتحوّلان إلى رماد يكسو النفس بعنكبوت الشكّ والمرارة ويدفعنا إلى قبول الأمر الواقع؟ ما الذي يعوق إنسانًا عن الوصول إلى حقيقته التي يُعارك الأيّام والظروف في سبيل

إدراكها؟ هل هي المصالح وقوانين التسوية وصكوك التراضي بين الفاعلين في ساحة السياسة؟ هل هو «تعب المعادن» الذي يجعل الإرادات تضعف وتميل إلى منطق الحلول الوسطى؟ هل هو الزمن وبصمات الشيخوخة اللذان يُبدّدان أوهام الطموح إلى تغيير العالم؟ أم أنّ الأمر لا يعدو كوْنَ كلّ جيل يستنفد طاقته من الحماس والثوريّة، وعليه أن يفسح المجال لأجيال طالعة؟

دائمًا يصعب عليّ أن أخمّن مَنْ هو وراء «الخديعة» التي تسمّم أيّامي وتُفرغُني تدريجًا من اندفاعي الحيوي. يذهب بي الظنُّ إلى أنّ جميع المناضلين يستشعرون، مع تقدّم التجربة، انتقال «مشاريع التغيير الثوري» من سماوات الشعر والتجريد إلى بِطاح النثر والتسابق على النفوذ والسلطة، في ظلّ التباساتٍ يُغذّيها اللجوء الموْسمي إلى استحضار «أصول» تأسيس الحزب وغلائل التخييل البدئيّة المقترنة بتحقيق الأمجاد.

وعندما أستعرض حياتي ضمن مجموع مكوّناتها، أجد ظلال الخديعة تمتدّ إلى جنبات حياتي العاطفيّة والجنسيّة أيضًا. تُطوّقُني أسئلة شائكة حول علاقتي بلُبنى وقطيعتي المفاجئة معها، وزواجي المُرتّب بسميرة، ومغامرتي مع صوفيا، مغامرة هي بِطعْم الإعصار الذي خلخلَ ما هو غافٍ بالأعماق. هل كنتُ أستجيب لرغائبي الحقيقيّة أم لاعتبارات لا تُراعي صوتَ الذات؟ أكثر ما استوقفني في علاقتي بجسدي هو تجربتي المحظورة، الفريدة، مع صوفيا، لأنّني اكتشفتُ المرأة في وصفها ذاتًا حرّة تعبّر عن رغبتها ولا تخضع لمُقتضيات التقاليد الموروثة. لديْها، الجسد والنفس مرتبطان بالحياة أوّلاً وأخيرًا؛ وما تتوخّاهُ هي من الآخر هو أن

يشاركها الاحتفال باللحظة اليانعة. وهي تعلم أنّ اختيارها صعب، إلّا أنّها حريصة على متابعة رحلتها صوْبَ هذا الاتّجاه. وعندما تُحاصرني ذكرياتي معها، أنظرُ من حولي إلى علائق الأزواج، انطلاقًا من تجربتي، فأجدُ أنّ الوقار والرتابة وطقوس المجاملة هو ما يطبعها. وكلّما تقدّم العمر، قوِيَ التواطؤ على إقبار اللوْثة المشتعلة في دواخلنا منذ الطفولة والمراهقة، تلك اللوثة التي تدفعنا إلى التمرّد على الرتابة وروح القطيع. نعم، أنا أتساءل: من وراء «خديعة» العلائق العاطفيّة والجنسيّة، وأيّ لعنة تجعلها تفقِدُ شرايينها المُجدّدة لِدَمِ الجسد وشهوانيّته؟

أمس، فوجئتُ بزيارة عمّي الذي يستمتع بفترة التقاعُد عن عمله في وكالة الماء والكهرباء. دائمًا هو محافظ على أناقته، يعيش وحيدًا بعد أن رحلتْ زوجته إلى الآخرة دون أن تخلّف له ولدًا أو بنتا يؤنسانه. يطالع الروايات ويشاهد التلفزيون، ويُكثر من سماع الطرب الأندلسي والملحون، ويتسلّى بالأغاني العصريّة، مُردّدًا باستمرار: «اللي تنعيشو بعد موت امراتي لالة شافية، كلّه فْضلْ». بعد التقاعُد، غادر الرباط إلى فاس وأصبحت هوايته هي أن يطوف المدينة القديمة علّه يعثر على زقاق أو دارٍ يستثيران فضوله ويكون لهما قصّة تستحقّ أن تُحكى.

هذه المرّة، حكى لي أنّ مجموعة من رؤساء إدارات وموظّفين كبار، كانوا يلتقون في نايتْ كلوب فندق حسّان، بعد العاشرة ليلا، ليسهروا حول الشيخة الحاجّة الحمداويّة وهي تلعلع:

قالوا ليَ دَرْتي وأنا شي ما درتو

حقّ ربّي المعبود صاحبي لا فَلّتو

مغارة فندق حسّان كانت قِبْلة زهرات الشباب الوافدين على العاصمة من الشاويّة وعبدة ودكّالة، بعد أن تخرّجوا من الكلّيّات والمعاهد، جميعهم كانوا يلتقون هناك كأنّما ليبتعثوا من ذاكراتهم المشاهد المشتعلة التي اختزنوها في مراهقتهم أيّامَ كانوا يرتعون في السهول والجبال، مُصاحبين رقصات أهاليهم وأهازيجهم... جميعهم يرتمون عند أقدام الحاجة ـ يحكي عمّي ـ يُقبّلون يديْها وعنقها وهم يصدحون ويتمايلون مترنّحين من فرط الشرب. وحين تحبّ الحاجة أن تُمازح كهْلاً مُعجَبًا، تُحوّر الأغنية قائلة: «عيّطْ الله تلقى الله أهيا الشيباني». وفي السهرات التي نظّمها مهرجان «موازين» سنة ٢٠٠٧، لاحظتُ أنّ جمهورها معظمه شُبّان يرتدون الجينْ والكنزات الطويلة، وشَعرُهُم مقصوص على طريقة تريفولتا، وهم جميعهم يتحيّرون ويضبطون الإيقاع بأكُفّهم... تغيّرَ الجمهور ولم تتغيّر أغانيها لأنّ جِنّ العيْطة يسكن أعماق المغاربة في كلّ عصر وَأوان، كما قال أحد الدارسين لفَنّ العيطة.

العمّ نفسه حكى لي عن أمجاد المغنّي عبد الغفور محسن، الذي اشتهر بِلَقَب فيغون (Vigon) منذ ستّينيّات القرن الماضي. تميّز عن زملائه بأنّه كان يغنّي بالفرنسيّة والإنجليزيّة. عصاميًّا كان، ولم يزر المدرسة إلّا قليلاً، وعمل مع والده الفقير في نقل الخُضر وبيعها بمدينة الرباط، واستطاع أن يعمل في القاعدة الأميركيّة بمدينة القنيطرة حيث التقط اللغة الإنجليزيّة واستوعب

أغاني الروك آندرول وبدأ يُقلّدها. سافر إلى باريس في ١٩٦٤ وهناك اكتسب شهرة محدودة إلّا أنّها جعلتْ منه نجمًا لامعًا لدى شباب مغرب السبعينيّات. وعندما غنى على خشبة مسرح محمّد الخامس آنذاك، كان الواقفون أكثر من الجالسين، وهجموا على الخشبة ليرقصوا على نغمات موسيقى فيغون. مَنْ يذكر اليوم تلك الأمجاد؟ ومنْ تذكّرَ عبد الغفور في مأساته حين ماتتْ ابنته صوفيا واستسلم هو للحزن وعاد إلى أكادير ليُغنّي في كلوب «تام تام» بأحد الفنادق، طوال عشرين سنة؟

عندما تراه ـ يقول العمّ ـ وهو في عزّ شبابه، تُقسمُ أنّه أميركي أسود طلع من هارلم، ولا علاقة له بالرباط ولا بزنقة «لالة مكنابس» التي وُلد بها. كان يقلّد الموضة الشائعة في أغاني السبعينيّات بأميركا وأوروبا إلّا أنّه مع ذلك كتب أغنية مؤثّرة غنّاها بالإنجليزيّة والفرنسيّة، عنوانها «ملاك صغير أسود»، يقول فيها:

«إذا كنتُ أصرخ أيّها الرسّام

فلأطلب منك أن تضع في السماء

على مقربة من الله

ملاكًا أسود يهَبُني

أملاً، أملاً، أملاً».

فيغون لا يقبل أن يتقاعد، مثله مثل الحاجّة الحمداويّة. فقد رأيته، عندما استدعاه مهرجان «موازين» سنة ٢٠١١، يغنّي أمام شباب لم يلتق به من قبل، وكان هو يقترب من سنّ السبعين،

ومع ذلك غنّى ما تعوّد أن يُغنّيه في ستّينيّات القرن الماضي. لا الصوت يُطاوعه ولا الموسيقى تستجيب لما ينتظره شبّانُ اليوم. مع ذلك، ظلّ يُعافر على الخشبة وينتزع التصفيقات ليُوهِم نفسه، ربّما، بأنّه نجم خالد؟».

نقلتُ لصديقي حفيظ ما حكاه لي عمّي عن الحاجة الحمداويّة وفيغون، فاستمع إليّ بانتباه واهتمام ثم قال معلّقًا: «الآن يا عزيزي فالح، ونحن نتأمّل هذا الخضمّ من الأغاني والأشعار والأصوات، لا نعرف أين نضع نفسيْنا ولِمَنْ نصيخ السمع؟ يبدو لي أنّنا سنظلّ هكذا الريح اللي جاتْ تدّينا. لذلك أظنّ أنّ علينا أن نطبّق مبدأ: «**كلّ تخييل يقترن بما يعاكسُه، أي الاعتقاد بوجود عالم ملموس إلى جانبه، وفي الوقت نفسه لا توجد حياة واقعيّة إلّا ضِمْنَ منطق مُرافق يقتضي تغيير الحياة باتّجاهِ عوالم متخيّلة**». من خلال هذا المبدأ قد نستجمع الأشخاص والفضاءات والأحداث التي عايشناها منذ الطفولة، لنُعيد ترتيبها وإدراجها في حالات وتجسيدات متباينة. قبيلة من الشخوص والسحنات والحوارات نُعيد عجنها وتسويتها وفْق ما يحلو لمخيّلتنا، مُتنقّلين بين الفترات والأزمنة، مُحوّرين ما لا يروق لنا، صانعين عالمًا مُوازيًا يكون حقيقيًّا وتخييليًّا في الآن نفسه. على هذا النحو، سنجد عشرات الأصوات والأغاني تبعث أمامنا مشاهد من زمن توارى خلف مُستجدّاتٍ لا تكفّ عن الجريان. أسماء كثيرة تنبعث من مرقدها لتندسّ وسط جوقة المغنّين والصارخين: الحسيْن السلاوي، بوشعيب البيضاوي، زهرة الفاسيّة، عبد الرحيم السقاط، فويتح، المعطي بن قاسم،

إسماعيل أحمد، بهيجة إدريس، أحمد البيضاوي، المزكلدي، الحياني، عبد الهادي بالخياط، نعيمة سميح، رويشة، وصولاً إلى الحمداويّة وفيغون وناس الغيوان وجيل جيلالة، وشباب موسيقى الرابْ. . .

أقول لك يا عزيزي فالح، إنّ عليك أن تبحث عن لغةٍ مختلفة تستجيب لجيشان القلب والفكر، لتُخرجك من السديم. تذكّرْ ما قاله المجذوب:

عيّطتْ عيطة حنينة فيّقتْ مَنْ كان نايم

ناضوا قلوب المحنة ورقدوا قلوبْ البهايم

إذا لم تستطع أن توقظ الأقرب إليك، أولئك الذين يفكّرون بعقل قلوبهم ويشعرون ببصيرتهم، فلن تستطيع أن تُبدّد الغيمَ المتكاثف. . .».

يعجبني كيف يستولي حفيظ على الوقائع والأحداث والمحكيّات البسيطة ليستبطنها ويتّخذها منطلقًا لتأمّلاته المتناسلة. أضاف بعد فترة من الصمت: «انسَ كلّ ما حكيناه عن صوفيّة المناضلين أيّام الاستعمار، وتضحيات الفدائيين، وصراعات الإخوة الأعداء، وجنوح القصر إلى الاستئثار بالسلطة، وأزمنة الرصاص، وطوبويّة الشباب الماركسيين، وعنجهيّة التكنوقراطيين، وأخطبوط المخزن، ووعظيّة المبشّرين الأصوليين، والمسلسلات الوافدة من مصر وسوريا وتركيا والمكسيك واليابان. . .، انس كلّ ذلك السيرك من البروتوكلات والمراسيم والطقوس القروسطويّة وحاولْ أن تلقيَ وراء ظهرك بكُلّ تلك الكوابيس التي ترسّبتْ في

الأعماق ناسجة غلائل من سوداويّةٍ تثبّط العزائم. انس كلّ ذلك ولو إلى حين، واستحضر قبيلة المغنّين والمغنّيات وسجلّات الأهازيج والعيطات، ورباعيّات عبد الرحمٰن المجذوب، وحاولْ أن تستحمّ في بحر الكلمات والآهات ومواويل الطرب الأندلسي، وَ«تعريقات» الكمنجات وتغريبات الناي. افترض أنّ الأحداث والشخصيّات والمناورات لم توجد، أو أنّها وجدتْ في عالم غير مرئيّ، لكن هذه الحصيلة من الغناء والشعر والكلام هي تخييل لذلك الذي حدث في واقع مضى، عشتَ بعضه وسمعتَ عن ماجرياته الأخرى. لا تستعرضه مرتّبًا وفق الرزنامة، ولا بحسب الأعمار، وإنّما بالجملة كما يتوارد على الخاطر وتنتقيه السريرة. ستجد نفسك داخل جُزُر متجاورة، «كلّها يلغي بَلغاه»، إلّا أنّها تنطوي على رغبة في القبض على اللحظات الهاربة، على تلك الأحاسيس التي كانت تلمع في نفوس فاقدة البوصلة. وحين تنبثق اللغة من صلب التاريخ وحكمته المتراكمة، تأتي كاشفة لتلك العبثيّة الجميلة: «أنا بعدًا حاضية البحر لا يرحلْ». فكرةٌ طريفة ومغرية أن يمنح أحد نفسه مهمّة حراسة البحر لكيْ لا يسأم رتابة المدّ والجزر، ويغادر الأرض إلى كوكبٍ سماوي. بين وقائع المشهد الممتدّ على عقود من الزمن وما ولّدتْه تلك الأحداث من أخيلةٍ ولغات، ستجد نفسك تغوص أكثر في متاهة «اللماذا»، ولن تعثر على تطابُق مقنع بين ما فاتَ وما هو قائم؛ ولن تجسُر على أن تشرئبّ بعنقك إلى ما هو آت...».

اقترحتُ على صديقي حفيظ أن يصاحبني إلى صالون الدكتورة نبيهة سمعان فاعتذر مُتملّصًا قبل أن يضيف «على كلّ،

أنا أغبطك لأنّك نلتَ رضا الدكتورة وحظيتَ بعضويّة صالونها. ومَنْ يدري فقد تعثر لديها وهي تسائل الظاهر والباطن، على ما عجزنا نحن المُبتلين بالسياسة عن الإمساك به. أظنّها لن تُتعبكم بأسئلة اللماذا، وستضيء لكم المسالك التي نتحرّك فيها داخل هذا الفضاء المختلط، الممعن في التنويع والالتباس؟».

لعلّ شعوري المتكرّر بهذا المأزق، كلّما تحدّثتُ مع صديقي حفيظ، هو ما جعلني أرحّب بدعوة الدكتورة نبيهة إلى التردّد على صالونها الشهري. أعرفُها منذ أكثر من ثلاثين سنة، منذ مطلع شبابنا والتحاقنا بالجامعة والنضال. كانت مسجّلة في شعبة الفلسفة وعلم النفس. جميلة، أنيقة، شخصيّتها تفرض الاحترام. هي من عائلة موسرة بالدار البيضاء، وفي بداية ثمانينيّات القرن الماضي أحرزت على الإجازة وسافرت إلى باريس لتتخصّص في الطبّ النفسي؛ ومنذ ذاك انقطعت العلاقة وإن كنتُ سمعتُ عن عودتها وفتْحِها عيادة بالدار البيضاء.

هي مثلي، عمرها يُعانق الخمسين سنة، إلّا أنّها تبدو في أوج التألّق الأنثوي: ابتسامة لا تكاد تفارق محيّاها، وذوق متناغم في اختيار ملابسها يُبرز رشاقة الجسد في صورة مثيرة. سمعتُ أنّها تزوجتْ مرّة أو مرّتيْن لفترةٍ قصيرة، والآن تعيش وحدها مُتفرّغة لعيادتها ومُهتمّة بزوّار وزائرات صالونها. لا أعرف كيف أحدّد غائيّة لقاءاتها الشهريّة؛ وعندما سألتها، وقدْ التقينا صدفة، عن فكرة الصالون، أجابت أنّ عليّ أوّلاً أن أحضر لأكتشف بنفسي هويّتَه وغائيّتَه.

ـ ٣ ـ

أقول مع نفسي، أنا الراجي مساعد المؤرّخ، إنّنا لا نستطيع أن نحكم على شخصيّة المرء من لقاء واحد أو خلال فترة زمنيّة قصيرة. فعندما تعرّفتُ على فالح الحمزاوي في ثمانينيّات القرن الماضي، وجدتُه شعلة من النشاط كما يُقال، محاميًا على طريق التألّق، ملتزمًا بالدفاع عن معتقلي الرأي ومناضلي اليسار، متحرّرًا من اللغة المتخشّبة التي كثيرًا ما يحتمي بها المنتمون إلى حزبه. وعلى رغم أنّي لم أكن منتميًا فقد كنت مُنجذبًا إلى الاتّجاهات السياسيّة المعارضة لزمن الرصاص وسطوة الحكم الفردي. وخلّف لقائي الأوّل بفالح أثرًا إيجابيًّا تَعزّزَ بعد أن سجّلتُ معه ملخّصًا لقصّة حياته المهنيّة والعاطفيّة والزوجيّة، قرأتموها قبل قليل. وجدتُه آنذاك، تلقائيًّا وصريحًا لا يتدثّرُ بغلائل الإيديولوجيا وستائر النضال. أعجبتُ كثيرًا بمغامرته مع صوفيا وهو رجل متزوّج، واستوقفتني تلك المشاعر المتأجّجة التي ألهَبَتْ وجدانه.

وأظنّ أنّ سنّي الفتية آنذاك هي وراء إعجابي وتجاوبي مع فالح، لأنّني كنتُ أعتبر علاقة الرجل بالمرأة مقياسًا أساسًا في الحكم على إنسانيّة السلوك وجوهر الشخصيّة.

مرّ أكثر من عشر سنوات على علاقتي بفالح الحمزاوي، خلالها لم تكن لقاءاتنا إلّا عابرة أو في إطار مناسبات سياسيّة أو اجتماعيّة. . . وذات يوم، أوائل سنة ١٩٩٩، فوجئتُ به يُهاتفُني ليستدعيني إلى قضاء نهاية أسبوع في مدينة فاس، لأنّه يريد أن يقدّمني لوزير فرنسي اشتراكي يرغب في التعرّف على شباب من الجيل الجديد. أضاف بأنّه حجز لي غرفة بفندق الجامعي وأنّه سيفوت على منزلي صباح السبت ليصطحبني إلى مسقط رأسه. . . لم يكن أمامي إلّا أن أستجيب للدعوة التي ستتيح لي أن أقترب مُجدّدًا مِنْ فالح وأتعرّف على رأيه في تجربة التناوُب التي يقودها حزبُه.

بدا لي قصر الجامعي، بجناحيْه القديم والجديد، واحةً مُنعشة للبصر والنفس عند هذا الطرَف الملاصق لسور فاس القديمة، بعد أن نقطع متاهة أزقّة المدينة ودروبها المعتمة، المتواصلة. قلتُ مع نفسي إنّ بعض الأمكنة يبدو أقوى من الزمان إذ ينجح في مقاومة البِلى والتهدّم. نزور بقايا مدينة وليلي، الأهرام، معابد الهند، مساجد سمرقند، قصر ڤرسايْ. . . فلا نُحسّ أنّ تلك الفضاءات في حاجة إلى زمنها، لأنّها تبدو شامخة، مُستقلّة بوجودها خارج السياق. عندئذٍ ينبع الزمنُ منّا نحن الزائرين، لأنّنا نحاول أن نقيس زمننا باللازمن الذي

أصبحت تنتمي إليه تلك الأمكنة... كان أمامي أكثر من خمس ساعات على موعد العشاء مع الضيف الفرنسي وزوجته وثلاثة مدعوّين آخرين. آثرتُ بعد الغداء أن أخلد إلى القيلولة ثم القراءة وترتيب أفكاري ومشاعري وأنا مقبل على لقاء شخصيّة مرموقة لها سمعة الكفاءة والاستقامة في فرنسا، لأنّ منصب الوزارة لم يُغرها بالاختلاس والفساد مثل معظم المسؤولين.

اختار فالح أن يكون العشاء في المطعم العصري بالفندق لأنّه يوفّر غرفة منعزلة ويتيح لنا أن نشرب النبيذ الجيّد بعيدًا من أعين الفضوليين، على حدّ تعبيره. كلّ شيء في قاعة المطعم المغلقة مُعدّ بعناية، والمائدة المستطيلة عليها صحون من صنف رفيع وسكاكين وشوكات وملاعق مُفضّضة، ولوحات معلّقة بعضها مُستنسَخ عن لوحات رسّامين مشاهير، وبعضها الآخر لمغاربة رائجة أعمالهم في سوق الفنّ. مناخ حميمي، والنادلون في معاطفهم البيضاء يطوفون بالأكواب الفاتحة للشهيّة، وفالح المرتدي لباسَ السهرة يقدّم المدعوّين إلى الوزير الفرنسي وزوجته، مبتسمًا، لبِقًا، مُمعنًا في إضفاء أفضل الصفات. قال عن ممثّل مغربي شارك في تقديم اقتباس مسرحيّة «طارطيف» لموليير على خشبة مسرح قصر شايو في باريس، عقِبَ استقلال المغرب، إنّ الصحافة الفرنسيّة أشادتْ بموهبته؛ وقال عن نقيب المحامين بفاس إنّ زملاءه يتطلّعون دومًا إلى مرافعاته ليتعلّموا منها الفصاحة والدقّة في توظيف بنود القانون، وقال عنِ صديق له يتحمّل مسؤوليّة كاتب دولة في الشبيبة والرياضة بأنّ على يديْه ستعرف التربية البدنيّة طريقها إلى المدارس والجامعات وسيتألّق

الفريق الوطني لكرة القدم في مباريات كأس العالم... وعندما جاء دوري، قدّمني على أنّني مؤرّخ واعِد أعمل على إنجاز مشروع سيضيء السبيل للجاهلين بتاريخ بلادهم! أمّا عن وزير الفلاحة الفرنسي السابق وضيف السهرة، فقد ذكّرنا بمنجزاته في عهد الرئيس ميتران وأثنى على استقامته ومؤلّفاته في مجال الزراعة الحديثة المُتطوّرة. واكتفى عند تقديم زوجة الوزير بصفةِ السيّدة الفاضلة الغنيّة عن التقديم!

كنتُ في البداية مرتبكًا بعض الشيء، لأنّ شخصيّة الوزير لا تخلو من مظاهر هيْبة يوحي بها شَعْرُه الأبيض ونظّارته الطبّيّة السميكة، والتحفّظ التلقائي في نظراته... فضلاً عن ذلك، كانت سُمْعتُه تسبقه لتجعل منه خبيرًا في مجاله، مستوعبًا لِملفّاته كما عَلِقَ في ذاكرتي من خلال برنامج تلفزيوني سبق أن شاهدته. إلّا أنّ ارتباكي سرعان ما تلاشى وسط الأحاديث المتبادلة بيننا ونحن وقوف نحتسي الشامبانيا والمزّة المنتقاة. ووجدتُ أنّ الأستاذ فالح نجح في أن يضفي على حفل العشاء مسحة توحي أنّنا، نحن المدعوّين الأربعة، ننتمي إلى العائلة الاشتراكيّة وأنّ الدعوة هي نوع من التكريم لإطار سياسي مشترك يجمعنا بحزب الوزير الفرنسي الذي أيقظ الآمال عند وصوله إلى الحكم مطلعَ الثمانينيّات من القرن الماضي. هو انطباع لا يخلو من التباس، لأنّ فالح لم يوضح لي سياق الدعوة، واكتفى بالقول، عندما سألتُه أثناء رحلتنا من الرباط إلى فاس، بأنّ الوزير صديق له تعرّف عليه في أحد مؤتمرات المنظّمة الاشتراكيّة الدوليّة، وأنّه ساعد ابنه رابح في الالتحاق بكلّيّة

الزراعة بباريس واستقبله في بيته أكثر من مرّة. . .

انطلق العشاء في جوّ مفعم بالمودّة والاستمتاع، وكانت لائحة الطعام تشتمل على أطباق إضافيّة اقترحها الداعي على طبّاخ الفندق، وأراد أن يتذوّقها الضيفان الأجنبيّان. استغرق الأكل وقتًا طويلاً، لأنّ الأحاديث تفرّعتْ إلى مجالات متنوّعة، متنقّلة بين السياسة والتاريخ والعادات وآفاق تطوّر المغرب في ظلّ حكومة التناوُب. وكان الضيف يستمع في أغلب الأحيان، ويكتفي بوضع أسئلة عن السلطة التي يُخوّلها الدستور لرئيس الحكومة، وهل هي كافية لدرجةٍ تسمح للاشتراكيين المغاربة بإنقاذ السفينة من الغرَق؟ لاحظتُ أنّ فالح كان يُراوغ في إجاباته، بينما كاتب الدولة يستوحي في ردوده الجملةَ الشهيرة التي أصبحتْ متداولة خارج سياقها والقائلة «بأنّ علينا أن نواجه تشاؤمَ العقل بتفاؤل الإرادة»، وهو ما سيُمكّننا من التغلّب على الصعاب. في مثل هذه المواضيع كان يكثر المسكوت عنه، لكنّني لم أكن في وضع يسمح لي أن أكشف عن شكوكي وارتيابي في تصريحات حُسْنِ النوايا. أنا أعتبر هذا العشاء فرصة لاستكمال جوانب من حياة فالح، والاستماع إلى ضيفنا الذي مارس السلطة في سياق له تقاليد ديموقراطيّة عريقة، وعندما يتكلّم لا يلوك كلماته، بل يصارح بما هي عليه الأشياء.

المفاجأة التي لم تكن على بالٍ، بدأتْ في الفترة الفاصلة بين الانتهاء من تناوُل الأطباق والانتقال إلى الفواكه والحلويات. اتّجه فالح إلى باب غرفة الطعام وغاب قليلاً ليعود ومعه فتاة

تحاذي الثامنة عشرة سنة، ترتدي زيَّ الرقص الشرقي الكاشف لنهديْن يتبَرْعَمان، وساقيْن متّسقيْن، وخصر نحيف، ووجه مدوّر مشرق بابتسامة تذكّر بابتسامة الملائكة التي سمعنا عنها ولم نرَها. وقال فالح بتلقائيّة أذهلتْني إنّه سعيد بأن يقدّم لنا «نور» الراقصة الموهوبة، ابنة إيموزار التي يتنبّأ لها بمستقبل باهر، وهو حريص على أن نتعرّف على فنّها وأنّه متأكّد أنّ الضيفين العزيزيْن سيجدان في رقصها متعة مسلّية ومنعشة... ثم أشار بيده إلى النادل ليُدير مسجّلة الغناء! هي مفاجأة حامضة في حقيقة الأمر، لأنّنا جميعًا أحسسْنا كأنّ دشًّا باردًا صبّ مياهه من سقف الغرفة، فبَدّد نشوة النبيذ والأطباق اللذيذة والأحاديث الطليّة التي نسجتْ ألفة بيْننا. بدأتْ نور تهزّ بطنها الصغير وتتلوّى على إيقاع موسيقى إحدى أغاني أم كلثوم، والأستاذ فالح يصفّق بيديه لمُجاراة الإيقاع، متلفّظًا بعبارات التشجيع والإعجاب، ولم يمسك نفسه فوقف يُراقصها ويتمايل دون أن يلتفت إلى جهتنا. بقينا في وضعٍ مُحرج، باستثناء الممثّل الذي أخذ يرفع صوته من حين لآخر مُبديًا إعجابه بالراقصة، مُثنيًا على جمالها. كنتُ مندهشًا من المشهد الكوميدي ومن انغمار فالح في لعبة التنشيط والفرفشة، غير مُنتبِهٍ إلى تضايُق الوزير الفرنسي وزوجته، وغيْر مُدرك سخافةَ مُبادرته. وأظنّ أنّني سمعت الضيفة تهمس لزوجها «c'est pas sérieux». وعندما طال الرقص واستطال، تدخّل النقيب لينبّه فالح إلى أنّ الضيوف ينتظرون الفواكه وأنّ هناك بقيّة حديثٍ تنتظرنا. لكن سرعان ما اعتذر الوزير الفرنسي وزوجته متحجّجيْن بالتعب والإرهاق، شاكريْن الحفاوة والكرَم. وأصرّ فالح على أن أبقى

لنتابع السهرة مع نجمة إيموزار، فأصررتُ على الانسحاب لأنّني شعرت بخجلٍ من المفاجأة التي جعلتنا نبدو أمام الضيف الكبير بمثابة دجّالين لا نحترم الأفكار والمبادئ التي كنّا نستوحيها في حوارنا على المائدة. وأظنّ أنّ ما زاد من غضبي ونقمتي، أنّ «نور» كانت تشبه كثيرًا فتاة أخرى أثّثتْ سهرة حضرتُها مصادفة في مراكش منذ سنين، وكان الصديق صاحب البيت قد استدعى صديقيْن وزوجتيْهما للعشاء، وعند بداية السهرة استغربتْ الزوجتان من أنّ الأعزب لا يستدعي عشيقته للسهر معنا. تلجلج قليلاً ثم خضع لإلحاحهما واتّصل هاتفيًا بتلك التي كانت تشبه «نور» حدّ التماهي. كانت أيضًا مثل دمية، رقيقة الملامح، دون العشرين من عمرها، مزهوّة بشبابها. وفوجئتُ أنّ الزوجتيْن تواطأتا على الفتاة وأخذتا تصُبّان لها كؤوسًا من النبيذ بإيقاع متسارع لتُسكراها وتسخران منها أمامنا، ثم طلبتا منها أن تنزع ثيابها لترقص عارية. لم يعترض صديقها وبقيتُ متفرّجًا لا أستطيع الاعتراض، واضطررت إلى الانسحاب عندما انقلب المزاح إلى هزل سخيف.

المشهد نفسه حاصرني وأنا أراود النوم في غرفتي بفندق الجامعي هذه الليلة. أخذتُ أغوص تدريجًا في مشهد صاخب، ووجوه مَنْ كانوا معي في حفل عشاء الليلة تختلط وتنتقل قسَماتُها من تعبير الانشراح والابتسام إلى التقطيب والاستغراب، وصوت الممثّل يعلو فجأة على بقيّة الأصوات وهو يصيح: يحيا النشاط! معك الحقّ أخُويَا فالح، ساعة الزهُو لا تفوتْها ولوْ بقْطيعْ الرّاس. ثم تناهى إليّ صوت الوزير الجهوَري وهو يسأل النقيب: أنا مسرور لحضور بروفا ابنة صديقنا فالح التي ستشارك في برنامج أكاديمي

ـ سْتار للرقص والغناء. اللغط يعلو ليتحوّل إلى كابوس وأنا ألتفت يمينًا ويسارًا أبحث عن باب غرفة الأكل المغلقة. أضغاث أحلام لازَمتْني إلى أن انبلج الصباح. صحوتُ وأنا أبتسم، محرّكًا رأسي غيْر مصدّق لمشاهد العشاء اللاتُنسى.

بعد الظهْر، وأنا عائد مع فالح في سيّارته إلى الرباط، حرصتُ على أن أتجنّب الموضوع لكي لا أصارحه برأيٍ يصدمه في ما يظنّ هو أنّه ابتكار في أساليب الضيافة والكرم والكشف عن مواهبنا المغمورة... إلّا أنّه فاجأني بسؤال عن سهرة أمس. سكتُّ قليلاً ثم أجبتُ بأنّ الأكل ممتاز والحديث ممتع لولا... توقّفتُ عن إتمام الجملة فألحّ عليّ لأكملها، فقلتُ لولا أنّ نمرة الراقصة لم تكن ملائمة لعقليّة الضيف وزوجته وأشعرتْهُما بالحرج، خاصّة وأن «نور» قاصرة والعيون كثيرة، وصحافة الفضائح مُتربّصة... تجهّم وجه فالح وشدّ قبضتَه على مقود السيّارة وانطلق في مونولوج طويل ليُبرّر ما فعل، مستطردًا إلى جوانب أخرى عن حياته وعلاقته بالحزب وحكومة التناوب. ما كان أغناني عن هذه الفذلكة، ولكنّني لم أستطع أن ألتحف بالمجاملة وأمرّر الواقعة بجرعات نبيذه الرقراق. قال أشياء كثيرة لا تمُتُّ بصلة إلى ما فعله أمس. قال إنّ تجربته علّمتْه أن ينفتح على الحياة والاستمتاع دون أن يجد في ذلك تعارضًا مع اختياراته السياسيّة، وأنّ الأجانب يحبّون مثل هذه المفاجآت الإغرابيّة التي تُبعدهم عن مألوف العيش ورتابة اليومي، وأنّه متأكّد من أنّ الضيف استحلى الصبيّة الراقصة التي أنعشتْ ذكورته السائرة نحو الأفول وأنّ من حقّه أن ينظّم الاستقبال حسب هواه ومزاجه ومَنْ

لم يعجبه ذوقُه عليه أن يشرب البحر. . . ولِعلمكَ، استأنف فالح، أنا لا أستطيع أن أكون مناضلاً متصوّفًا مثل صديقي حفيظ. هُوَ من طينة استثنائيّة يستطيع أن يضحّي بالكثير من الملذّات والفروض من أجل أن يقترب من شكل الحياة كما يتصوّرها. أعرَضَ عن الزواج واكتفى بمغامرات العشق وعلائق الحبّ المستحيل، وناضلَ ليجعل من العمل السياسي أداة للرفض والتغيير، وعندما صدّتْه حيطانُ المخزن وهلاميّة الحزب وبراغماتيّته قصيرة النظر، آثَر أن ينعزل ويكتفي بالتأمّل والانتقاد! كم من مرّة شعرتُ بالخيبة وقرّرت الانقطاع عن النشاط السياسي، لكنّني سرعان ما أجدني متناسيًا قراري وعائدًا إلى المعمعة. بين الذاتيّة وَالغيْريّة صراع وتجاذب لا يمكنني الحسم فيه. غيْر أنّ عليَّ أن أعترف لك أنّني كلّما تقدّمتُ في العُمر، أحسستُ أنّني مشدود أكثر إلى تاريخي الشخصيّ وأنّ عليَّ أن أحميَه من التدهوُر والتداعي. أحرص على أن أرتقيَ أكثر أو على الأقلّ أن أحافظ على ما «اكتسبتُه» وأصبح ضمن منجزاتي الخاصّة (ولا يهمُّ في نهاية التحليل الطريق التي نسلُكها لتحقيق ذلك). كأنّما هُوّة تنحفر بينك وبين الغيْر، على رغم أنّك مقتنع بضرورة التعاوُن والتفاهُم معهم. أنا أستمرّ في التفكير بالأشياء المشتركة التي تجعل منّي إنسانًا، إلّا أنّني أحسّ أنّني أتّجهُ أكثر صوْبَ حماية الذات. أقول لنفسي أنت توجد في عالم موقّت، وستنطفئ في أيّ لحظة لتصبح أثرًا بعد عيْن، غير أنّ حبّ الحياة مُتغلغل فيك حتى النخاع وحرْصكَ شديد على أن تستديم الرحلة التي تجعلك موجودًا، متحرّكًا، مستمتعًا، مُتسلّيًا باللعبة المُعقّدة. وأنتَ تعرف أنّني

عشتُ الحياة من موقعيْن: موقع الفقر وموْقع الرفاه، وأصارحك بأنّني أوثرُ العيش من موقعي الثاني.

«أعرف، طبعًا، أنّ هناك قيمًا تضبط العلائق، وأنّ زادًا غير يسيرٍ منها قد اختزنتُه أثناءَ ما كنتُ أعيش مع والدي في فاس القديمة، وفي المدرسة وعبر الطقوس والمعاملات، إلّا أنّني أدركتُ، مع العمر والتقلُّب في فضاءات مُتباينة، أنّ هناك قيَمًا أخرى، مُغايرة، تفرض نفسها وتصبح سالكة أكثر من غيرها! مع ذلك، أحسّ أنّ ثلاث لحظات تهيمِن على حياتي لحدّ الآن: تضحية أختي الكبيرة من أجل أن أكمِل أنا تعليمي الجامعي وكلمات التشجيع التي كانت تغدقها عليّ؛ ثم علاقتي العاصفة بـ «صوفيا» التي حملتْني إلى أصقاع مجهولة، وأيّام النضال الشبابي مع صديقي حفيظ من أجل أن نغيّر العالم. هذه اللحظات المُترسّبة في الأعماق هي التي تعطي لحياتي معنى وتسنُدني في ما تبقّى لي من أيّام، لأنّها تذكّرني أنّ ذلك الصفاء الداخلي الذي أصبح مفقودًا قدْ وُجِدَ ذات يوم. نعم، أنا أسكن في مثل هذه اللحظات المُتغايرة ولا أكاد أشعر بأدنى تناقض بين ذواتي المُتعدّدة التي يمنحني تساكُنُها توازُنًا وشغفًا بالحياة. ولا أخفيك أنّني ألاحظ في بعض الأحيان أنّ تلك التقسيمات في السياسة إلى يمين ويسار تتبخّر عندما أراقب سلوك الفاعلين في مجال السياسة وتدبير الشأن العامّ في أيّامنا هذه؛ همْ بالأحرى حريصون على بقاء الأوضاع على ما هي عليه. قد يتبادلون الانتقادات ويطلقون شتائم على عواهنها، لكنّهم سرعان ما يعودون إلى التصالح والتذكير بفضائل الاعتدال، حفاظًا على الاستقرار الذي حبا به

الله مملكتنا السعيدة! ولأكُنْ معك صريحًا لأنّك تعرف مسار حياتي كلّها، فقد كاشفتُ ابني رابح بعد تخرّجه من المعهد الزراعي بما أعتبره خلاصة مفيدة له إذا اهتدى بها. قلتُ له أنت تعرف أنّ لي رأس مالٍ سياسيًا في الحزب والمجتمع، وعليك أن تستثمره لكي لا تحاسبني أيّامَ شيخوختي بأنّني أضعتُ وقتك في النضال والاجتماعات. أنا أريدك أن تهتمّ بتدعيم وتوسيع مكانة وثروة العائلة مستفيدًا من الإمكانات التي أوفّرها لك ومن تخصّصك في الفلاحة لتصبح اسمًا لامعًا يحوز احترام الناس والمؤسّسات، لأنّ التقدير باتَ مرتبطًا بموقع القوّة الذي توجد فيه وبالثروة التي تحتضنها. بعد ذلك يمكنك أن تمارس السياسة وتقفز بين جنباتها كيف شئت. نعم، قلتُ لابني رابح ذلك وشرحت له أنّ السياق الآن مختلف عن سبعينيّات القرن الماضي وأزمنة الرصاص، وأنا لا أريده أن ينخدع ويندفع باتّجاه التطرّف والطوبويّة التي تؤول إلى ضياع العمر، وإعلان التوبة للحصول على الفتات. ثم ما الذي سيفعله في هذه الساحة التي تختلط فيها الأبقار والأكباش والنعاج، تثغو بكلام ببّغائي ومتشابه، لا يفيد سوى في التزلُّف ومسْح الجوخ! قلتُ لابني ذلك لأنّني لا أريد له أن ينخدع، ولأنّه لا يمكن أن يستوعب السياسة كما عانقتُها أنا في زمن مختلف سبق أن حكيتُ لك عنه. وهذا ما دفعني إلى الاستفادة من علاقتي بالوزير الفرنسي ليسهّل له الالتحاق بمعهد عالٍ في التخصّص الفلاّحي. وأنا أردتُ أن أحتفل بهذا الرجل الذي فتح لي بيته وأسدى النصح لابني؛ وفكّرتُ في أنّ وصلَةَ الرقص قد تروقه وتُبعده قليلاً عن أجواء الجدال الجِدّي. هكذا

ظننتُ، وهكذا أفعل عندما أتعب من الاجتماعات والنقاشات. لعلّني أخطأتُ الاختيار أو لم أراع اختلاف العقليّات، لكن قصدي كان أن أسْعدَه هو وزوجته. لكنّني عندما أكون مرتاحًا، رائق البال، يقودني التفكير إلى أنْ لا أحد يُمكنه أن يعيش تجربة الآخر أو يُملي عليه ما يعتبره الأصوب، حتى ولو كانَ هو أباه! أعرف أنّ الانتقال إلى الديموقراطيّة طريق مليء بالكبوَات والمساخر، ولن تكفّ الألسنة عن ترديد: كم من مهزلة تُرتكَب باسمك أيّتها الديموقراطيّة. إلّا أنّها الطريق الوحيد الذي قد يُخلّصنا من أقنعة المخزن المتناسلة وسديم ثرثرة المُدلّسين. أعرف، لكنّني أحيانًا أستسلم للحظاتِ الضعف والشكّ، وآتي من الأفعال ما أتنادَمُ عليه عند استرجاع الروْق وملَكَة الاستبصار...».

هذا قليل مِنْ دفْق الكلام الذي تفوّه به فالح الحمزاوي أثناء عودتنا إلى الرباط. كان في حال انفعال واندفاع ومحاولة فهْم ذاته. مِنْ ثم شعوري ببعض الحرج بل الندم على مصارحته في موضوع الراقصة الواعدة. غير أنّني سرعان ما أحسستُ أنّه غير غاضب منّي، وأنّه كان بحاجة إلى التنفيس عن أشياء كان يكظمها. أدركتُ ذلك عندما سألني عمّا إذا كنتُ قد سمعتُ عن صالون الدكتورة النفسانيّة نبيهة سمعان وأنّه بدأ يتردّد عليه ووجده مفيدًا ومضيئًا لجوانب من السلوك وخبايا النفوس؛ ولذلك نصحني بالمجيء وأنّه مستعدّ أن يزكّي اسمي لدى صديقته الدكتورة. اقتراحٌ أعجبني لأنّ سُمعة صاحبة الصالون كانت تحظى بالتقدير لدى المثقّفين، وبعض كتاباتها أثارت الاهتمام. وأنا

بدوري كنتُ أفتّش عن امرأة تضيء لنا هذه الفترة التي أوحتْ لي بكتابة هذه الرواية على ضوْء ما جمّعتُه من جُذاذات ومعلومات لمشروع الأستاذ الرحماني. مَنْ يدري، فقد تكون هذه هي المرأة التي ستضيف إلى نصّي الروائي نكهة الجُرأة والقول الصُّرَاح وعطرَ الأنثى الفوّاح؟

نبيهة سمْعانْ

(١٩٥٦)

زمنٌ لا يُلغي الحُلم

ـ ١ ـ

أنتَ تسألني، يا أستاذ الراجي، عن الغرض من فتْح صالون فكري، اجتماعي، تُشرف عليه طبيبة نفسانيّة عزباء وجريئة في طرح موضوعات شائكة؟ لكن قبل ذلك، عليّ أن أحكي لك قليلاً عن مسار حياتي وإقامتي في فرنسا، ولماذا اخترتُ التحليل النفساني مهنةً ووسيلة لفهْم ذاتي واستيعاب سلوك الناس... أرجو ألّا تظنّ، مثل آخرين، أنّ دافعي وراء ذلك هو مُسايرة مُوضَةٍ دارجة تتوخّى جذبَ زبائن فقدوا البوصلة في خضمّ التحوّلات المتسارعة التي تغمُر المغربَ منذ سبعينيّات القرن الماضي. أبادر إلى القول، منذ البدء، أنّ اختياري هو استجابة لحالةِ انتظار عندي منذ أحرزتُ شهادة البكالوريا من معهد البعثة الفرنسيّة بالدار البيضاء؛ بل أتبيّنُ الآن أنّ هذا الانتظار كان قائمًا أيضًا عند فئات واسعة من الحائرين الذين اخترقتهم العُقَدُ النفسيّة والاختلالات المُواكبة لاهتزاز القيم وزعزعة العادات الموروثة...

قبل كلّ شيء، أصارحك أنّني منذ المراهقة كان لديّ رفض جارف لـ «الانحباس الهُوياتي» كما يمكن أن أعبّر عنه بلُغة اليوم. كان أبي موسرًا وأمّي متعلّمة، عصريّة، مرتاحة داخل جِلْدها؛ وحين اكتشفتُ العوالم التي تفتح نوافذها اللغةُ الفرنسيّة، استولتْ عليَّ رغبة جنونيّة في أن أصير غيري. ليس مجرّد تقليد طرائق عيش الأجانب، بل الرغبة في أن أكسر الحواجز وأوهِمَ النفس أنّني أنتمي إلى شساعة الدنيا وأحلّق في الأجواء اللامحدودة التي تتخايَلُ لي. أعرف أنّ إيديولوجيين وسياسيين يربطون مثل هذا النزوع بتأثير الاستعمار السلبي، المُضعِف للهويّة والمغري بالانسلاخ عن تقاليد وقيم الأسلاف... إلّا أنّني أعي جيّدًا أنّ عزوفي عن أن أنحبِس في هُويّة موروثة، متآكلة، شاحبة جرّاء اختلاط ثقافات العالم ولغاته وأفكاره، لم يكن فقط بتأثير الحماية الفرنسيّة الوافدة، بقدْر ما هو استجابة لاندفاعةٍ وجوديّة نابعة من أعماقي، خاصّة وأنّ انبثاق هذا الوعي لديّ كان بعد مرور أكثر من عَقْديْن على استقلال المغرب. لا أنكر أنّ مظاهر كثيرة من حولي كانت تحاول التذكير بمكوّنات الهويّة واستمراريّتها، لكن سلوك الناس وتصرّفاتهم هي نقض وتناسٍ لهويّةٍ تحضُر في المناسبات والأزمات وتغيب في المعيش اليومي واللاوعيِ الثقافي قيْدَ التكوُّن. أنا أنطلق من هذه المسألة لأنّها ما تزال غارسة أوتادَها في ربوع المجتمع، بمَنْ فيهم المنتمون إلى المتعلّمين والنخبة المُميّزة. ليس أبعدَ من أوّل أمس، استقبلتُ في عيادتي فدوى ابنة المحامي المعروف رافع الصادقي التي درست في باريس وتزوّجتْ من شابّ فرنسي على رغم اعتراض والدها.

جاءت تشكو لي من تشبّثه بفرض وصايته في موضوع زِواجها من رجل غير مسلم. قالت لي إنّ علاقتها مع ميشيل حملتْ لها هناءة الحبّ والألفة، وأسعفَتْها على تمثّل قيم أخرى منفتحة على فضاء رحب، ومن ثم قرّرا الزواج؛ إلّا أنّ أباها اشترط أن يعلن الزوج إسلامه! وهو الأب نفسه الذي شجّعها على إتمام دراستها في فرنسا، وكان فخورًا بتفوّقها ومُعجبًا بإنجازات حضارة الأنوار وإشعاعاتها. والمعضلة بدأتْ، تحكي فدوى، حين استدعى أبوها عائلة ميشيل للتعارُف، فأفرط في بذخ الضيافة وتقديم الأطباق النادرة، والتواري وراء الفخفخة ومظاهر الأصالة. «كلّ هذا صدم عائلة ميشيل، لكنّ النقطة التي أفاضتْ كأس غضبي هي اشتراطه إعلان إسلام مَنْ أتزوّجه. حاولتُ أن أقنعه بأنّ هذا الاشتراط غير منطقي وأنّ شكليّته تبعث على السخرية، غير أنّه ظلّ متشبّثًا برأيه فقرّرتُ الزواج من ميشيل متحدّية العائلة، أو بالأحرى الوصيّ عليها». وحكتْ لي فدوى عن التوتّر الذي رافقَ تجربة زواجها مدّةَ ثلاث سنوات، أقنعتْ بعدها ميشيل بضرورة الانفصال، وعادت إلى المغرب لتعيش تحت ضغط اجتماعي وعائلي ينغّص حياتها. هي الآن تعيش بمفردها، منقطعة عن أسرتها أوْ تكاد، تُخالط صديقات تعِشْنَ على الهامش، وتعاني هي من هذا الفُصام الشكيزوفريني الذي حوّلها إلى إنسانة فاقدة للبوصلة. هي تبكي وأنا عاجزة عن أن أصف لها علاجًا. حاولتُ أن أحثّها على مقاومة مجتمع يسحق، غير مبالٍ، شبابه. قلتُ لها البنات هُنّ جيل اللعنة، والجريئات مِنْ هنّ لهنّ فضيلة ممارسة حرِّيّتهن ولوْ أنّها حرِّيّة مقترنة بالتعذيب والتهميش. قلتُ لها أيضًا إنّ الذين

ينصّبون أنفسهم أوصياء إنّما همْ يتشبّثون بسلطة وهميّة، لأنّهم مخصيّون أمام السلطة السياسيّة فيستأسدون على النساء.

أصدقك القول، لم أتعامل مع فدوى بوصفي طبيبة نفسانيّة وإنّما كامرأة متعاطفة مع مأساتها، لأنّها تذكّرني بالأسئلة التي حاصرتْني وأنا في مطلع حياتي حائرة مُتردّدة أمام الطرق المتشابكة التي تحوطني. كنتُ في سبعينيّات القرن الماضي ممتلئة ثقة وتحدّيًا، وكلّ الآمال كانت تبدو دانية القطاف. التمرُّد وتغيير الحياة الخاملة الموروثة، وتكسير طوْق الدّونيّة المحيط بالنساء، تلك هي الأهداف التي كانت تتلألأ في سماء الجيل المتعلّم الذي أنتمي إليه بمَنْ فيهم الرجال الشبّان، ولو أنّ جُلّهم انفضحتْ نزعتُهم الذكوريّة، التفوّقيّة، عند المعاشرة الحميمة. لكن ما يسترعي الانتباه هو فترة السبعينيّات تلك، التي كانت تبدو لي زاهية، واعدة بتحقيق المعجزات. لا أدري كيف أحدّد المناخ الذي ميّز تلك الفترة وجعلها زمنًا للحلم والتفكير بصوتٍ مرتفع، والجري وراء «الأتوبيا الضروريّة». هي فترة مُناقضة تمامًا للمناخ الملتبس الذي نعيشه اليوم متدثّرًا بأردية التفاؤل الكاذب.

أبادر إلى القول إنّني لم أكن بتولاً عذراء في سبعينيّات القرن الماضي، خلال دراستي الجامعيّة بالرباط. كانت جرأة الطالبات على اكتشاف مكنونات جسدهنّ، والبحث عن الحبّ، جزءً من مناخ التمرّد وَالتطلّع إلى التغيير. كانت منظّمة الطلّاب تنظّم سهرات راقصة للتعارف وتثبيت الاختلاط والحلم بقصص حبّ في ظلال الجامعة. وكان وعيُنا آنذاك يدفعنا إلى التمرّد على

التقاليد التي تحثّ على صيانة الجسد «طاهرًا» قبل الزواج. كنّا ندرك أنّ مثل هذه التعاليم تلغي حقّنا في أن نعيش حاضرنا وَنخوض التجربة بانفعالاتها وخصوبتها وأخطائها... اللحظات التي تملأ ذاكرتي إلى الآن، هي تلك المتّصلة بمغامرات الجامعة بحثًا عن حبّ متوَهّم تنسجه النظرات المتبادلة، أو استجابة لرغبة عابرة في امتصاص شفتيْن لهما تكويرة الكرز اليانع، أو نزوة استكشاف ما تحت القميص والتبّان، أو تبيُّن مدى الإثارة التي يفجّرها جسدي لدى زميل يحرص على أن يتغزّل فيّ بوقار لا يطفئ عطشي. لم يكن لجميع الطالبات الإمكانات والسلوك نفسه، لكنّني أتحدّث عن اللائي كنّ حريصات على مشاطرة الطلّاب الجريئين مغامرةَ التمرّد والتعبير عن الذات واستنطاق رغبات الجسد. ولم يكن ذلك يتمّ دائمًا في وضح النهار، بل غالبًا ما كنّا نلجأ إلى التحايُل واختلاق الأعذار للتغيُّب عن البيت ليلة نهاية الأسبوع. نوعٌ من التواطؤ مع أبي كان يسهل تمرير لعبة المواعيد الغراميّة والسفريّات القصيرة مع زميلات وزملاء. المهمّ أنّني كنت أبدي نضجًا في التعبير عن نفسي وتحليل ما يعيشه المجتمع. وهذا مظهر كان يُطمئن والدي على أنّني أعرف أين أضعُ قدمي وسط الأدغال والمزالق. وأظنّ أنّ أوّل ما استوعبتُه من معاشرتي للطلبة، هو أن أميّز بين الرومانسيين الذين ينشدون العذاب والكآبة في علاقتهم بالمرأة، والذين يعطون الأسبقيّة للتجربة واللمس واللحس قبل أن يتأكّدوا من النموذج الذي هو أقرب إلى الصنف المثير لغريزتهم وعواطفهم وبناء علاقة ممتدّة... وأنا من هذا الصنف الثاني. لذلك تجنّبتُ خوضَ

مغامرات مع الباحثين عن قصّة تسقيها الدموع، وتتعيّش على أغاني فريد الأطرش. وأظنّ، على ضوء ما عشتُه من تجارب، أنّ المرأة تستوعب أسرع من الرجل تفاصيل الجسد وميولاته ونزواته المتخفّية. من ثم تعلّمتُ التمييز بين مَنْ يريدون من علاقتهم بالمرأة نسْجَ لحظاتٍ رومانسيّة يستظلُّون بها من رمضاء الهجير وصخب العالم، ومَنْ تحرّكهم الغريزة الصاخبة في الدماء والافتتان بِلُغة الجسد والإنتشاء الملموس. وأنا تعلّمتُ ألّا أكون مجرّد دميةٍ في خدمة رغبات الآخر. أنا لا أتظاهر بالغبطة في أحضان مَنْ لا يستطيع إرواءَ شهوتي مكتفيًا بالكلمات الرقيقة، فيما جسدي يستعِرّ ويتحرّق. تعلّمتُ ألّا أستجيب إلّا للذي يلاحقني ويطرق بابي وهو قادر على الانتصاب، مُزوّدًا بتلك الآلة اللحميّة التي تستطيع أن تبعث فيّ اللذّة وتقذف بي إلى أقاصي المتعة والحلم. العاطفة والتفاهُم طريقُهما ملموس، يمرّ عبْر الأجساد المعبّرة بحرّيّةٍ عن الكامن في الأعماق. وهذه نقطة الانطلاق في تحقيق التوازن الحياتي. حاولتُ أن أبني علائقي على هذا الأساس لكي لا أغمض العين عن عنصر أعتبره ضروريًّا لاستكمال تطلّعاتي في مجال المعرفة والعمل والحلم المتجدّد بالسعادة. لا أقول إنّ هذا الحدس كان مصيبًا دائمًا، وأنّه جنَّبني المطبّات؛ لكنّه أبْعدني عن متاهات المآسي والميلودرامات المصطنعة. التعثّر، أو خيبة الأمل، أو ما شئتَ من كلمات تنتمي إلى القاموس نفسه، صفة مُلازمة لسيرورة وجودنا؛ إلّا أنّ الفرق شاسع بين الذين يُجابهُون الحياة من موقع تجريدي رخْو، يُلغي الملموسيّة وإشراك الجسد، والذين يرتمون في أتون تجربة الوجود

لحْمًا وَعظْمًا، فكرًا وَعاطفة، نُشدانًا لِلْمصهر الذي يصهر الملموس والمحسوس والمحلوم به، ويُعيد شخصيّتنا إلى الأرض ومنبتها الشوكيّ، الخشِن.

أمضيتُ أربع سنوات في شعبة الفلسفة وعلم النفس بكلّيّة جامعة الرباط، لأنّ أبي أقنعني بتأجيل سفري إلى باريس، إلى ما بعد حصولي على الإجازة. كانت سنوات سبعينيّات القرن الماضي، فترة توتّر سياسي دائم بين الملك والمعارضة؛ وأدّى حظرُ اتّحاد الطلبة إلى بروز جمعيّات متعدّدة الانتماءات تتحدّث باسم الطلبة، ولم يعد هناك منبر للحوار المفتوح بين كلّ الاتّجاهات، وانكفأ الشباب داخل الصمت والانتظار، أو داخل تنظيمات حزبيّة معدومة الفعاليّة. أنا كانت لي صداقات متنوّعة، إلّا أنّني لم أكن أحسّ أنّ الالتزام السياسي هو ما يستجيب لتطلّعاتي إلى تغيير المجتمع. كنتُ أستشعر ثقلَ الموروث وضخامة المعوّقات المتغلغلة في عمق النسيج الاجتماعي والسلوكي. من ثم أقبلتُ على قراءات موسعة في علم النفس ونظريّات سيجموند فرويد، مقتنعة أنّ هذا هو المدخل لاستجلاء الغوامض التي طالما حيّرتْني وأنا أعيش مراهقتي ومطلع شبابي باحثة عن نموذج يتناغمُ مع الأحلام التي هدْهدتْ فترة اكتشاف لذائذ الجسد اليانع، وسحْر المعرفة، وتجربة إثبات الذات وسط مجتمع يحمل عقابيل الذكوريّة الوصائيّة، ومراسيمَ دُونيّةِ المرأة. كنتُ أعيش في المغرب، وأفكاري وأحلامي دائمًا سارحة في باريس بوصفها فضاء الخلاص، ومجال التحقّق.

أتذكّرُ، ما أزال، لحظة وصولي إلى مطار أورلي: الدهشة

والغبطة والتهيُّب، وسائق التاكسي يسألني عن بلدي ويُبدي إعجابه بمراكش وفاس وبالمطبخ المُتفنّن في توليف التوابل وإنضاج الطواجين... هو يتكلّم بلهجته الباريسيّة، وأنا أنظر عبر زجاج السيّارة إلى البنايات والمعالم وأرتال السيّارات المتسابقة على الطرق السيّارة الفسيحة. لم تكن هذه صورة باريس التي انتسجتْ ملامحها في مخيّلتي عبر الصور والأفلام وأحلام اليقظة. هذه ملامح، على جِدّتها وتنوّع تضاريسها، تبدو لي أقرب إلى المظاهر المشتركة بين عواصم العالم المتقدّم؛ أمّا باريسي أنا فهي لا تشبه فضاء آخر، لأنّها كتلة من الفكر والفنّ والأدب والأزياء الأنيقة والنساء الفاتنات والرجال الساحرين... هي مدينة لا يخبو إشعاعها ولا يمكن أن تُرى بالعين المجرّدة، لأنّ كلّ ما يحدث فيها ينطوي على أبعاد تصبّ في نحْتِ أنموذج الحضارة الراقية... أمضيتُ بضعة أشهر قبل أن أتخلّص من هذه الصورة الناصعة، النورانيّة، المثاليّة التي استقرّتْ في اللاوعْي مِنّي عبْر إعجابي بإنتاجها الفكري والفنّي، فحسِبتُها مصنوعة من طينة مغايرة لبقيّة المدن. ومن خلال انتزاع هذا الوَهْم بدأتُ أستعيد تفاصيل باريس في مادّيّتها وابتذالها، في سحر المعمار ورماديّة السماء، في تلقائيّة البسطاء وعنجهيّة الموسرين، في بصيرة المثقّفين وحربائيّة الساسة المحترفين... وما حبّبَ إليّ صورة باريس هذه، المعقّدة والمتناقضة والمتعدّدة، هو الشفافيّة المرافقة للأفعال والمواقف والخصومات الجداليّة. ما مِنْ قوْل أو فعلٍ أو قرار يظلّ من دون ردّ فعل: حرّيّة لامُتناهية تسمح لكلّ الآراء أن تُعرب عن نفسها، من أقصى اليمين كانت أو من أقصى اليسار.

أصبحتُ أعيش الحدَثَ مصحوبًا بالصدى، وأقرأ الرأيَ ونقيضه، وأرى رؤساء الجمهوريّة السابقين وكبار المسؤولين يخضعون للمساءلة القضائيّة إذا ارتكبوا مخالفة تمسّ المال العمومي أو تنطوي على اختلاس أو تدليس. لا أحد يفلت من قبضة العدالة حتى بعد مرور سنوات على الجُنحة أو الجريمة. كنتُ أستيقظ كلّ صباح وسعادة خفيّة تغمرني لأنّني أعيش في بلاد رئيسُ جمهوريّتها ومسؤولوها هُمْ بشر مثل بقيّة المواطنين، لا حصانة أو قداسة تجعلهم فوق القانون. مهما اتّسعتْ شعبيّتهم وقويَ نفوذهم، يتجرّؤُ المهرّجُون الساخرون (كُينيُولْ) على السخرية منهم وتهزّيء حركاتهم وطريقة كلامهم وانتقاد أفكارهم... أحسّ أنّ سكّان هذه البلاد يعيشون جميعًا فوق الأرض ويتصارعون في ظلّ قوانين هُمْ أمامها متساوون كأسنان المُشط. ومَنْ أراد بعد ذلك أو قبله أن يُحلّق في السماء وأقانيمها وقُدسيّاتها، فليفعلْ دون أن تتاح له فرصة الضحك على ذقون العباد!

ويبقى أهمّ منجزات إقامتي في باريس، فضّ البكَرَة الذي سجّلتُ تاريخ ليلته في دفتري الذهبي لأحتفل بذكراه كلّ سنة. صحيح أنّني لم أكن بَتولاً صَائمة عن الجنس في المغرب، إلّا أنّ مغامراتي مع الطلبة لم تكن تُجاوز الاستمتاع والتلذّذ بجميع أشكاله خارج عمق البَكرة، تجنُّبًا لمشكلات لم أكن قادرة على مواجهتها. من ثم فإنّني أتذكّر جيّدًا ليْلة فضّ بكَرَتي في باريس لأنّها تمّتْ في سلاسة وعُذوبة، وجعلتْني أتحرّر من وَهْم تربّيْتُ عليه يربط الشرَفَ بالبَكارة! وأنا متأكّدة الآن، أنّ شخصيّةَ رجْياني الطالب الإيطالي، هي وراء فرحتي بالانتقال من مرحلة العُذرةِ

والعِذار، وممارسة الجنس على طريقةِ تمرير الفُرشاة، إلى مرحلة الإيلاج المُتوغّل الذي به استكمَلتُ أنوثتي. مِن السطْح إلى العُمق هي دائمًا رحلة تخلخلُ الكيان وتُحدث الدوْخة الفاتحة للبصيرة. كنتُ التقيتُ رجياني في جامعة فانسانْ حيث كنّا نتابع محاضرات المحلّل النفساني كاتاري، والفيلسوف دولوز عن عُقدة أوديب وإعادة تأويلها. . . كان رجياني وسيمًا، تلقائيًّا، ولغته الفرنسيّة المحدودة تجعله يعبّر عن نفسه مباشرة من دون لفّ أو دوران. وسرعان ما اكتشفتُ أنّ بيني وبينه أشياء مشتركة. هكذا انطلقتْ مغامرتنا: من الثقافة إلى الغزَل، ومن الغزَل إلى التحام الجسديْن دون حلْفٍ أو قسَم، ولا تعاهُد أو تصريحات طنّانة. بل جاء الالتحامُ متدثّرًا بالاستلطاف المتبادل وعلاقة مفتوحة على كلّ الاحتمالات. ليْلة فضّ البكرة امتدّتْ إلى طلائع الفجر، يُعطيني هو فأستزيد، وأغدق عليه من أنوثتي فيصحو من استراحة المحارب ويُعاود الغزوَ والاقتحام. في تلك الليلة، ازداد اقتناعي أنّ الحياة إنّما تحلو باغتنام اللحظات التي تهَبُنا المتعةَ والحبّ والتواصل العميق؛ لأنّنا لم نُخلَق لنتفرّج على الأيّام تمُرّ أمامنا مُتشابهةً في رتابتها. أظنّ أنّ حدسي أقرّ في نفسي أنّ رجياني خيْرُ مَنْ يأخذ بيدي لأتخطّى العَتَبة وأرتاد المحظورَ الذي يُفضي بي إلى مُعانقة ضوْءِ الصباح الشفيف، وكأنّني مسترخية، غافية إلى جانب داليةٍ تتلألأ قطراتُ النّدى على أوراقها.

بعد أشهُر، عاد رجياني إلى بلاده. تواصلت الرسائل بيننا زمنًا ثم تباعدتْ لتتحوّل إلى كلمات إلكترونيّة قصيرة في بعض المناسبات. تلاشت العلاقة المحمومة التي أيقظت الجسد

والحواسّ ووفّرتْ لي تجربة الحبّ خارج التعاقُد والمواضعات. تلاشتْ أو استنفدتْ مداها، وبقيَ عِطْرُ الانتشاء وسوْرةُ اللحظات المشتعلة، الهوجاء. لكن، كلّ مَسامّي كانت متفتّحة لاستقبال تجارب جديدة تضبط إيقاع الجسد وتعاريج النفس المتشعّبة. بدأتُ أحسُّني أكثر نضجًا ووُثوقًا وجرأة. وها إنّ الصدفة تضعُ في طريقي «سالم» الذي كان ينهي تخصّصه في فرع دقيق من الاقتصاد، له علاقة بالماركيتينغ ودروب التسويق والتصدير والاستيراد، والاستفادة من فرص العولمة في مغرب يعاني من الأزمة ويستنجد بالتكنوقراط... غير أنّ منشأ علاقتنا كان في إطار لا يخلو من رومانسيّة ومرح، أثناء حفل راقص أقامه صديق في دار اليابان بالحيّ الجامعي. أكلٌ وشراب، وضوء خافت مُلوّن، وصَخبُ المدعوّين والمدعوّات الفرحان، وسالم الصبوح الأنيق، ذو اللسان المُدرّب والعبارات المنتقاة يطوف على الموائد متعرّفًا على الحاضرين، مُتلكّئًا عند كلّ طاولة تجلس إليها فتاة جميلة... مِنْ هنا بدأ الاشتباك بيننا عبْرَ عمليّة افتِتَانٍ بدأها منطلقًا من اسمي، مُتغزّلاً بالنباهة والذكاء عندما يستظلّان بالجمال الذي «يُسمِع» مَنْ بهِ صمَمُ. «نبيهة سَمْعان: سُبحان مَنْ جعَلَ الاسم مُطابقًا للمُسمّى!». ووَجدتُني أنجذب إليه وأطيلُ المحادثة وأستجيب إلى دعوته لمُراقصتي. وسرعان ما أخذتْ علاقتنا طريقها نحو الأعمق فالأعمق. عشاءات وسهرات، سفريّات نهاية الأسبوع، مشاهدة أفلام ومسرحيّات، اعتصامات بالفِراش تُعدّل المزاج وتتشحّذ البصيرة. وخِبْرةُ سالم بالمرأة وعواطفها ومكامن جسدها أضفَتْ على تجربتنا غلائل سحريّة لا يمكن أن نسجنها

داخل مُسمّى أو تصنيف. نبدو في أعيُن الأصدقاء والصديقات أقرب ما نكون إلى زوْج متناغم، نعيش اندفاعة الحبّ وتجاوُب الجسديْن. وكان سالم معجبًا باختياري تخصّصَ التحليل النفساني ومشاركًا لي في كثير من الأسئلة التي وجّهتْ اختياري. وعلى رغم أنّ سالم كان متقمّصا شخصيّة التكنوقراط المُعتقِد في نجاعة الاقتصاد وآليّاته لإصلاح الأدواء المُزمنة، فإنّه كان يُقرّ معي أنّ التغيير المنشود متشعّب، يقتضي تكاملاً يبدو بعيدَ المنال. إنّما، هذا الإقرار بصعوبة الإصلاح لم يكن ليجعل اليأس يفلّ عزيمتنا أو يدفعنا إلى الخمول. نحن ننتمي إلى فئة المتعلّمين، المتخصّصين، الذين تنْتظرُهُمْ وظائف سامية، وإذن علينا أن نبْدوَ متفائلين عندما تُطرَح مسألة المستقبل ودخول المغرب إلى دائرة الحداثة ومنطق العصر. موقف ملتبس، مزدوج، يلتحف التفاؤل ويتناسى ثقلَ الموروث، لكنّه الموقف الوحيد الذي يجعل الاستمرار في لعبة التجاوُر بين محظوظين ومهمّشين، مُمكنة.

دامتْ علاقتي بسالم ما يقرب من ستّة أشهر، خلالها عشتُ لحظات هنيّة وتقدّمت على طريق التخصّص واتّسعت الأسئلة التي تشغلني وتشحذ حوافزي... إلّا أنّ علاقتنا أخذتْ تتعرّض لامتحانٍ زعزع قناعتي: بدأتُ أحسّ أنّ سالم يفتح بابَه لعلاقات نسائيّة موازية. ولستُ أدري كيف غاب عن بالي أنّ ذلك واردٌ، خاصّة وأنّني أعرف أنّ شبكة مغامراته متّسعة، وأنّه من صنف الرجال المطلوب عند الباحثات عن استمتاع عابر أو مؤانسة تطفئ الملل. وفضلاً عن ذلك، كثيرًا ما كان سالم يلحّ، خلال فترة التعارف، على أهمّيّة العلاقة المفتوحة بين الرجل والمرأة، لأنّها

تحرّر الجسديْن، تحمي من الغيرة، وتستجيب لتعدّديّة الرغبة والغريزة لدى الذكر والأنثى على السواء. كنتُ مقتنعة بما يقوله دون أن أستشعر حرجًا في تنوّع العلائق العاطفيّة والجنسيّة؛ غير أنّ تجربتي مع سالم أيقظت بأعماقي حالة غير مسبوقة، ووجدتُني نهْبًا لمشاعر الغيرة والقلق واللاطمأنينة. حاولتُ أن أتقبّل وضعَ التشارك فلم أستطع. عندئذٍ قرّرتُ الابتعاد عن سالم وأنا أعلم أنّني سأمضي فترة اضطراب وحنين مؤلمة، قبل أن تندمل الجراح.

ليلة توديعه ما أزال أذكرها. اختار سالم مطعم «النورس التائه» وراء كوليج دو فرانس الذي يعود تاريخ بنائه إلى منتصف القرن الخامس عشر. قاعاتُه متداخلة وأثاثه يتدثّر بالعتاقة، وهو نفسه المطعم الذي دشّنا فيه علاقتنا المحمومة. طلب لنا، كالمُعتاد، طبق البطّ المحفوظ في الدُّهن، وزجاجة نبيذ أحمر من قصْر بمنطقة كرافْ، ثم انطلق يحكي عن الأوضاع العامّة في فرنسا، مستعملاً تعبيراته الساخرة، المتشكّكة في قدرة الاشتراكيين على تحقيق العدالة الاجتماعيّة. . . كنتُ أستمع إليه وذهني مُنصرف إلى ما جئتُ من أجله، أن أضع حدًّا لعلاقتنا التي باتتْ تُقلقني وتشتّت الجهود التي أبذلها لاستيعاب ما يُؤهّلني لممارسة المهنة التي أحلم بها.

اغتنمتُ فرصة سكوتٍ، عند انتهاء العشاء، وبادرتُه بالقول:

«لا حاجة يا سالم، لأن نُعيد الكلام حول علاقتنا المُتعثّرة. أظنّ أنّك مثلي مقتنع بضرورة الافتراق».

قال وهو يضغط على كأس النبيذ بين كفّيْه، *كنتُ آمل أن تتفهّمي هذه النزوة التي تعتريني بين حين وآخر، لأنّني أستشعر معكِ ارتياحًا وحميميّة لم أصادفهُما مع أخريات.*

تلفّظ كلمة الحميميّة التي أجدها أقرب إلى وصف عمق الالتباس بيننا. الحميميّة هي من صفاتِ ما درج الناسُ على تسميته الحبّ. وأنا كنتُ أجد هذه التسمية مُغرقة في الضبابيّة والتجريد. أمّا الحميميّة مع رجل فوق الفراش، دون حرج أو تحفّظ، فهي تجعلني «ألمس» ذلك الالتحام الذي يُخرجني، موقّتًا، من جلدي و«أناي». هي حميميّة تُطوّح بي إلى أصقاع اللذّة والهذيان، وتُشرف بي على مناطق الحلم واللحظات النادرة، الهاربة.

سأدركُ في ما بعد، خاصّة وأنا أستمع إلى مرضايَ الممدّدين على الأريكة، أنّ الحبّ ناشئٌ عن غياب، عن فُقدانِ مَا يُوهِمُنا بأنّ وجوده شرط لاستمرار التوازن في حياتنا. بينما أجد أنّ الحميميّة تنطوي على المحسوس والملموس في آن، أي ذلك النابع من مادّيّة الجسد والمستمرّ عبر المخيّلة والاستيهام.

أتفهّمُ بواعث نزواتك، قلتُ. لكنّني لا أحتمل مواصلة الرحلة معك. طريقانا متعارضتان، والأفضل أن نفترق الآن.

كنتُ فكّرتُ طويلاً قبل أن أسعى إلى هذه النهاية. وأظنّ أنّ ما أسعفني على اتّخاذ قرار الفراق، هو ما ادّخرتُه من انطباعات وأفكار عن نساء رائداتٍ تشبّثْن بالتحدّي لمواجهة اللحظات الصعبة في مَسارهِنّ نحو فرض الذات. وأنا أذكر جيّدًا، خلال

دراستي الجامعيّة بالرباط، أنّني استشعرتُ الاحتياج إلى نماذج نسائيّة تمنحني الزادَ والمعونة وسط مجتمع غارق في تمجيد الذكورة وتفوّق الرجل على المرأة. وأظنّ أنّ استحضار سِيَر النساء المتمرّدات أمَدّني بقوّة وشجاعة كنتُ متعطّشة إليْهما. ما كان مُمكنًا ـ وأنا أستعيد الآن مساري ـ أن أصمد وأتابع الطريق الذي حلمتُ به، لولا ما اختزنتُه في ذاكرتي من وقائع عن حيوات نساء حقّقْن الكثير في أرجاء العالم. لم أعثر على سيَر نساء نموذجيّة من بلادي، لذلك شغفتُ بأسماء كاتبات وفنّانات ومناضلات تقترن أسماؤهنّ بالجرأة والإسهام في تغيير الأوضاع المزرية، الموروثة.

كنتُ أحسّ بدمٍ جديد يسري في أوردتي وأنا أقرأ حياة جورج صاند أو بعضٍ رواياتها (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦). كاتبة أثبتتْ ندّيّتها للمبدعين الكبار، وعاشت حياتها بالطول والعرض، مُصاحبة الشاعر ألفريد دو موسيه والموسيقي ليسْتْ، مرتدية زيّ الرجال، متعيّشة من قلمها، ضاربة عرض الحائط بانتقادات المجتمع البورجوازي...

ووجدتُ في الكاتبة كوليت ويلي (١٨٧٣ ـ ١٩٥٤) امتدادًا وتنويعًا لِمَسار صاند: التحدّي والجرأة والبوْح بمشاعر ونزوات الذات الخفيّة في نصوص تتدثّر بأسلوب ولغة يفرضان الاعتراف بتفوّق صاحبتهما. جرّبتْ كوليتْ أكثر من شكل للكتابة، وخاضتْ غمار الصحافة، ومثّلتْ على مسرح الميزيك ـ هولْ، وتنبّهتْ إلى تحوّلات السلوك في فرنسا مطلعَ القرن العشرين، فكتبتْ «الصافي

وَالعَكِر» (Le pur et limpur) واصفةً تعاطي الحشيش والجنس بجميع أشكاله عند مَنْ لمْ يعودوا يجدون الرّوْق والاطمئنان في تقاليد الأجداد وقيم النفاق.

وكمْ تعاطفتُ مع لويزْ ميشيلْ (١٨٣٠ ـ ١٩٠٥) وهي تحكي في مذكّراتها عن مشاركتها في ثورة كومونات باريس (١٨٧١)، وحمْلها السلاحَ ضدّ أنصار المَلَكيّة والنبلاء. واجهتْ نفيَها إلى كالدونيا الجديدة بشجاعة وتابعت المقاومة في شكل جديد من خلال ربطِ علائق مع الكَناك Kanaks، سكّان جزيرة المنفى: سعتْ إلى تعليمهم الفرنسيّة، ودرست عاداتهم ومكوّنات هويّتهم، ووقفتْ إلى جانبهم عندما تمرّدوا على الاستعمار الفرنسي...

ووجدتُ سيرة الفنّانة النحّاتة كاميْ كلوديل (١٨٦٤ ـ ١٩٤٣) مثيرة للتعاطُف والحنَق في آن: هي التي أثبتتْ موهبتها إلى جانب رودان، ومَحَضَتْهُ الحبّ والاستمتاع، تُقابَل بقسوة المعشوق وتُنبَذ من لَدُنِ عائلتها. تنكّر لها رودان خوفًا من أن يهتزّ استقرار بيت الزوجيّة، وتخلّتْ عنها أمّها وأخوها الشاعر المرموق بول كلوديل تجنّبًا للفضيحة والعار! ألقوا بها في مصحّة للأمراض العقليّة وتركوها طوال ثلاثين سنة لتلفظ أنفاسها متوحّدة، هرمة، ذاوية.

ما كان لي أن أصرّ على تحقيق حلمي خارج الطريق التقليدي لولا أنّني تشبّعتُ بِسِيَر ومواقف مثل تلك النساء. غير أنّني فوجئتُ، عند وصولي إلى باريس، بالتعرّف إلى سيرة امرأة مصريّة لم أكن قد سمعتُ بها. أثارت انتباهي صديقةٌ كانت تحضّر

أطروحة عن حركة تحرير المرأة العربيّة، إلى اسم دريّة شفيق (١٩٠٨ ـ ١٩٧٥) التي درست في باريس وحملتْ لواء الدفاع عن حقوق المرأة المصريّة، مُتحدّيةً سَدَنة المعبد الذين يتذرّعون بالإسلام لتبرير وصايتهم على المرأة. مفاجاة التعرّف على دريّة حرّكتْ لديّ سؤال المرأة، انطلاقًا من تجربة مرّتْ فصولها في مجتمع له ملامح مشتركة مع مجتمعي. وعلى رغم أنّني كنتُ مطّلعة على كتابات قاسم أمين وهدى شعراوي، إلّا أنّ تفاصيل حياة دريّة وكتاباتها المتنوّعة بين دراسات ومقالات وقصائد، جعلتني أحسّ بتعاطف وانجذاب إليها. في العمق، أنا لا أتجاوب كثيرًا مع الشخصيّات المرموقة، التاريخيّة والمعاصرة، التي لا تكتب عن نفسها وعن أسئلة مجتمعاتها وعذاب الرحلة إلى أعلى الهرم. أجدُ في مثل تلك الكتابات، حتى وإن تدثّرتْ بتضخيم الأنا وإعلاء شأنها، مدخلاً إلى الاقتراب من اللحظات الكاشفة عن جوهر الشخصيّة ومدى اختلافها عن الآخرين والأخريات. في الكتابة وشاية بملامح الأنا المستترة التي تتحدّى الأقنعة والصور الجاهزة.

دريّة شفيق، على رغم إعجابها الكبير بهدى شعراوي، سلكتْ طريقًا مُغايرًا هو أصعب وألصقُ بأسئلةِ حاضر المرأة العربيّة. لمْ تكن تحتمي بحزبٍ أوْ طبقة غنيّة، ولم تكن تُهادن أو تُراوغ لتحقيق مُكتسبات ذاتيّة؛ بل اعتمدتْ على مجهوداتها الخاصّة، مُتوسّلة بالمعرفة التي اكتسبتها من دراسة الفلسفة في باريس، ومن تأسيسها مجلّتيْن نسائيّتيْن، واتّحادًا للمرأة وعلائق عبر العالم تُعرّف بمطالب المصريّات في مجال المساواة السياسيّة

ودخول البرلمان. . . في عهد الملك فاروق، كما في عهد جمال عبد الناصر، حافظتْ على سمة التحدّي والجذريّة. لم تكن تقبل وصاية الرجل، ولا الفروق الموروثة، فانطلقتْ وراء تحقيق أحلامها في التحرر والمساواة، متسلّحة بالعلم والجمال والأناقة والقدرة على الإقناع. ذهبتْ، وهي الزعيمة الجميلة، في رحلة حول العالم لتُسمع صوتَ المرأة المصريّة: من أميركا إلى الهند حيث استقبلها جواهر لال نهرو، ومن باريس إلى إفريقيا، داعية ومبشّرة. ومع مجيء الثورة الناصريّة، استمرّتْ في المُطالبة وتعبئة طلائع النساء، ما جَعَلَ السلطات تضعها تحت الإقامة الإجباريّة سنةَ ١٩٥٧.

مع تقييد حركتها ومُصادرة مجلّتها، أخذتْ شعلة دريّة تنطفئ، وسرعان ما انكفأتْ على ذاتها وانفصلت عن زوجها، وانتهى بها المطافُ إلى الانتحار مُلقية بنفسها من الطابق السادس للعمارة التي تسكنها، سنة ١٩٧٥.

تفاصيل كثيرة في حياة هذه المرأة المختلفة تشُدّني إلى تجربتها؛ إلّا أنّ ما استوقفني كثيرًا، تلك القصائد التي كتبتْها باللغة الفرنسيّة وصدرتْ عن دار النشر للشاعر سيغر في باريس. وقد لا تكون القيمة الجماليّة لشعرها مُقنعةً اليوم، غير أنّ المزاوجة بين الفعل والمعارك وَكتابة قصائد تستوحي صوت الذات، هو ما أثار اهتمامي:

«أيّها الشعر

في هذه الصحراء

التي فيها أغوص

تفتح أنتَ لي أكثر من درب

في هذا الصمت المريع

الذي يحاصرني

في خضمّ عذابات صيرورتي

تسمح أنتَ لي بالحركة».

استطاعتْ أن تضبط إيقاع حياتها على بندول يتراوح بين الفعل الدؤوب، والتأمّل والكتابة: من اجتماع إلى محاضرة، ومن كتابة افتتاحيّة لمجلّة «بنْت النيل» إلى لقاء آخر النهار مع زوجها وبنتيْها. وقبل النوم، تتسلّل إلى مكتبها لتكتب قصيدة عن ذلك «المُطلق» الذي يشغل بالها، وتحلم بالوصول إليه:

في مدينة باريس

كثيرًا ما شعرتُ بالجوع

وفيها بحثتُ عن العلم

وفيها تعلّمتُ الفلسفة.

كنتُ أتوق للحياة

بمعناها المطلق

مُحرَّرة مُطهّرة

من كلّ ما يشينُ.

سعيتُ طويلاً إلى المنتهى

وظللتُ «الباحثة عن المطلق»

كعهْدي سابقًا

في مدينة باريس.»

طوالَ خمسين سنة، وهي تجري وراء ذلك المطلق من خلال العمل على تحرير المرأة وإشراكها في اتّخاذ القرار، وتثبيت مساواتها مع الرجل ومع نساء العالم المتحضّر. لا أحدَ يستطيع أن يحدّد من أين كانت دريّة تستمدُّ قوّتها وإصرارها، ولا كيف التحفَتْ بالكبرياء وآثرت الانتحار على الهزيمة؟

لا أخفي أنّني انجذبتُ إلى قصائدها. وجدتُها أشبه بالهمسات المعبّرة عن الذات الأخرى الكامنة وراء رشاقة جسد دريّة وجمالها، ووراء طاقتها في النضال والإقناع. وُثوقُها في نفسها جعلَها تثق في نساء بلدها وتقبل التضحية بحياتها الخاصّة في سبيل القضيّة. ومن يدري، فقد تكون افتُتِنَتْ بالزعامة والشهرة العالميّة، فأعرضتْ عن الواقع ومنطقه، وجرتْ وراء حلمها إلى أن أفاقتْ على صدمة المحاصرة والرقابة البوليسيّة؟ لكن، يبقى انتحارها، مَهْما كانت الأسباب، شهادة ضدّ الاستبداد والقرار الفوقي.

أنا كامرأة مثقّفة، باحثة عن نموذج يسندني في رحلتي نحو تحقيق الذات ومقاومة طغيان الذكورة، وجدتُ في كتابات دريّة شفيق وقصائدها صوتًا يتسلّل بيُسْر إلى نفسي. أعجبتُ أيضًا

بصلابة إرادتها وقدرتها على الإنجاز. ولأنّها عاشت في بيئة مسلمة وحرصت على أن تفهم الدين من منظور متفتّح، لا يتعارض ومنطق العصر، فقد وجدتُني أميل إليها أكثر من بقيّة النماذج النسائيّة المتميّزة التي أشرتُ إليها. لكن، لمّا كانت مياه غزيرة قد جرتْ تحت الجسْر منذ رحيلها، فإنّ بوصلة تفكيري اتّجهتْ إلى سؤال المرأة العربيّة اليوم، في سياق التحوّلات المُتسارعة واستمرار شراسة الوصاية البطركيّة وفزّاعة التقاليد والأخلاق الموروثة...

أعلم وأنا أتحدّث عن دريّة بهذه الطريقة المختصرة، أنّ ما شدّني إليها هو ما لا يمكن اقتناصُه ضمن التعميم. ذلك أنّ حياة شخصٍ ما، تكمن أساسًا في تلك النُّطفة المجهولة التي تجعله يخوض معركة عنيفة مع العالم الخارجي، مع المؤسّسات التي لا تحفل بخصوصيّة الفرد ونزواته وأحلامه. أقصدُ بذرة التحدّي التي يصعب النفاذ إلى جوهرها، والتي تسبغ على رحلتنا الحياتيّة مذاقًا مختلفًا، وتفاصيل مسرفة في الخصوصيّة. مع ذلك، أتشبّثُ بالقصائد التي كتبتها دريّة شفيق لأقنع نفسي أنّها تنقل إليّ صوتها الداخلي الحامل سرَّ تألّقها.

أقول هذا لأنّني، في تلك المرحلة وأنا أبحث عن طريقي، كنتُ ممتلئة بما قرأتُ لدى كاتبات ومفكّرات لامسْنَ شغافَ القلب. كنتُ مقتنعة بما كتبتْه ودافعتْ عنه سيمون دو بوفوار في «الجنس الثاني» من أنّ المرأة لا تولد امرأة وإنّما تصيرها. وهذا ما أعاينه في المغرب حيث المجتمع بحاجةٍ إلى مخلوقات يضعهنّ

في مرتبة الدونيّة ليمارس عليهنّ القهرَ والوصاية ومباذل الشهوة (العيالات حاشاكْ)! وحتى عندما استطاعت جمعيّات الدفاع عن حقوق المرأة أن تحصل على تعديل المدوّنة المتّصلة بالوضع الاعتباري لنساء المغرب، فإنّ هيمنة الرجل مستمرّة بأشكال شتّى، والوعيُ بالمساواة واحترام حرّيّة الأخريات أبعَدُ ما يكون عن الممارسة اليوميّة. . .

أقول مع نفسي الآن، لعلّ هذا الوضع هو ما دفعني إلى اختيار الطبّ النفسي في التخصّص والمهنة. لا أعيش في سياق دريّة شفيق نفسه التي اختارتْ دراسة الفلسفة عند وصولها إلى باريس في نهاية عشرينيّات القرن الماضي؛ ولا أتوفّر على كاريزما تؤهّلني لقيادة جمعيّة نسائيّة، لكنّني حريصة على أن أجيب عن سؤال المرأة بالنسبة إليّ في زمن مغاير لزمن دريّة.

دعني أقُلْ لك، وراء اختياري يكمن مطمح التعرّف على سلوك الرجال والنساء من منظور الدوافع والعُقد ومكنونات اللاوعي وتجلّيات الجنس. . . مصطلحات كثيرة التقطتُها أثناء قراءاتي النهمَة في كتب تتحدّث عن سيجموند فرويْد ونظريّاته وفتوحاته في مجال النفاذ إلى خبايا النفوس. وكان لا بدّ أن أنكبّ في باريس على الطبّ النفسي والعلاج بالعقاقير وتفريعات هذا التخصّص. إلّا أنّ ما كنتُ أحلم به هو ممارسة التحليل النفسي الذي يُتيح لي الإنصاتَ إلى رجال ونساء لا صلة لي بهم من قبل، يطرقون باب عيادتي ليُفضوا إليّ بالأسرار والتفاصيل الحميمة التي تقبع داخل هياكل تبدو لي غريبة، صفيقة. لعلّه أيضًا

وهْمُ استيعاب ميكانيزمات السلوك ما كان يوجّهني، لأتمكّن من التفكير في تغيير القيم والعلائق من الداخل؟ ببساطة، أقول إنّ انجذابي إلى الطبّ النفسي، وبخاصّةٍ التحليلي منه، هو الحافز الذي وجّهَ إقامتي في فرنسا وأرضى غروري المتطلّع إلى امتلاك أداةٍ قيمتُها مرتفعة في سوق المعرفة والاحتراف على السواء.

أعفيكَ من سرد الصعوبات التي واجهتْني وأنا أبحث عن محلّل نفساني يحلّلني ليكتمل تأهيلي، وأقفز على معادلة شهادة الدكتورة بعد عودتي إلى المغرب، لأنّها مشكلات لا مناصّ منها. وقد استفدتُ من تمهيدات أنجزها زملاء نفسانيّون سبقوني على الطريق نفسها. وأوّل معضلة واجهتْهُم، كيف يقدّمون أنفسهم إلى الزبناء المحتملين؟ بعضهم كتب على باب العيادة: «طبيب العقل والنفس»؛ وآخرون اختاروا «طبيب الأزمات والاختلالات النفسيّة». إلّا أنّ معظمهم، كما علمت، يمارسون التحليل النفساني عندما يصادفون مرضى عصريين، متعلّمين، يدركون نجاعة التحليل.

لاحظتُ، بعد عودتي، أنّ الناس لم يعودوا متعلّقين باللجوء إلى أضرحة الأولياء الصالحين، المشهود لَهُمْ بمعالجة الحُمْق وظواهر الجنون. فَقَدَ «بُويا عمر» نجاعته في المخيّلة الشعبيّة، وأصبحت مستشفيات الأمراض العقليّة تجتذب المُكتئبين والانفصاميين والمنهارين تحت وطأة ضغط المدينة وإيقاعها السريع، المُدوّخ. ومَنْ لهم قدرة ماليّة، يؤثرون أطبّاء النفس الجُدد لأنّ سمعتهم اكتسحتْ فضاء الدعاية والإعلام، وأصبحوا

يساهمون بالمشورة والنصح في البرامج الإذاعيّة، مُتحدّثين بلغة دارجة تشوبها تعبيرات وكلمات فرنسيّة.

لمّا عدتُ إلى المغرب، مطلعَ تسعينيّات القرن الماضي، وجدتُ أنّ الطلب على مجال اختصاصي آخذ في الاتّساع لأنّ الاختلالات النفسيّة والعُقد والحرمانات عرفتْ «ازدهارًا»، وتنامتْ حتى في الأوساط الشعبيّة. ونشر المجلس الوطني لحقوق الإنسان تقريرًا حول الصحّة العقليّة أكّد فيه أنّ هذا المرفق مهملٌ في سياسة البلاد العموميّة، وأنّ هناك نقصًا كبيرًا في مُؤسّسات إيواء المصابين بالأمراض العقليّة والنفسيّة... وجدتُ، إذن، المناخ المتّصل بشروط مزاولة مهنتي مشجّعًا وَواعدًا، وكان عليّ أن أوفّق بين الفعاليّة المادّيّة، وإرضاء دوافعي الدفينة وراء دراسة الطبّ النفساني المعتمِد على العلاج بالكلام واستنطاق المحاصرين داخل العُقد والكبت الجنسي.

عند عودتي، كنتُ مزوّدة بعُدّةٍ من المفاهيم والنظريّات، مُقتنعة بقُدرة علم النفس وتطبيقاته العلاجيّة خاصّة في مجال التحليل. لكنّني وجدتُني، عند الممارسة، أفتح دائمًا بابًا للتخييل أستعين بها لأنسج سيرةَ مَنْ يُفضي إليّ بنُتفٍ وتذكّرات تسحضر رحلته الدنيويّة. وجدتُ أنّ الاستعانة بالتخييل لا تخلو من متعة، مصدرُها أنّني أغوص في تفاصيل سلوكِ أناسٍ يبدون غرباء عنّي قبل الشروع في الاستماع إليهم؛ لكن يكفي أن أستمع إلى بداية محكيّات المرضى لأحسّني معنيّةً ومتجاوبة مع ما يعيشونه. أتذكّر، مثلاً، جلستي مع رئيس مصلحة الحسابات في وزارة

الفلاحة الذي جاء يعرض عليّ حالة انحراف مفاجئ:

«... هذا عمره ما حصل لي. أنا قرّبْتْ من ستّين عام، ومتزوّج منذ أكثر من ثلاثين سنة. وهاد الأيّام، بمجرّد ما تدخل السكرتيرة الجديدة إلى مكتبي، وهي تبارك الله ما فضّلْتها عليك، عندها ابتسامة خلّابة وعينان عسليّتان، أحسّ أنّني لم أعد أنا هو أنا. الاضطراب والارتباك يسيطران عليّ وأنا أتحدّث إليها، بالأخصّ عندما تنحني مقرّبة وجهها وأنفاسها العطرة منّي لتُقلب صفحات الملفّات التي يجب أن أوقّعها... لا أريد أن أرتكب المحظور يا دكتورة، لأنّني متزوّج من سيّدة فاضلة، وتعاهدنا على الوفاء والإخلاص أثناء طوافنا بالكعبة في السنة الماضية...».

هو يحكي وأنا أتخيّل ملامح السكرتيرة ومشيتها وأنوثتها المتدفّقة التي ألهَمَتْها إلى موطن الضعف عند كهْلٍ محترم، يتعطّش جسمُه المَواتُ إلى جرعة من شبابها تنفض عظامه! لا أستطيع أن أقول له أنت في حاجة إلى هذا المحظور الموقّت لتستعيد حوافز العيش وتؤجّج رغبتك المتآكلة. لا أستطيع. أصبّر نفسي لأعرف كيف انتهت قصّته مع السكرتيرة، مُتمنّية في أعماقي أن يكون رئيس مصلحة الحسابات قد ضعُفَ واستسلم لإغوائها. لو تمّتْ حكايته على هذا النحو، لبادرتُ حينئذ، أنا الطبيبة، إلى تبرير زلّتِه مطمئنة إيّاه بأنّ الله غفور رحيم! هذا الانجرار إلى التخييل انطلاقًا ممّا يحكيه المرضى، أصابني بنوعٍ من الشرود وأفقَدَني التركيزَ على تفاصيل محكيّاتهم. وكثيرًا ما انسقتُ وراء سحر الكلمات واللغة التي يستعملونها، وانتقالهم من لغة الكلام المغربيّة إلى

الفرنسيّة، والاستشهاد أحيانًا بالأمثال والآيات القرآنيّة... وهو عنصر يضعني أمام تعقيدات مستجدّة، لأنّ ما درسته يحيل على لغة أمّ لا تتّصف بالثنائيّة والتعدّد. من ثم، لجأتُ إلى تسجيل كثير من الجلسات التي وجدتُ أنّ لغة محكيّاتها تفتح بابًا للتأمّل واستيعاب علاقة المرضى بذاكرتهم اللغويّة المختلطة.

على رغم طول معاشرتي للتحليل النفساني وقراءاتي في مناهجه واجتهاداته، أستشعر يومًا بعد آخر، أنّني لا أتوفّر على قدرةِ استجلاء غوامض الشعب الذي أنتمي إليه. أتهَيّبُ أن أستخلص أو أنظّر، لأنّ اللامُتوقع قابع دائمًا حواليْنا، مُتربّصًا بما نعتبره حقائق، كما أنّ عناصر مُغايرة كثيرًا ما تنبثقُ مِنْ مجرى التاريخ لِتُبدّل الصورة وتُزعزع سُلّم التثمينات وبواعث الاطمئنان.

شيء واحد يملؤني، يُمْلي عليّ قسطًا كبيرًا من مواقفي وردود فعلي: ألّا أستكين إلى الصورة التي يُكوّنها الآخرون عنّي، ولا إلى الأفكار والأحكام التي ورثتُها عن المحيط الذي عشتُ فيه. الأمر عندي، يتعدّى لعبة الشكّ المبدئي بحثًا عن حقيقةٍ مُفترضة. هو بالأحرى نزوع إلى تبيُّنِ ما يخضع للضرورة وما هو من نصيب المبادر والاختيار. لعلّ لهذه المسألة صلةً بِطبيعة المهنة التي اخترتُ أن أزاولها؛ لأنّ التحليل النفساني يؤولُ، في نظري، إلى إعادة تكوين حيواتٍ وَسِيَر مَنْ أخضعُهم للتحليل وأنا طامعة في أن أضع الأصبع على مصدر العُقد المُنغّصة لحياة الناس...

عدتُ إلى المغرب، كما قلتُ لك، وأزمنة الرصاص في أوجّها: الحكم الفردي مستمرّ، وسائطُ الإعلام تعلو ضوْضاؤها على ما عداها، والناس تنتقد في حيطةٍ وَحذر، وصاحبُ المِظلّة

يُقرّر ما يشاء: حكومة تكنوقراط، شخصيّات من الأقاليم والمُدن تجدّد الولاء من دون مناسبة تستدعي ذلك، صحفيّون أجانب يمتدحون استقرار المملكة... لكنّني ما كنتُ لأنخدع بالسياسة وكراكيزها البهلوانيّة في ظلّ غياب الشروط التي تضمن الحدّ الأدنى من تنظيم الصراع الديموقراطي. قلتُ مع نفسي: لي قضيّة أهمّ وأكبر، يمكنني، على رغم تدهور الأوضاع، أن أنجزها من خلال الاهتمام بعيادتي، والإنصات إلى مَنْ همْ غارقون في جحيم النفوس. فتراتُ التأزّم لا تدوم، وأنا بحاجةٍ إلى أن أغطسَ في السديم الهلامي المحيط بي لأستجلي خباياه...

بدأتُ أقرّ أنّني أجهل عناصر هويّتي الأولى، وكأنّ المُكابَرة والانبهار جعلاني أنسى التربةَ العضويّة التي احتضنتْ طفولتي وقِسْطًا من ماضيّ. مُكابرة وانبهار جعلاني أجري وراء وَهْمِ القبض على مصدر الإشعاع والنور والتفوّق في عالمٍ يقفز بخطى عملاقة.

أخطأتُ الطريق، ستقول؟

فليكُنْ. لكنّني مستعدّة دوْمًا أن أراجع مساري، وأعْرض عن أصنام هدهدَتْ أحلامي لأبدأ من جديد بحثي عن قيَم تُلملِم كياني المُتشظّي. أحسسْتُني عند العودة أقوى، لأنّني أدركتُ بعض أسرار ذلك الآخر الذي كان يسكنني وأنا بعدُ تلميذة في البعثة الفرنسيّة. تبدّدتْ غشاوة التقديس والانبهار، وأصبحتُ قادرة على اسْتنباتِ الجدليّة حيث تبدو الظواهر والسحنات ملساء لا تجاعيد تشوبُ سطحها. أنبُش. أفترض. أشكّ. ثم أحلم بمسارٍ آخر، خفيّ،

يخترق الأشياء ويُضفي عليها ديناميّة مختلفة.

أوّل الأمر، كان الحذر يشلّ خطواتي. أتحرّز من كلّ اتّصال بالأصدقاء القدامى. لا أحضر اجتماعات أو مناسبات لها رمزيّة ثقافيّة... ثم وجدتُ أنّ ذلك لا يسند عملي واهتمامي بتحليل مسالك المجتمع وشعابه المتداخلة. قلت مع نفسي: لي كلّ المؤهّلات والخبرة، وإذن عليّ أن أنفتح على المحيط القريب والبعيد لأواجه الاختبار الملموس!

لا أنكرُ أنّ تجربتي مع سالم، في باريس، تركتْ أخدودًا عميقًا في نفسي. كانت مغامرة ملتبسة وكشْفًا لجوانب حميمة لم أرتدْ مسالكها من قبل. لكنّني، في غمرة الإقبال على برامج التخصّص، انسَقتُ إلى تعدّد العلاقات العاطفيّة والجنسيّة. كنتُ أغضب وأثور كلّما سمعتُ المدافعين عن خيانة «الزوج» يردّدون أنّها مسألة طبيعيّة، لأنّها وراثيّة مُلتصقة بالتكوين الفيزيولوجي للذكَر، ومن ثم هو لا يحتمل أحاديّة العلاقة الجنسيّة ويحسّ فوق الفراش، مع مرور الأيّام وطول المعاشرة، أنّ بحرًا أوقيانيسيًّا يفصله عن زوجته! قلتُ مع نفسي: لأجرّب أنا أيضًا هذه الوصفة مع حرص على دقّة اختيار الشريك الموقّت! وجدتُ أنّ التعدّد الجنسي لا يخلو من متعة متجدّدة، وإرواء للشهوة في تجلّياتٍ مُتنوّعة. وأدركتُ أنّ ما يغمرني بالارتياح عند المجامعة، في هذه المغامرات، هو أن أجعل ذروتها مصحوبة بدفقَةِ حنان تجعل شريكي في الفراش قريبًا منّي، مشدودًا إليّ بحِبالٍ تُعزّز وَهْمَ التمازج والالتحام.

بِتُّ أعتقد أنّ مَنْ يتعثّر مثلي في تجربة العاطفة والجسد، يلجأ إلى ثنائيّة يتّكئ عليها ليتخطّى العقبة، عامِدًا إلى إخفاء وتجاهُل هذه الثنائيّة، لأنّه حريص على تحقيق منجزات في حياته المهنيّة، مؤمّلاً أن تسنح الفرصة ليسدّ ثغرات حياته الحميمة.

في الأيّام الأخيرة، قبل مغادرتي باريس التي أمضيتُ فيها بضع سنوات، وجدتُني كأنّني أطلّ من شُرفةٍ تقع على مَفْرق ما مضى وما هو آتٍ. دخلتُها مكتظّة بأحلام طوْبويّة وأسئلة لا تكفُّ عن التناسل؛ وها أنا أتأهّب للعودة وقد امتلأت الذاكرة بمعرفة جديدة وأحلام أقلّ اندفاعًا عن ذي قبل. لم يعُدْ فهْمي لحرّيّة الجسد والعواطف كما كان: زاد اقتناعي بها لأنّها منحتْني تفتُّقَ الوردة اليانعة، وفي الآن نفسه تنبّهتُ إلى الأشواك التي تتهدّد هشاشة هذه الحرّيّة. والزمن بِدوْره تسلّل إلى الوعي ليشحذ إحساسي بالفوَاتِ واندثار ديمومةِ الأشياء. وقد يتبقّى شيء من اللحظات التي نشارك في جعلها متألّقة، متلألئة في الذاكرة، ومن ثم بدأت أستشعر نهاية تلك اللحظات وضرورة السعي إلى خلق أخرى تطلّ على زمنٍ آتٍ.

علاقاتي المفتوحة وشخصيّتي الانبساطيّة فتحتْ أمامي مدارج حلقات ثقافيّة واجتماعيّة في باريس، موصولة الأسلاك بالنخب الفاعلة الأشبه بترموميتر يقيس حرارة الحقل الثقافي والجامعي. تابعتُ تراجع تيّارات فكريّة كانت تتصدّر المشهدَ، وحضرتُ ندواتٍ تنعي مذاهب ومناهج تسيّدتْ منابر الجامعات ووسائط الإعلام في خمسينيّات القرن الماضي. تساءلتُ مع نفسي: هل

يمكن حماية الفكر والفنّ والأدب من ظرفيّةِ المُوضة التي تستبدل شكلاً بآخر، ومصطلحاتٍ بأخرى؟

على رغم تشبُّعي بنظريّات فرويْد والإضافات التي اغتنتْ بها على يدِ محلّلين لاحقين، خاصّة لكانْ (Lacan) فإنّني كنتُ أتابع الانتقادات التي تُوجّه إلى التحليل النفساني من لَدُنِ مجموعة علماء نفس غير مقتنعين بعلميّة هذه النظريّات ولا بنجَاعتها في الاستشفاء. قرأتُ «كتابًا أسود» يهاجم التحليل ومبتكره، وكتبًا تعتبر أبحاث فرويْد مجرّد تجارب عائليّة هي أبعدُ ما تكون عن المنهج العلمي. مع ذلك، أظلّ مقتنعة بأهمّيّة النافذة التي فتحها على مناطق مجهولة من تكوين سلوك البشر: الكبتُ الجنسي، عقدة أوديب، اللاوعي، تأويل الأحلام، وظيفة الإعلاء... مجموعة مناطق مسكوت عنها تسلّلَ إليها فرويْد ليكشف الغطاء عن الإنسان المُتواري الذي طالما طُمِسَتْ حقيقتُه وسط أمواج من التعاليم الدينيّة والأفكار المثاليّة. جاء فرويْد ليُحطّم سلاسل الماضي، على حدّ تعبير خصمه العنيد يونغ. لم يَعُدْ بالإمكان أن يحتمي الإنسان داخل ماضٍ ورديّ، مُزخرف بالخرافات وأناشيد الإعلاء والتسامي المجرّدة. أصبح السؤال الفرويْدي المقلق في نظري، هو: كيف يستطيع الفرد، وقد انكشف باطنُه وفَقَدَ هالة الماضي وحُجُبه، أن يواجه عالمًا معقّدًا، عنيفًا، كابتًا للرغائب والشهوات، مُقلّصًا لفضاء الحرّيّة والاندفاع الحيوي؟

كأنّما فرويْد يريد أن يقول لنا: لا أحد مُطلَقُ المسؤوليّة عن أفعاله التي تحاسبه عليها العدالة وتعاليم الدين؛ ومن ثم ضرورة

علاج خلل تلك الأواليات الكامنة في الأجساد والنفوس قبل أن نحاسبها على اختياراتها. لكن، أما مِنْ تبادُلٍ للتأثير بين ما يكمن في الذات، وما هو مفروض من المجتمع وقوانينه المُزكّية للفرْز واللامُساواة وتحصين الأقوياء؟

على هذا النحو، تغمُرني دوّامة الأسئلة المحيّرة فأنطلق في قراءة كتب جديدة يسعى أصحابها إلى التوفيق بين الفرويْديّة والماركسيّة والنيتشويّة، على رجاء بلْوَرة منظومة تتلافى الفصلَ بين الذاتيّة والغيريّة، بين العقلاني والمعيش... إلّا أنّ ما شدّني، في العمق، إلى ممارسة الطبّ النفسي والتحليل، هو إمكانيّة **استعمال الكلام وسيلة للعلاج**. كأنّما أتوخّى من مزاولة التحليل النفساني استرجاعَ الحبال التي كانت تربطني، منذ طفولتي، إلى الناس والمجتمع ثم تلاشتْ بقدْر ما كنت أتوغّل في الاحتفاء بنرجسيّتي ومغامراتي وطموحي إلى المعرفة. وعندما جابَهتُ وضعيّتي كامرأةٍ خاضعة لإرادة ذكوريّة تزيّف علاقة الرجل بالمرأة، وتُشعرني بالدونيّة، أخذ سؤال المرأة يستولي على اهتمامي ويقودني إلى أسئلة المجتمع الذي أنتمي إليه. وهذا ما جعلني أفكّر في اختصاص يردمُ تلك الهُوّة التي فصلتني عن «آخري» الساكن بأعماقي.

بعد عودتي وفتْح عيادة للطبّ النفسي في الدار البيضاء، انصبّ اهتمامي على تمتين علائقي بالمرضى الزبائن، واستدراجهم إلى الكلام والبوْح بالمكبوت المستوطن في ثنايا النفوس. استبدّ بي عناد يحثُّني على أن ألاحِق بعناية تلك المناطق

المجهولة من حيوات الناس لأستكشف المستور الذي أتوَهّمُ أنّه سيُقربني من القبض على حقيقة مجتمعي الضائعة وسط أروقة السياسة ودهاء المخزن البارع في التمويه. ومع الممارسة والإنصات إلى مَنْ يقبَلون التمدّد على الأريكة، بدأت التساؤلات تنبتُ كالفُطر لتدعم سعيي إلى التواصل واختراق الالتباسات التي تتراكم في النفوس والعلاقات وتدبير أحوال «الرعايا». ومن هنا أيضًا راودتني فكرةُ فَتْح صالون أستقبلُ فيه زملاء وأصدقاء قدامى وشبابًا مثقّفًا مِثلك، وبعض الكتّاب والروائيين المهتمّين بالنفاذ إلى بواطن النفوس. ليس غرضي من لقاءات الصالون البحث عن زوج، كما تُشيع ألسنةُ الفضوليين هُواة نشر الشائعات. وعلاقاتي الحميمة أعرف كيف أحميها، وما أحرص عليه هو أن تمتزج الأصوات بين رجال ونساء، وأن تنشأ تقاليد التبادل والندّيّة، ونتعوّد على التفكير بصوت مرتفع، والجهر بآرائنا في السلوك والسياسة والظاهرات الاجتماعيّة. وأنت تعلم أنّ الأحزاب لم تعدْ تُسهم في جعل الحوار الفكري والثقافي جزء من نشاطها، بل تحوّلت إلى ماكينات وأجهزة لتهييئ الانتخابات.

لكنّك سترى أنّ الصالون، على رغم الوقار الذي يتدثَّرُ به المتردّدون عليه، حفاظًا على سمعتهم، فإنّ الاختلاط ووجود شبّان وشابّات إلى جانب كهولٍ، يطلق الألسنة من عقالها، ويعطي مجالاً للتحليل والاستكناه. وسط حوْمَة الكلام، دائمًا هناك قنيصة تلتقطها الأذنُ وتختزنها الذاكرة، وهذا ما أحرص على أن أكون له بالمرصاد.

ـ ٢ ـ

يصعب أن أحدّد الدوافع التي حدَتْ بي إلى الإقدام على تحقيق فكرة الصالون الثقافي. لعلّها الرغبة في أن أسلّطَ الأضواء على شخصي، مُستجيبة لنرجسيّةٍ يُقوّيها لديّ إحساس ذاتيّ بأنّني أمتلك جمالاً أنثويًّا؟ أوْ هُو تأثُّري بمَسار الرائدة الجريئة درّيّة شفيق التي ملأتْ الدنيا ضوْضاء وحركة قبْل أن تخلد إلى العزلة والصمت المُطبق؟ أوْ لعلّها الرغبة في أن ألفتَ الأنظار إلى عيادتي التي اخترتُ أن أضع على بابها لوْحًا معدنيًّا مصقولاً يحملُ بالبند العريض «الدكتورة نبيهة سمعان، طبيبة أمراض العقل وتحليل النفس»؟

لأَبرئَ نفسي من الغرض، أميلُ أكثر إلى القول بأنّ الصالون هو توسيع لفضاء الكلام وتبادُل الآراء، يُزكّي تطلّعي إلى استكناه سلوكات الناس وعقليّتهم وردود فعلهم تجاهَ ما تزخرُ به الحياة اليوميّة من ظاهرات وغرائب. ووراءَ هذا الاختيار، في العُمق،

أنّني وجدتُ نفسي أيّامَ دراستي في باريس، تائهة وسط الخصومات والجدالات الساخنة بين طوائف من المحلّلين النفسانيين يتشيّعون لسيجموند فرويْد وجاكْ لاكانْ، وآخرين يُعارضونَهُما وينسفون النظريّات والاجتهادات التي يقوم عليها التحليل الفروْيْدي. . . صراعات أصبحت تُعرَف بـ «الكنائس الصغيرة»، المتنافسة على التأويل الأصحّ، والعلاج الأنجع. بلْ وجدتُني أمام مجال لا يتوفّرُ على حدود ولا مقاييس تضبط الانتماءَ إلى مهْنة التحليل النفسي؛ إذ يمكن لمَنْ درس الهندسة أو الفلسفة أو أيّ فرع من العلوم والآداب، أن يصبح مُحلّلاً من خلال تردُّده على حلقة نفسانيّة، وعُثوره على محلّلٍ يمنحه شهادة في آخر المطاف!

إلّا أنّ ما جعلني أصمّمُ على متابعة هذا التخصّص، هو أنّني كنتُ مقتنعة، كما قلتُ لك، بالنظريّات الأساس التي صاغها فرويْد ليكشف تلك القارّة المجهولة التي كانت قابعة في أعماق كلّ واحد منّا، وتعمل على توجيه سلوكه خلسةً انطلاقًا من اللاشعور، ومجموع مكوّنات النفس التي هي، حسب نظريّته، فريسة للرغبات الجنسيّة التي ترافقنا منذ الولادة. . . ثم إنّني وجدتُه يفكُّ ذلك الطوق من الأفكار المُسبقة والأحكام الجاهزة الذي ضُربَ حول المرأة، ليسجنها داخل الدونيّة والتشييء. لا أحد، عندنا، يُقرّ بأنّ للمرأة حياة جنسيّة تُميّزها عن الرجل، ابتداء من عضوها التناسلي، وأنّها رقم ضروريّ في مُعادلة الاشتهاء واللذّة وبُلوغ قمّة الجِماع. وأنا أجد أنّ هذا التهميش والتجاهل لحياة المرأة الجنسيّة يكمُنان وراء كثير من حالات العُنّة والبؤس الجنسي.

لا غرابة، إذن، في أنّي جعلتُ من استنطاق الناس وحثّهم على الكلام، سبيلاً إلى التعايش والتواصل. وهذه القناعة جعلتني أكيّف مهنة الطبّ النفسي على ضوء شروط ممارستها عند معظم الأطبّاء المغاربة، القليلين الذين أنتمي إليهم: معظم هؤلاء الزملاء يزاوجُ بين العلاج بالأدوية واللجوء إلى التحليل مع مَنْ هم مؤهّلون له.

الطريف في هذه التجربة، أنّني اكتشفتُ منذ الأيّام الأولى، أنّ لديّ ميْلاً إلى التخييل وتخليق القصص انطلاقًا من محكيّات المرضى، فبدأتُ ألجأ إليه لأبتعث الحياة في مشاهد مندثرة، وأتمَاهَى مع شخوص تبدو مُتناثرة في ذاكرة الساردين المتمدّدين على الأريكة. وجدتُ من حقّي أن أبحث عن المتعة في عملي، وأن أزاوج بين توفير العلاج وإرضاء رغبتي في توسيع دوائر الإمكان عن طريق التخييل ولُعبة التوليف بين نُتَفِ المحكيّات والوقائع. لذلك، قرّرتُ أن أسجّل الحوارات والمحادثات التي تدور بيني وبين مرضايَ في العيادة، دون أن أشعرهم بما أفعلِ. ومن خلال التسجيلات، أعود إلى الاستماع والتحليل متمهّلة، متلذّذة بالكلمات وطريقة تلفُّظها والدلالات التي تنطوي عليها... دائمًا أحسُّني، أثناء هذه العمليّة، كأنّني في مغطس حمّام يستمدّ دفء مائه من دفْق الكلمات.

لم تكن أمّي، أوّلَ الأمر، متحمّسة لفكرة الصالون واستقبال رجال ونساء مرّتيْن في الشهر، لأنّ ذلك قد يُثير اللغَط والتقوّلات عند جيراننا في حيّ بوربونْ الذي أسكنُه مع أمّي منذ وفاة أبي.

إلّا أنّني استطعتُ أن أطمئنها وأقنعها بأنّ الصالون جزء من عملي، وأنّ روّاده هم من المثقّفين وذوي السمعة الطيّبة. وسرعان ما وافقتْ لأنّها تثق في ابنتها التي استطاعتْ أن تصبح «طبيبةَ نفس»، يتحدّث عنها الناس بإعجاب وإكبار، ويشهدون بكفاءتها.

اكتستْ سهرةُ الصالون، أوّلَ مرّة، مطلعَ تسعينيّات القرن الماضي، طابَعَ التعارف واستشفاف نوايا الطبيبة العائدة من باريس ومعها تقليعة جديدة، قد تخفي غاياتٍ أخرى لا تعلن عن نفسها في زمنٍ يتسارع الجميع إلى احتلال موقع على الخريطة الاجتماعيّة والسياسيّة سريعة التبدُّل. إلّا أنّ معظم الحاضرين ذلك المساء، كانوا أصدقاء أوْ صديقات قدامى عرفتهم في الجامعة أوْ من خلال نشاطات بعض الجمعيّات الثقافيّة.

استطعتُ، رغم غلبة طابع الاحتفال، أن أحدّد بعض أهداف الصالون، فألححتُ على تحرّره من كلّ انتماء أو غائيّة شخصيّة، وأنّ المقصود عندي هو تبادل الرأي وملامسة موضوعات طالَما تمّ تهميشها على رغم أهمّيّتها. سألني مهندس معماري، عضو في جمعيّة الدفاع عن عمران الدار البيضاء:

ـ أريد أن أسألكِ، يا دكتورة، عن وظيفة المعرفة النفسانيّة التي تعتمدين عليها في معالجة مرضاك، هل إذا عرفنا طبيعة الألم ومصدرَه، يمكن أن أن نضع له حدًّا؟

قلتُ وأنا حريصة على أن يكون جوابي بسيطًا، خاليًا من المصطلحات الغامضة: لا أظنّ أنّ التحليل النفسي أوْ علم النفس بصفةٍ عامّة، يزعم القدرة على إيقاف الألم. بالمُقابل، ما تسعى

إليه المعرفة المتّصلة بهذا المجال، هو إسعافُ المريض أوْ مَنْ هو فريسة الألم النفسي، على الوصول إلى نقطة تسمح له بِبُلوغ الحِداد، (faire le deuil)، أيْ أن يتقبَّلَ حرمانَه من شيءٍ فقَدَه، أوْ عزيز غيّبَهُ الموت، أو علاقة عاطفيّة تعثّرتْ... وعملي أساسًا، هو أن أسند مَنْ تعرّض للاختلال أو الألم لكيْ يحقّق الحِداد، لأنّ ذلك يتيح له أن يستأنف الانغراس في جدليّة الحياة اليوميّة.

قال مُعترضًا: وهل كلّ من تعرّض للألم أو الفُقدان، قادر على اختيار طريق استئناف المسار؟

ـ أظنّ أنّ هناك مجالاً للاختيار، على رغم أنّ شروط وجودنا تحدّد إلى حدّ بعيد مسارنا الدُّنيوي. وما يضطلع به علم النفس والتحليل هو تعديلُ شروط الجَبْر وتعزيز هامش الاختيار.

تناوَلَ الكلام آخرون. أشار أحدُهم إلى أنّ سيرةَ الحياة اليوميّة المغربيّة تشتمل على تقاليد جيّدة في معالجة الحُمق والجنون، لأنّ العائلات لم تكن تُقصي الأحمق من كنَفِها، بل كانت تتقبّله وتدمجه كما هو دونَ إقصاء. لكن سيّدة تُدرّس علم الاجتماع اعترضتْ بأنّ عائلات كثيرة تلجأ إلى أضرحة مخصّصة لعلاج داء الحمق، توجد في أنحاء مُتباينة مثل سيدي بن عاشر في مدينة سلا، وبُويا عُمر بالقرب من مراكش؛ وكثيرًا ما ينسى الأهلُ هؤلاء المساكين في تلك الأضرحة إلى أن ينبتَ الخزّ على أجسامهم!

وقال أستاذ للفلسفة نشَرَ كتبًا عن الحداثة وضرورتها للوصول

إلى التغيير المنشود، بأنّ أهمّيّة التحليل تتمثّل في الاعتماد على تحرير الفرد من العُقد والرواسب، ليُدرك مُكوّنات ذاته الغامضة ويتحرّر من خرافات الأولياء الصالحين. وأضاف بأنّ علاقتنا بالماضي يجب أن تقوم على اختيار ما يتبقّى صالحًا منه في الحاضر والغد؛ أي أن نتمسّك فقط بالشعلة التي تخترق الأزمنة لتُضيء ما نعيشه الآن. سكتَ قليلاً ثم أضاف: والجسد، عقلاً وَرُوحًا، مُعرّض للتجارب المرتبطة بعصرنا، وتحقيق الحرّيّة يمرّ عبر اختبارات الحاضر.

تعاقبتْ الملاحظات والاعتراضات، وسرعان ما اتّخذ الحوار شكلاً جدّيًّا ينحو إلى التعمّق والإحاطة. عندئذٍ تناولتُ الكلمة لأقول إنّ هذا اللقاء هو الجلسة الأولى لتدشين الصالون، وعلينا ألّا نُفرغ كلّ ما في جَعْبَتِنا، ولا بأس من أن نتوقّف عند هذا الحدّ في انتظار اللقاءات الآتية.

جلسة اللقاء الثاني حضرتْها وجوهٌ جديدة، لأنّ نبأ انطلاق الصالون الثقافي انتشر في الأوساط المهتمّة، كما أنّني دعوتُ أصدقاء آخرين التقيتُهم صدفة أوْ في مناسبات، ومن بينهم المحامي فالح الحمزاوي الذي كان من قادة الطلبة الجامعيين على أيّامنا، وقد أحضرَ معه توفيق الصادقي نقيب المحامين السابق، ومؤرّخًا شابًّا قدّمه لي باسم الراجي. حضرَ هذه الجلسة أيضًا الدكتور خليل الذي هو من روّاد التحليل النفساني في المغرب؛ وكنتُ أقنعتُه بالحضور معنا كلّما سمحَ وقتُه، لأنّ الصالون فضاء صالح للتعريف بوجهة نظره الرافضة الاعتمادَ على الأدوية والعقاقير في علاج العُقد والشكيزوفرينيا، وما لَهُ صلة بأعطاب

النفس. وأظنّه لبّى دعوتي لأنّ الصحافة انتقدتْ تباعُدَه عن الجمهور الواسع وانصرافَهُ إلى عَقْدِ ندواتٍ يحضرُها محلّلون ودكاترة أجانب، وتُنشَر أعمالها في مجلّات متخصّصة باللغة الفرنسيّة.

كنتُ لاحظتُ، بعد اللقاء الأوّل، أنّ محادثات الصالون اكتستْ طابعًا فكريًّا أقرب إلى التجريد. على ضوء ذلك، فكّرتُ أن أنقل إلى روّاد الصالون مقاطع من محكيّاتٍ سجّلتُها مع بعض زوّار وزائرات عيادتي، وهي جزء من محادثات كنتُ أستدرجهم إليها عبْرَ أسئلة تخصُّ جوانب من حياتهم الحميمة...

هذه الليلة، قبل أن تنطلق الأمسية، اقترحتُ على الحاضرين أن أقرأ ما أفضتْ به امرأة متزوّجة من مدير شركة للإسْمنت:

«.. أنا عارفه هاد الشيْ كايَنْ. الرجالْ ما فيهُم أمان. إنّما أنا تعوّدتْ على ضبط النفس. أنا ما كمّلتش دراستي في الجامعة، وكنتْ موظّفة مْنايَنْ خطبني راجلي لأن ابّاهْ كان صديق والدي، يعني كان زواجنا زواج تقليدي تقريبًا. لكن لما تعارفْنا وعقدنا الخطوبة، تْفاهمنا بسرعة واعجبْني لأنّي وجدتو طموحْ وصريح. الحقّ يُقالْ. وبعد عشر سنين من الزواج صار عندنا ولد وبنت كملوا سعادتنا. وراجلي تْقدمْ في عملُه واصْبحْ مدير للشركة، وبْدا يسافر لمُدُنْ أخرى، وبعض المرّات تيسافر للخارج. في ديكْ لوقيتة بْديتْ نْحسّ أنّ شي حاجة تغيّرتْ ف سلوكو معايا. يعني كنّا تنتْعاشقو ثلاثة وربعة دا المرّاتْ في الأسبوع، ولّينا مرّة واحدة أو بالدراعْ، وبدا هو يشكي من كثرة الشغلْ وتعب السفر. لكن قلب

المرأة تيخبّرها. بدتْ الشكوك تتلعبْ براسي، أو وْجدتْ بعض الأمارات اللي أكّدتْ ليا أنّ عندو علاقات بنْسا غيري. بْديتْ نسأل راسي: شنو غادي تْعملي يا حكيمة مع راجْلك اللي تيْخونك؟

«فكّرتْ وعودت زدتْ فكرتْ، وتذكرتْ اللي تيحكيوه ليا بعض الصديقات، واللي تنقراهْ في الصحف والروايات وقلت مع نفسي: ما تيخصنيش ناخُد شي قرار يشتّتْ ولادي وعائلتي وانْدَمْ عليهْ. وزدتْ قلت مع راسي: هادي على كلّ حالْ نزوة معروفة عند الرجال، وشْحالْ ما طالتْ غادي يجي نهارْ يفيق فيه ويندم ويرجعْ لمْراتو ووْليداتو. وهكدا كانْ. حاولتْ نبقى طبيعيّة في سلوكي معه، تنسألو على الأسفار وعلى الشركة، وتنهتمّ بصحابو لما تيعرض عليهم، ونظهّر الفرح كأنّ شي ما كاينْ. على ما حال المتعة الجنسيّة في هاد السنّ عند المرأة ما هيّاش مهمّة. ومنايَنْ تنتوحشو، تنْمَدّ يدي من تحت البيجاما وتنْمَلّس عليه ونبوسو، حتى تيهديه الله ويخرّج مفتاحه ويدخلو في قفْلي ويفرّح جسدي. أنا عارفة وفايقة؛ ساعة ساعة تيقول لي راه مسافر للرباط باش يحضر اجتماع مهمّ. تيغيبْ زوج داالليالي وتلاتة وتيرجع وعلامات السهَر باينة عليه. تنقول مع راسي: بصحتو، زهْواني ما عندي ما نعملْ لُه. اللّي مات على شبعة الله لا يردّو. وما نكدبش عليك أدكتوره، الغيرة من صْحَابتو اللي ما تنعرفه ومش تتنغّص حياتي، مع ذلك تنصبّرْ نفسي.

«هادا هو جوابي على سؤالك يا دكتوراه، ويمكن تقولي ليا بأنّني تنتصرفْ بحال العيالات التقليديّات اللّي تيراهنوا على الصبر؛ إنّما أنا شايفة أنّ القرار اللي خديتو هو حلّ ملائم لأنّ طبيعتي ما

تسمح ليش نعمل مغامرات جانبيّة، على ودّ أنا متعلّقة بعائلتي ولا بدّ من شيء من التسامح وإغماض العيْن».

بَعْدَ فترة صمت قصيرة، علّقت موظّفة بوزارة الشبيبة والرياضة: «إغماض العيْن أوْ فتحها، تلك هي مشكلة المرأة المغربيّة منذ قرون! الرجل المستفيد من المرأة التي تُغمض العين سيُصفّق دوْمًا لهذا الموقف. أنا لا أفهم مثل هذا السلوك، مع أنّ الشروط الآن تسمح بالتمرّد على طغيان الأزواج. هل هي مازوشيّة موروثة أمْ سطوة التقاليد؟».

قال الحمزاوي: أظنّ أنّ المرأة بطبيعتها، أكثر حكمة من الرجل وأقلّ أنانيّة. هذا ما يصونُ مستقبل الأولاد.

ردّ الدكتور خليل متحمّسًا: «ولماذا لا نقول إنّ الرجل عندنا واقع تحت عقدة الخوف من الإخصاء؟ ذلك أنّ اللجوء إلى علاقات نسائيّة دون توافُر الاشتهاء والحبّ، هو رغبة في تأكيد الاطمئنان الذي يحتاج إليه الرجل باستمرار، ضدّ تهديد الإخصاء الكامن في أعماقه. من ثم، فإنّ ما يسعى بصفةٍ عامّة إلى نُكرانه أمام المرأة، هو علاقته بذلك الإخصاء الذي انبثقَ طيفُه أوّل مرّة عند الأمّ. وإذا كان الحبّ ضروريًّا لوجود الاشتهاء، فإنّ التفوّق القضيبي للرجل يجد نفسه تابعًا لرغبة «الأخرى»: ذلك أنّ المرأة تقترب من الموضع المحرّم الذي تحتلّه الأمّ والتي تهدّد دَوْرَهُ المُشتهِي بسبب الفَقد الناتج عن الإخصاء. ولهذا فإنّ تشييء المرأة وربط علاقات تفتقر إلى الحبّ، هو ما يعيد إلى الرجل تطمينًا كاذبًا..».

بدا كلامُ الدكتور خليل غامضًا عند معظم رُوّاد الصالون. وأصرّ هو على أن يشرح المصطلحات ويُفيض في توضيح تأثُّر الحياة الجنسيّة بالأمّهات والآباء وعقدة أوديب، وتفريعات الأنا. ثم ختمَ بالإلحاح على ضرورة النفاذ إلى ما هو قابع في زوايا النفس إذا أردنا الوصول إلى تشخيص أدقّ لمشكلات علائق الرجل بالمرأة. على عكس ما توقّعتُ، وجدتُ أغلبيّة الحاضرين يميلون إلى رأي الدكتور خليل الذي فتح أمامهم مسالك مجهولة في تحليل معضلة الذكر والأنثى؛ أو لنقُلْ إنّه استطاع على الأقلّ، أن يزعزع تصوّرَهُم السابق.

في جلسةٍ تالية، طرح بعض روّاد الصالون موضوعًا ساخنًا، شغَلَ الرأي العامّ والصحافة المغربيّة طوال الأسبوع الماضي. ذلك أنّ مُفتّيًا معروفًا بوقاحته ومهاجمته للحياة العصريّة، نادى بضرورة تحريم الاختلاط بين الجنسيْن حفاظًا على شرَف العائلات، وصوْنًا لعُذريّة المرأة قبل الزواج. واستنادًا إلى حديث نبويّ يقول بأنّه ما اجتمع رجل وامرأة إلّا وكان الشيطانُ ثالثهُما، طالَبَ المفتيّ بعزْل المرأة عن الرجل، وتخصيص شواطئ سباحة لكلّ من الجنسيْن على غرار ما تمّ، لأمَدٍ قصير، في مدينة تطوان عقِبَ الاستقلال! وأمّا ضرورة الاختلاط في إدارات الوظيفة العموميّة، فقد اقترح حلّها عن طريق تطبيق مبدإ الرضاعة، أيْ أن يرضَعَ الموظّفون الرجال من أثداء الموظّفات، فتُصبحنَ مُحرّمات عليهم نتيجة لآصرةِ الأخوّة التي يُؤمنها الرضاع! ولم يكن المفتي مُجدّدًا في هذا الاقتراح، لأنّه اقتبَسه من زميل له في مصر، سبَق للصحافة أن سخرتْ منه وأمطرتْ القرّاء بسيْلٍ من الرسوم

الكاريكاتوريّة نسفتْ الفتوى وصاحبها. ومن تلك الرسوم التي أعادت صحيفة مغربيّة نشرها، يُطالعُنا طابوران من الرجال الواقفين أمام مكتب به موظّفتان كاشفتان عن نهديْهما لاستقبال الرّضّع، ورجل يسأل أحد الواقفين في الصفّ لماذا اختار الصفّ الأطول؟ فأجابَه لأنّ حَلَمَة نَهْدِ الموظفّة لها طعْمُ الفراولة التي يحبُّها منذ طفولته!

ضحك الناس وسخرت الصحافة، لكن آلمفتي أصرّ على تحريم الاختلاط قبْل الزواج، ودعا الشبّان والشابّات إلى التمسّك بالعفّة والعذريّة والإسراع بعقد النكاح؛ ولمّا لاحَظ أحد السوسيولوجيين أنّ عوامل كثيرة تقتضي تأجيلَ سنّ الزواج إلى ما بعد الثلاثين، أجابَ بأنّ على الدولة أن تكفل شروطه منذ سنّ الثامنة عشرة!

لا فائدة من محاورة هذا المُفتي وأنصاره، لأنّهم يغمضون العيْن عن تبدّلات المجتمع، ويقيسون أحكامهم على ما كان منذ خمسة عشر قرنًا.

قالت موظّفة بوزارة الفلاحة: يريد السيّد المفتي أن يُحول نساء الوظيفة العموميّة إلى بقراتٍ حلوب، ويبدو أنّه غشيم في شؤون اللذّة وحساسيّة جسد المرأة، لأنّ من أهمّ مفاتيح أجسادنا البدء بِمَصّ الحلمة!

تناولَ الراجي الكلمة فأشار إلى أنّ المعضلات المُصطنعة مصدرها هؤلاء الذين يرتَدونَ جُبّةَ الدين باسم معرفة ترتبط بفتاوى ماضٍ يختلف تمامًا عن حاضرنا. هُم لا يُبصرون طرائق

عيشنا واختراق العالم لنا. لا ينتبهون إلى أنّ المعضلة لا تتمثّل في المحافظة على أصالةٍ بائدة أوْ عادات وأنماط سلوك مُستحدثة، بل في القدرة على الملاءمة بين ما يفرزه واقعٌ غير مسبوق، وقيَم تضبط الإيقاع السائر نحو الرغبة والحرّيّة. يتناسون الحديث النبوي «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، ويُفتون في قضايا يجهلونها. يتمترسون وراء شعار الأصالة وصفاء العقيدة جاعلين من أغلبيّة المجتمع فئات ضالّة، فاقدة هُويّتها. مشكلات كثيرة وجدتْ حلولاً داخل الممارسة، لأنّ الشباب استطاع أن يتلاءم مع تحوّلات السياق، خاصّة ما يتّصل بالمسألة الجنسيّة والعاطفيّة التي هي في طليعة الهموم. وأنا أعرف شخصيًّا عشرات العلاقات بين شبّان وشابّات تتمّ في يُسر قبل الزواج، لأنّهم لا يستطيعون كبْتَ الطاقة الحيويّة المتوثّبة داخل دمائهم. هُمْ يلتقونَ ويختلطون ويتحابّون خارج تعاليم الشرع أو داخلها، دون أن يتوقّف القمر أو الشمس عن الدوران. هل هناك أجمل من شابّ وفتاة يتعانقان وينتشيان بالضوء وتِرياق القُبل؟».

سألتْ شابّة نقيبَ المحامين السابق: هل هناك بند قانوني يخصّ مسألة عذريّة المرأة قبل زواجها؟ هل من الضروري أن تكون بِكْرًا، طاهرة، لم تمسُسْها يدٌ أوْ داعَبَها قضيب؟ ابتسم النقيب وهو يردّ: الأمر يعود إلى سياق الزواج وهل نصّ الاتّفاق على بنتٍ بكر أو ثيّب. ولا أظنّ أنّ هناك بندًا يتعلّق بعزباء فقدتْ بكارتها تحت سلطان الرغبة أو إغراء الشيطان.

وعلّق أحد الشبّان: لم تعدْ هذه مشكلة، لأنّ استعادة البكارة

متيسّرة اليوم طبّيًا؛ والرجل الذي يشترط على خطيبته البكارة، هو مغفّل يكذب على نفسه.

كنتُ أشارك في الحوار من حين لآخر، خاصّة عندما يوجّه إليّ سؤال أو استفسار. وكانت سعادتي كبيرة بمستوى المحادثات والتعليقات، لأنّها تنحاز أكثر إلى تأييد البحث عن أفق ثالث لا يسجن الإشكالات والاختيارات في شرنقةِ ثُنائيّةٍ تختزل الجدليّة وتُجمّدها. معظم روّاد الصالون يرون أنّ من حقّ الفرد، رجلاً أو امرأة، أن يبتدع حلولاً لمعضلاتِ حياته اليوميّة وللأسئلة التي تمسّ العقيدة والجنس والسياسة، بعيدًا من وصاية الفقهاء الموْتى، ومن ثرثرة سدنة المعبَد المُتعيّشين على التملّق وتقاليد المخزن. . .

مع الأيّام، بدأ الصالون يأخذ مكانًا جوهريًّا في نظام حياتي. بدأتُ أستشعر أنّ جذورًا تنبُتُ لي وسط رجال ونساء تلفّهُم التساؤلات عن المستقبل، وتستبدّ بهم الحيرةُ أمام مفرق طرق غائمِ القسمات. إنّما، الإصرار على المعرفة والتحليل الجريء، والجِهر بالرأي، جميعها تنسج بين روّاد الصالون شبكةً غير مرئيّة، تُوهِمُ أنّ بالإمكان بلورة حياة تستجيب لتطلّعاتنا وتطلّعات آخرين يتواجدون عبر أنحاء المملكة. هو شعور باكتشاف أصقاع نائمة في اللاوعي أوْ في ثنايا هوامش الذاكرة. وعلى رغم أنّ ما يتخايَلُ لي ليس جديدًا، قياسًا إلى ما هو متواجد في فضاءات بشريّة وجغرافيّة أخرى، فإنّ وَهْمَ الاكتشاف يمنحني تحفيزًا ويذكي فتائل الأمل.

لا أنكر في الآن نفسه، أنّ حركة ذهاب ـ إياب، بين كياني الفردي وَامتداداتي الغيْريّة تظلّ ناشطة، تنغل في الفكر والوجدان، لتحُثّني على المقارنة وتأمُّل التعارُض بين الحميمي والوافد عليّ من محيطٍ لَهُ قوانينه المستقلّة عن رغائبي وإرادتي.

شذرات من يوميات د. نبيهة

مساءً

أتساءل أحيانًا: ما الفرق بين الوعي التلقائي وَوعْيٍ يواجه أسئلة وَواقعًا ملموسيْن يستدعيان اختيارَ أفق محدّد؟ في حالات الوعي التلقائي، مطلعَ شبابي، كنتُ منجذبة نحو الانطلاق والانفتاح على كلّ ما هو جديد ومُسلّ. وكان أبي يشجّعني في اندفاعاتي وإقبالي على الحياة. خلال طفولتي، كان هو يقيم معظم السنة في دكارْ، عاصمة السينغال، حيث يشرف على تجارته الرائجة، ويستلذّ بطرائق العيش وربّما أيضًا بمصاحبة عشيقات سينغاليّات سوداوات، كما ألمحتْ لي أمّي لاحِقا بعد موت أبي وأنا على وشك إنهاء دراستي الجامعيّة الأولى. وحتى بعد عودته إلى الدار البيضاء واستئنافه المتاجرة في الأثواب والأجواخ، ظلّ ميّالاً إلى السهر خارج البيت، والتغيّب بدعوى السفر لعقد بعض

الصفقات. ومن خلال الكَمَد الذي كان يعلو وجهَ أمّي، وتعليقاتها التلميحيّة أدركتُ أنّ علاقتهما الزوجيّة لم تكن على ما يرام، وأنّها مستسلمة وصابرة على نزواته لأنّها متعلّقة بي، ولا تريد أن تشغلني بما يُعطّل دراستي. أمّا أبي فكان يعاملني بحفاوة وسَعَة بالٍ. يُنصت إلى آرائي، ويُجاريني في جرأتي وتمرّدي. إضرابات الطلبة، ومناهضة الحكم الفردي. دمُ الشباب يغلي في عروقي، ويقظة الجسد الفوّار... كنتُ أنصتُ أيّامئذٍ إلى ذلك الوعي التلقائي المستجيب للشعور اللّحْظي. الآن، وقد قاربتُ الخمسين من عمري وفتحتُ عيادة لعلاج العقل والنفس، وامتلأتْ ذاكرتي بالمشاهد واللقاءات، بالمغامرات العابرة والتجارب العاطفيّة الملتهبة، أحسّ وطأة السنين تحوّلتْ إلى وَعْيٍ لاجِمٍ يترصّدني عند كلّ موقف أو قرار، يهمس لي أن أتريّثَ، أقلّبَ الأمر على وجوهه، وأستحضر «الواقع» في تفاصيله حتى لا أنزلق نحو ما يسبّب الندم والحسْرة. وهذا التحوّل في السلوك يضفي عليّ سمَة الوقار، ويجعلني أبدو فعلاً طبيبة محترمة. وهو مظهر يُضايقني لأنّني سخرتُ دوْمًا من الرزانة والجدّيّة وتمثيل دوْرٍ يُطابق المهنة.

أظنّ، عند التأمّل، أنّ تعلّقي بالتحليل النفساني يعود إلى أنّه يزعزع المظاهر والاعتبارات الخارجيّة، والنظرةَ التقليديّة الموروثة إلى «الإنسان» والأخلاق والقيم؟ أفكّر مثلاً، في ثنائيّة الزوجة أو تعدّديّتها، أو تعدّديّة الزوج بالنسبة للمرأة، وفي اشتهاء الجنس المغاير أو المِثْليّة، فأخلُص إلى أنّ التحليل النفسي هو الذي فتح الطريق أمام أن يطالب كلّ واحد بالمتعة الجنسيّة التي ترضيه، ومن ثم تلك المناهضة الجنسيّة الرافضة لمعايير المجتمع

البورجوازي الأوروبي الذي التجأ إلى اعتبارات دينيّة تقنّن الزواج وترعاه، وفي الآن نفسه تغضّ الطرف عن العلاقات بين المتزوّجين والخلائل، بين العشيقات المتزوّجات والخِلان الحميمين. . . لعلّه هذا الجانب الرافض هو ما استهواني في التحليل النفسي: لا يقبل أيّ حقيقة مقدّسة سواء جاءت من موروث الأخلاق أو الدين أو العادات. أحيانًا يسرح خيالي، فأستحضر شائعاتٍ ردّدها خصوم سيجموند فرويد عن علاقته الجنسيّة مع «مينا» أخت زوجته مارتا التي سكنت معهما أكثر من خمس عشرة سنة، وأصبحت قيّمة على البيت، قريبة من صهرها الذي لم يُخفِ إعجابه بها. بل إنّ بعض المناوشين قالوا إنّ فرويْد، على رغم رفضه لمبدإ الضرّة، كان يردّد أنّ الزواج بامرأتيْن، كما هو شائع لدى القبائل البدائيّة، يجعل الرجلَ أكثر تمَدّنًا وتحضُّرًا، إذ يفرض عليه أن يلجم اندفاعه الشهوي، وأن يوزّعه بالعدل على الزوجتيْن!

علاقتي بالتحليل، مع ذلك، لا تخلو من التباس. فإذا كنتُ مقتنعة بالكشوفات التي حقّقها في مجال سبْر النفس البشريّة وتأويل سلوكاتها الغامضة والمتناقضة، فإنّ تركيزه عليها وجعلها بؤرة الفهم والتأويل، يكاد يُلغي أهمّيّة العوامل الاجتماعيّة والتاريخيّة التي تؤثّر بقوّة أيضًا في تحديد مصائر الناس وسلوكهم. لذلك أوليتُ اهتمامًا خلال إقامتي في باريس، للمحاولات الفلسفيّة التي سعتْ إلى التركيب بين الماركسيّة والتحليل النفساني. قرأتُ وليام ريش، وهربير ماركوز، وحلمتُ معهما بالتركيب بين منهجيْن وتصوّريْن يستطيعان، لوْ تمّ التوليفُ

بينهما، أن يَهْديَا الناس الحيارى، المُعذّبين في الدنيا، إلى سعادة دائمة وعيْش خالٍ من العُقد والمنغّصات. وحين قرأتُ، بعد موت ماوتسي تونغ، المرشد الأعلى وقائد الثورة الثقافيّة، أنّه كان يُحيط به في حياته الخاصّة، باقةً من أجمل نساء الصين، يمنحْنه اللذّة ويستمْطِرْن الوحيَ من أجله ليكتب قصائد تستحثّ الجماهير على مقاومة الإمبرياليّة..، قلتُ مع نفسي: يا ليتَ زعيم نصف العالم بشّر أيضًا بحرّيّة الجنس والجسد، وجعلها ركيزة ثانية لبناء نموذج المجتمع المتحرّر من التفاوُت والاستغلال، ومن الحرمان الجنسي وكبْت الغرائز!

لكنّني كثيرًا ما أشكّ في أنّ سيرورة الحياة وتحوّلاتها تسيرُ وفق صراع واعٍ يدور بين الأفكار، بين الأفضل والأسْوإ، بل يبدو لي أنّ الصراع بشريّ، ملموس، يُتوّجُه انتصار فريق وَهزيمة آخر. غير أنّ الانتصار هو، مثل الهزيمة موقّت، وسرعان ما يأخذ الصراع مجراه من جديد، وتُخلَط الأوراق والأفكار لتُفرز منتصرين ومنهزمين لأجلٍ معلوم... مع ذلك، لا أجدُني جدّ مقتنعة بما كتبتُه آنفًا: منتصرة أو منهزمة بالنسبة لماذا؟

ضاعَ مِنّي خيطُ التفكير.

ليلاً

تكوّنتْ لديّ عادة «اللجوء» إلى مذكّرات الكاتبة الفرنسيّة ـ الأميركيّة «أنييس نينْ، لأنّها تأسرُني بقدرتها الخارقة على كتابة ذاتها بأسلوب متدفّق، وصراحة متناهية، ومجابهة صادمة للأسئلة

الحميمة التي تقضّ مضجعنا. . . ولعلّ إعجابي بها يعود أيضًا إلى أنّها بدأت تكتب يوميّاتها وهي في الحادية عشر من عمرها، وظلّت مواظبة على هذا التدوين طوال عقود، دبّجتْ خلالها آلاف الصفحات. لم تكن تستطيع العيش دون أن تكتب عن الأحداث التي عاشتها والأشخاص الذين قابلتهم، والعشّاق الذين ضاجعتْهم، ونوْبات القلق العاصف، ولحظات المسرّة والانتشاء. . . تكتب بكلّ كيانها، بحساسيّة الشاعر وروحانيّة المتصوّف، وشهوانيّة الفاسق المُعربِد. أحبّت السفر، وكتبتْ في مذكّراتها عن بلدان عديدة، من بينها المغرب حيث وقعت في غرام مدينة فاس، وهامتْ بألوانها وضوئها، وارتادت حمّاماتها المعتمة، وامتدحت جمال نسائها وقوّتهنّ الصامتة تجاه ذكوريّة الرجل. يضاف إلى ذلك، أنّها أنجزت تحليلاً نفسانيًّا مع محلّل لامِع كان في الآن نفسه عشيقها الأقرب إلى نفسها، وهو أوتُو رانْك (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩) المنشقّ عن أستاذه سيجموند فرويْد. بين هذا الأخير والكاتب الشهير هنري ميللر، وزوجها الأميركي، عاشت أنييس حياة عاصفة، متقلّبة، وهي محاطة بمجموعة من العشّاق العابرين الذين لم تستطع، رغم الإعجاب، أن تذهب معهم إلى مغامرة الحبّ الكبرى، على نحو ما تحكيه عن علاقتها المتعثّرة بالمسرحي المجدّد أنتونان أرطو. هَوَسُ الجنس الذي طبع حياتها قد يعود إلى طفولتها المضطربة، وهرب أبيها الدونجواني من البيت، وتوزّعها بين فرنسا وأميركا، وشغفها بالقراءة بحثًا عن «مُطلق» يعلو بها عن «رواية العائلة» ويخلّصها من تفاهة اليومي؟ لكنّها كانت جميلة، ذات شخصيّة قويّة وجاذبة، والجسد وسيلة لمعرفة العالم،

والآخر، وتفاصيل الوجود التي تذكي لديها موهبة الكتابة والإبداع. لا يمكن إذن، لمن يقرأ يوميّات أنييسْ أن يغادرها كما دخلَها، لأنّ حضور المعيوش وجرأة الكتابة تُرغمنا على أن نعيد صوْغ الأسئلة السرّيّة التي نُخبّئها بين القميص وَالمسامّ. وقد سررتُ كثيرًا وأنا أقرأ ما كتبتْه عن دور التحليل في إسعافها على تخطّي المطبّات وبلورة الذات المتحديّة». **لا شكّ أنّ التحليل النفسي أنقذني، إذ أتاح ولادةَ «أنايَ» الحقيقي والذي هو ديني. ربّما لن أكون قدّيسة، لكنّني ممتلئة بغنًى داخلي ولديّ أشياء كثيرة أكتبها. سأكون مسرورة بقليل من الهدوء وقليل من التفكير في الماضي. لا أستطيع أن أستقرّ، بكيفيّة نهائيّة، في حياة الرجال؛ هذا لا يكفي. لا بدّ أن أرتادَ أديانًا مُدوّخة أكثر. التحليل النفساني أنقذني حقيقة من الموت، لأنّه سمح لي بأن أحيا؛ وإذا ما فارقتُ الحياة فسيكون ذلك بمحض مشيئتي، لأنّ الحياة لا تنطوي على المُطلق. لكنّني ما أزال أحبّ كثيرًا النّسْبيَّ: الكُرنْب وَحرارة النار، الأقراط الجميلة، وموسيقى هايْدَن، وضحكاتي مع ابن عمّي إدواردو، وبدلتي الصوفيّة السوداء الجديدة ذات الكُمّيْن الكبيريْن والتقويرة المستفزّة، وإسْوَرتي والعَقد الأزرق المرصّع بالنجوم، وثيابي الداخليّة الجديدة...**». يمكن أن أسترسل في نقل فقرات عديدة من هذه المذكّرات غير «المُهذّبة» التي نُشرتْ بعد موتها بعنوان «ارتكاب المحرّمات» «Inceste» (١٩٩٢)، لأنّ خصوصيّة تجربة أنيِيسْ تصبُّ في بُحيرة صاخبة بأعماقنا فتزيدُها صخَبًا واضطرامًا. أعني المنطقة السرّيّة التي نحاول أن ندفن فيها كلّ ما له صلة بـ «الغرابة المقلقة».

أمس، بعد انتهاء جلسة الصالون الليليّة، لاحظتُ أنّ الشابّ الراجي تلكّأ في الانصراف ووقف ينتظرني عند الباب، فاقتربتُ منه مبتسمة وشجّعتُه على الكلام، وإذا هو يستشيرني في وضعه العاطفي والجنسي المُوزّع بين ثلاث نساء، وهل هذا التعدّد مضرّ أم مفيد لـ «صحّته» النفسيّة. سألتُه عن نوعيّة العلاقة التي تربطه بكلّ واحدة من النساء الثلاثة، فقال بأنّ هناك تقارُب وحنان واستمتاع مع كلّ واحدة منهنّ، وأنّ عنصر الرغبة والاشتهاء متوفّر لدى الجميع... قلتُ له ربّما هذا الوضع يرضيك أنتَ كرجُل لأنّه يستجيب لنزوعك إلى تعدّد الممارسة الجنسيّة، ولا أظنّ أنّه ينطوي على أضرار. لكن، مع الوقت وتقدّم السنّ، ستحتاج إلى امرأة تحبّك، قادرة على أن تجعل الشيخوخة تستظلّ برمزيّةِ الحبّ، وعذوبة الذكريات المشتركة... تمتَمَ شاكرًا وهو يجتاز عتبة الباب.

بعد انصرافه، أحسستُ بندمٍ على ما قلتُه له في صيغةٍ لا تخلو من إشارة وعظيّة. شابّ في مُقتبل العمر، يعيش في وئام مع ثلاث نساء وقد ينتهي إلى اختيار واحدة منهنّ بعد المُعاينة والتجريب، فلماذا أوحي له بأنّ العلاقة المفردة هي أفضل؟ استغربتُ ما صدر عنّي، خاصّة أنّ ما قرأتُه عن فرويْد وأنييسْ ينحو إلى امتداح التعدّديّة الجنسيّة والعاطفيّة، على رغم ما فيها من توزّع وقلق وثنائيّة. لكن، أليس ذلك أفضل من أحاديّة الزواج التي تُفرّخ السأم والرتابة وتضاؤُل الاشتهاء؟ نعم، أنييس عانت من الشكّ والقلق والألم النفسي والجسدي وهي تتنقّل بين الرجال وتُعيد تكييفهم على هواها، لتقتنع بأنّهم جديرون بحبّها وجسدها.

إلّا أنّها عاشت، من خلال هذا التعدّد، حياة ملتهبة، مُحفّزة، مليئة بلحظات لا تتكرّر، وبانفعالات فوّارة. كمْ حياة نحيا؟ أليس من الأفضل أن نشحنها بالحبّ والصداقة والمتعة ونحن نجري وراء ذلك «المطلق» المُتمنِّع عن السفور؟

صباحًا

قليلة هي الصباحات التي أفتح فيها عيني وأنا مرتاحة، منجذبة بعدُ إلى أجواء حُلميّة تجعلني في خفّة ريشةٍ على أهبَة التحليق. وأنا الآن على الفراش، أستطيع أن أسترجع مشاهد من الحلم الذي ترسّختْ بعض أجوائه في ذاكرتي. وجدتُني داخل هيكل سمكة والذين معي في جوْف الماء اللازوردي هم أيضًا يتقمّصون أشكال أسماك من صنف الشّابل، ونحن ندور ونلفّ حول بعضنا وأصواتنا الآدميّة لم تتغيّر. كلمات، تعليقات، وكأنّنا في لعبة مسلّية. في الآن نفسه، أفكّر بعقل الطبيبة المحلّلة: هل هذا الانمساخ إلى سمكة ناتج عن أنّني أمس فكّرتُ مليًّا في أنّ اللغة العربيّة لا تشتمل على مفردةٍ تُعيّن مُذكّرَ «سمكة»، والفرنسيّة لا تخصّص مؤنّثًا للسمك؟ ومع ذلك، نعرف أنّ هناك الذكر والأنثى في عالم الأسماك، وأذكر أنّ أبي كان حريصًا على شراء أنثى الشابل في موسم الربيع، وعلى المائدة يبحث في جوفها عن بيْضها ويقدّمه إليّ وهو يقول إنّ أكله يزيد من ذكاء الصبيان والصبايا. . . لكن، غير ممكن أن أوجّه أنا دفّة الحلم على نحو ما قال به بعض تلامذة فرويْد، من خلال التركيز على موضوع

معيّن قبل النوم. الأصحّ، حسب نظريّة فرويْد، هو أنّ منبع الحلم رغبةٌ لاواعية، تنبثق في عزّ النوم لتشوّش على الحالم وتنقله إلى أجواء غرائبيّة، مُسنّنة، تحتاج إلى نظريّات وآليّات لتأويلها! ليس هذا الاعتراض مُهمًّا بالنسبة للمتعة التي اقترنتْ بحلمي السمكي. رأيتُني إذن، سمكة تتلوّى في خفّة ورشاقة، ومن حولي وفي أعقابي جمهرة من الأسماك لا أميّز هويّتها إلّا عندما تكلّمني بلغةٍ بشريّة. طرِبَ الفؤاد وأنا أسمع صوت رجياني بلكنته الإيطاليّة يذكّرني بأيّامي الأولى في باريس، وبليلة فضّ البكارة التي دشّنتْ أنوثتي وجعلتني أحبّ جسدي والأجساد التي توقظ فيّ شهوة هي دائمًا على أهبّةِ الاشتعال. قال لي لماذا لا تأتين إلى فينيسيا؟ فهي مدينة شيّدتْها الرغبات النّزقة وأحلام عشّاق عابرين مثلنا. فينيسيا، يا عزيزتي نبيهة، هي حلم تولّدَ من معانقة البحر لِلْيابِسة. تعاليْ لنستعيد تلك اللحظات المُميّزة ونؤرّخ بها وجودَنا المستضيء بِغوايةِ المُتعة والتشهّي.

وفاجأني صوتُ السمكة/ سالم، حبيب أيّام العنفوان والبحث عن الذات، والتطلّع إلى تطويع العالم لمشيئتنا! قال إنّه ما يزال مرابطًا في باريس، تعوّد على طقوس الحياة الهنيّة، على الأنبذة المُعتّقة والأجبان المتعدّدة الطعم، على صحبة النساء الأنيقات، والاستظلال بالأجواء المخمليّة. . . قلتُ له إنّ الأيّام التي قضيناها معًا، هي تجربة السعادةِ التي نسرقها في غفلة من الزمان، قبل أن تتبدّى التعقيدات، وتتعارض المطامح ومسالك اللذة.

لكن ما أدهشني وبلبَلَ مشاعري وأنا في غمرة الفرح بتحوّلي

إلى سمكة تسبح في حرّيّة تامّة، هو صوت لا أتذكّر أنّني قابلتُ صاحبه، وهو يصرّ على أنّنا التقينا منذ عشر سنوات في الرباط، أثناء تقديم الأوركسترا السيمفونيّة الألمانيّة أعمالاً لكلّ من بيتهوفن وموزار. وأضاف بأنّ اسمه هو «طروب»، وأنّه درس الموسيقى في ألمانيا، وأصبح مؤلّفًا لمقطوعات وكونسيرتات تستوحي سجلّ الأنغام المغربيّة المتنوّعة، وأنّه ما يزال ينتظر أن أزوره في الوليديّة، حيث اقتنى بيتًا يواجه البحر... سيْلٌ من الكلمات والتفاصيل التي تتقاطع أحيانًا مع حياتي، لكنّني لم أستطع أن أتذكّر السمكة/الطروب، وإن كنتُ أحسستُ بانجذاب إليه، لأنّه تحدّث عن شعور عارم بالوحدة يُطوّقُه حيث يعيش منعزلاً أمام البحر أو في حضن الأنغام.

عند الاستيقاظ، كنتُ متدثّرة ما أزال، ببقايا هذه الأجواء المائيّة السحريّة، مشدودة إلى هيكل السمكة التي أتاحت لي أن أسبح في حرّيّة، متحدّثة بأعلى صوت، مراوغة سمكات تعترض طريقي، حذرة من حيتان قد تطمع في الْتِهَامِي. حرّيّة الحركة وأناقتها، زرقة المياه وديْمومتها التي لا تُطاولها عقارب الساعة ولا توقيت الزمان. ذلك ما سحرني في هذا الحلم السعيد؛ ومع ذلك ظلّت كلماتُ المؤلّف الموسيقي الذي لم يسبق أنْ قابلتُه، تطنّ في أذني: هل أنا بحاجة إلى رجلٍ في حياتي يملأ فراغًا يقلقني، ويشاطرني عبء الوحدة وعبء الجسد؟ تذكّرتُ ما قرأتُه في يوميّات أنييسْ نِينْ، منذ أيّام، وهي تحكي عن افتتان هنري ميللر بها وبجسدها: «**في المساء، دسّ هنري يديْه بِلُطفٍ بين فخذيّ وعلى مؤخّرتي وقال: مَنْ يمكنه أن يتخيّل أنّ امرأة لها**

عينان مضيئتان هكذا، وهي عذراء طاهرة، يمكن مع ذلك أن تمتلك ردفيْن مُكتنزيْن، وفرْجًا جدّ مُلتهب وَدغْلاً كَهْربائيًّا، هنا بالذات؟». مثل هذه الكلمات، تُنبّهني إلى أنّني في حاجة ربّما، إلى تحليل نفساني جديد؟

آخر النهار

الإقبال على عيادتي في تزايُد. سهرات الصالون ومناقشاته تُؤتي ثمارها لأنّ المُتردّدين على اللقاءات اكتسبوا تقليدَ الاستماع والمُجادلة في تأنٍّ ورويّة. يخيّل إليّ، بعد بضع سنوات من الممارسة، أنّ تأثير الصحّة النفسيّة على السلوك وَتوازُن الشخصيّة بدأ يَلْقَى اعترافًا، لأنّ الفرد، في خضمّ التحوّلات المتلاحقة، لا يقدر على مواجهة ألغاز الوجود وتقلّبات الأوضاع. أنا بدوْري، أسجّلُ ما هو مثير للتفكير في أحاديث الصالون، وأسْتجمع ما أستحصده من بوَحان المرضى، وأخطو على مهل لأستخلص ما يمكن اعتباره، ربّما، بمثابة مُكوّنات جوهريّة في سلوك الناس وطبائعهم.

إلّا أنّ ما يُثقلُ عليّ، مع أنّه شيء طبيعي، هو الشعور بالغُربة. أعرف أنّ الجميع يشتكي منها، وإن كان مدلول الكلمة يتبايَنُ حسب الأشخاص. أظنّ أنّ إحساسي بالغُربة متّصل بالمسار الذي قطعتُه على درب الحياة منذ خمسين سنة خلَتْ. ولا أجد غضاضة في أن أقول بأنّني أعتبر نفسي محظوظة، لأنّني استطعتُ أن أرسم طريقًا أعطى لحياتي معنى، إذ أصبحتُ طبيبة للنفس،

وهو مجال لا يختاره الجميع نتيجة للصعوبات والمخاطر التي تحيط به. لكنّني أنا وجدتُ فيه استجابة لأسئلة شغلتْني منذ بواكر المراهقة، ووجدتُ في الآن نفسه أنّه مجال يشدّني إلى الآخرين من حولي، ويفتح منافذ لبلورةِ تصوّر مقنع للغيْريّة. مِنْ أين إذن تسرّبت الغربة إليَّ؟ أميلُ إلى القول بأنّ دراستي في فرنسا، جعلتني أحظى بمُعاينة حضارة أخرى عن قُرب، عبر التفاصيل وطرائق العيش؛ وهذا ما أضافَ مسافة ثانية إلى تلك التي تفصل المثقّف والمثقّفة عن عامّة المجتمع وأغلبيّته. أعرف أنّ العالم أصبح، كما نردّد، قرية صغيرة، إلّا أنّ هناك فرقًا بين إدراك الفروق عن طريق السماع والأرقام ولقطات التلفزة، وبين المُعاينة التي تُتاح عندما نُقيم في بلدٍ أجنبي ونخالط أهله، ونتعرّف على نوعيّة القيَم السائدة، والمؤسّسات السياسيّة والاجتماعيّة التي تُدبّر الشأنَ العام إلخ... من ثم، كثيرًا ما تُداهمني الغربة لأنّني أشعر أنّني لا أنتمي إلى وطنٍ بِقدْر ما أنتمي إلى اختيار ثقافي/ مِهْني يتخطّى الحدود، ويعانق أفقًا للمعرفة يُعتبَر أفقًا كوْنيًّا! ولهذا أجدُني في حالة بحث دائم عن هويّة مُستعصية، منفلتة، لا تكاد تستقرّ عند بَرّ. في الآن نفسه، أحسّ بانجراف نحو تلك الأبعاد الواضحة والغامضة في آنٍ، التي تربطني بالمجتمع الذي نسجتُ ذاكرة طفولتي بيْن ربوعه. الغربةُ، من هذه الزاوية، مُساءلة مستمرّة لأفُقٍ وجوديّ، معرفيّ، لا أملك وسائلَ تُسعفُني على فكّ ألغازه، فأغدو تائهة، مُغتربة في شِعابِه.

يقولُ الراجي

لم أكن أنوي أن يكون صوتي هو ما تُختَتَم من خلاله الرواية، لأنّ أصوات الشخصيّات الأساس الثلاث، كافية لرسْم معالم سردٍ يُلملم مُكوّناتٍ تنقلنا إلى أجواء لا يتضمَّنُها الاستطلاعُ الذي أنجزتُه لحساب المؤرّخ الرحماني عن خمسين سنة من استقلال المغرب...

إلّا أنّ إعادة قراءتي لما كتبتُه عن مسارات توفيق الصادقي وفالح الحمزاوي وَد. نبيهة سمعان، وضعتني أمام أسئلة متشعّبة قد يكون إدراجها في نهاية هذا النصّ مُكمّلاً لما كتبتُه في شكل روائي ترسّخَ في ذهني عبر قراءاتي في هذا الفنّ التعبيري. أيضًا وجدتُ، ولعلّ هذا هو الأهمّ، أنّ ما أنجزته من توضيب للحوار وصياغة لِسيَر حيواتٍ سجّلها أصحابها مشافهةً، إنّما يخاطبني أنا قبل غيري. هُمْ سردوا ما عاشوه على امتداد عقود، واختاروا أن يكشفوا جوانب حميمة وأن يسكتوا عن أخرى... فعلوا ذلك من

موقع يُوحي بأنّ حياتهم دخلتْ في قالَبٍ شبْه نهائي، إذ ما من شيء سيُغيّر مجراها سوى المرض أو الموت.

أمّا أنا الذي سعيتُ طوالَ سنوات وراء تجميع شهاداتِ مواطنين فاعلين في ساحة المجتمع، ثم انتقيْتُ ثلاث شخصيّات تعشّمتُ في مسارهم دلالاتٍ كاشفة، واستمعتُ إلى سرديّاتهم وأعطيتُها شكلاً روائيًّا، فإنّ حياتي لم تأخذ بعْدُ قالبًا مُقفلاً، وما أزال أنتظر عملاً منتظمًا يسمح بتكوين أسرة والتطلّع إلى مستقبل. كأنّني نسيتُ أو تناسيتُ أنّ سنّي يحبو نحو الأربعين، وأنّ تصنيفي ضِمْنَ الباحثين أو المثقّفين الشباب هو أبعدُ ما يكون عنْ واقع الحال.

أنا أعيش في الموقّت منذ أنهيتُ دراستي الجامعيّة؛ وهو موقّت أصبح، خلسةً، وضعًا دائمًا تتغيّر بعض تفاصيله دون أن يكُفّ عن أن يكون موقّتًا! لذلك وجدت نفسي معنيًّا قبل غيري بالشخصيّات الأساس والفرعيّة التي ضمّنتُها روايتي: أيّ خانة أضع فيها نفسي قياسًا إلى تلك الشخصيّات؟ كأنّها الآن تُحاصرني. كأنّما وضعتْ أنشوطة حول عنقي وأخذت تُمسك بمُخنقي وتحبس أنفاسي. هي تُسائلني ليل نهار: أين موقعك في هذا العالم الصغير الذي سردتَ حكايات شخصيّاته، ونقلتَ أفكارهم وتأمّلاتهم؟ أم أنّك أيّها الراجي تُبيح لنفسك، من دون عِباد الله، أن تعيش من غير وضعيّة اجتماعيّة وَمهنيّة، من غير مورد ثابت، كأنّك ديكٌ يُنقبُ عن الحَبّ والزؤان أينما وجَدَهُما؟

انتبهتُ في الأخير إلى أنّني وقعتُ في ما يشبه فخًّا نصبْتُه لنفسي. أنا في المنطلق، كتبتُ الرواية لأنّني انجذبتُ إلى نصوص

سرديّة قرأتُها ووجدتُ فيها متعة واستفادة، فقلت مع نفسي: لِمَ لا أجرّب بدوري، خاصّة وأنّني عاطل عن العمل وفي ذلك ما يشغلني ويُبعدُ عنّي الكسل والاجترار... ثم إنّ مفهومي للتاريخ من خلال ما درستُه في الجامعة، كان أقربَ إلى معلومات ووثائق وتحليل للشروط الموضوعيّة التي تحدّد سياق الأحداث، وتبحث عن العِبَر التي يمكن أن نتزوّد بها من قراءة التاريخ. وكان هذا الأخير يقترن عندي، غالبًا، بأحداث موغلة في تعاريج الزمان، كثيرًا ما يستعصي الاحتفاظُ بها على ذاكرتي. لذلك، عندما كنتُ أشاهد أفلامًا سينمائيّة تاريخيّة، مثل «ظهور الإسلام» وَ«صلاح الدين الأيّوبي» وَ«نابليون بونابرتْ»، فإنّني سرعان ما أحتفظ بسحنات الممثّلين وأنسى تفاصيل الوقائع. لكنّني عندما بدأتُ أقرأ رواياتٍ تستوحي التاريخ المعاصر من خلال شكلٍ فنيّ يهتمُّ بزرْع الأنفاس في الشخصيّات لتبدو قريبة منّا، فإنّني بدأتُ أحسّ بنوع من القُرب والألفة معها، إلى حدّ التماهي أحيانًا، على نحو ما طالعتُه في ثلاثيّة نجيب محفوظ ورواية «سُلطانة» لغالب هلسا. وأظنّ أنّ انجراري إلى كتابة رواية هي مغامرة نشأت بذورُها من هذه المسألة المفصليّة المتّصلة بتحويل التاريخ إلى شيء ملموس، أليف ومُسلّ، لا أن نضفي عليه هالة من التجريد واللّغزيّة. وخلال انشغالي بجمع وثائق وشهادات عن المغرب طوال خمسين سنة من الاستقلال، لاحظتُ أنّ تراكُم الأحداث وسرعتها يجعلانهما يبدوان أقرب ما يكُونَانِ إلى التجريد والانتقاء، خاصّة عندما تعمد الدولة إلى اختيار مناسباتٍ مجيدة تجعل منها أعيادًا وطنيّة تُشيدُ بالأبطال والسلاطين والشهداء...

من هنا انبثقتْ أسئلة متناسلة قادتْني إلى كتابة هذه الرواية في شكلٍ مفتوح، يعتمد التجاوُر والتقاطُع والتوازي في بعض الأحيان.

وما أزال أذكر أنّ من بين التساؤلات التي احتلّت جزء من تفكيري، سؤالاً يقول: **على أيّ أساس نحدّد الشخص وَالحدَث اللذيْن يتركان بصَماتٍ على صفحة التاريخ؟**

وحينَ توغّلتُ في الكتابة، وأعدتُ قراءة ما سطّرتُه تحت تأثير حُميّا اكتشاف التعبير الروائي وشكله المَرنَ، المطّاط، بدأتُ أتساءل: هل الأشخاص الذين نفختُ في أرواحهم وأحييْتُ ذاكرتهم، هُمْ من صانعي الخمسين سنة الماضية، أم أنّهم مجرّد كراكيز لا وزن لها؟

بعبارة ثانية، هل توفيق الصادقي وفالح الحمزاوي ونبيهة سمعان، وَرُقيّة وصوفيا وحفيظ، والمُقاوم الهارب الذي أخفى نفسه في المطمورة عشرَ سنوات. . .، هل هؤلاء أسهموا في إضفاء صفاتٍ وتضاريس على تلك الفترة المديدة، أم الأقرب إلى الصواب، القولُ إنّني نسجتُ من محكيّات الشخوص التي قابَلتُها وسجّلتُ كلامها، مشاهدَ ولوحاتٍ جُدرانيّة تُسعف على استحضار لحظاتٍ من ذلك التاريخ، وقد غدا جزء من نسيج ذاكرتي أنا، وسياق حياتي الراهنة؟

ما خضّني وَأوقعني في بلبلةٍ مُضيّعة، هو أنّ الرواية حاصرتْني من كلّ جانب. أصبحت شخصيّاتها تسائلني وتدعوني إلى أن أحدّد رأيي فيها من خلال تقييم مواقفها وسلوكها، وأيضًا من خلال الإجابة على أسئلة تطرحها عليَّ أنا بوصفي إنسانًا له وضع معيّن

وسط المجتمع الروائي الذي تنتمي إليه تلك الشخصيّات! تعقيدات ومُناوشات وتحرّشات، لم أكن أتوقّعها، تنبعث من النصّ الذي قرأتموه، لتقضَّ مضجعي. لكن لا مناصّ، عليّ أن أواجهها وأحاول الإجابة عليها، قبل أن أسلّم الرواية إلى القارئ.

لا أخفي أنّني انجذبتُ إلى شخصيّة توفيق الصادقي وهو يحكي لنا عن فترة الحماية الفرنسيّة التي لم أعايشها لأنّني وُلدت بعدها بكثير، وربّما لذلك تجاوبت مع تجربته: شابّ حالم، حظيَ بالتعلُّم في مدرسة تهيّئ طلّابها للدراسة في باريس، يفقد والده فجأة، فيجد نفسه أمام مسؤوليّة العائلة وتطايُر ما خطّطه من أحلام. ومع ذلك، يزاوج بين العمل ومواصلة دراسته الجامعيّة بالمراسلة، ثم يمتهن المحاماة في مناخ مضطرم بمطالب الحركة الوطنيّة وكفاحها من أجل الاستقلال... لم يُبالِ توفيق بالمصاعب وصمّم على المُضيّ في تحقيق ما رسمه لنفسه، مُحافظًا على التوازن بين تقاليد أصيلة وَانفتاح على حضارة الآخر. غيْر أنّ الاختبار الذي وضعتْه أمامه ابنتُه فدوى كشفَ البذرةَ البطركيّة الموروثة عن الأسلاف، والتي دفعتْه إلى التشبّث أكثر بالماضي. مع ذلك، أحسستُ، في لقاءات صالون الدكتورة نبيهة سمعان، كأنّما هو يريد أن يُكفّر عن خطئه بالإصغاء إلى ما يحبَلُ به المجتمع في مطلع قرن جديد... نعم، يمكن أن أقول إنّني أحسّ بنوع من التعاطف مع الأستاذ الصادقي، لأنّه وهو في سنّ الثمانين، يبدو وكأنّه يُطلّ على المغرب من شُرفةٍ نائيةٍ تبَاعَدَ زمنُها عن أيّام مُجاورته للمُحتلّين الفرنسيين ومُحاكاتهم والتطلّع في الآن نفسه إلى التحرّر من وصايتهم وظلمهم... يُخيّل إليّ، أنّه يحمل بين ضلوعه شعورَ مَنْ

بقيَ بعد موتِ عصر شبابه وامّحاء وَهْم التألّق والازدهار. وشعورُ «المُستمرّ في العيش» يجعله أقرب ما يكون إلى المشلول أو الفاقد حماس اندفاعةِ الطموح والاستكشاف؟

تبقى مشاعري مضطربة حِيالَ فالح الحمزاوي: فعلى رغم أنّ فارق السنّ بيننا لا يتعدّى عشرين سنة، فإنّني لم أستطع أن أنفذ إلى أعماقه. انجذبتُ إليه أوّل الأمر، لأنّه كان يمثّل فئة الشباب المتمرّد داخل الأحزاب، والمُندفع في المطالبة بالتغيير والحداثة. وما حكاه لنا عن مساره، يعيدُ إلى الذاكرة صورة كوْكبةٍ من المناضلين الذين عادةً مَا يلمعُ نجمُهم في الساحة الطلّابيّة ثم في فسحة الدفاع عن المعتقلين السياسيين، قبل أن يظفروا بمسؤوليّة على رأس مؤسّسة رسميّة، أو يُصبحوا وزراء مُستنيرين في حكومةِ تناوُبٍ تُقبر جرأتهم وجذريّتهم وسط ردهاتٍ أعَدّها المخزنُ لزبائنه الطامحين... لم يتقلّد فالح الحمزاوي منصبًا، إلّا أنّه أدرك قواعد اللعبة، فنأى بنفسه عن الدخول في طبخةٍ مولويّة لا تقيّدها شروط، وتتنبّأ بدايتُها بنهايتها. وفي الآن نفسه، عرفَ كيف «يدور مع الزمان في دورته ويضحك للقِرد في مودّته»، واكتفى بدوْر المُبرقش الذي يخلط كلامه بمفاهيم مُتباينة ويبرع في مزْج الساخن بالبارد! أدرك فالح أنّ ثقل المخزن وجبروته ما يزالان قادريْن على أن يُعيدا كلّ متجرّئٍ إلى حجمه وصمته، فأخذ يُبرقش خطابه وسلوكه، فيمزج مبادئ اليسار بتحفُّظات اليمين، ودبّر لابنه ما يغنيه، في مستقبله، عن «مذلّة» النضال وشحذ المناصب. وعندما سألت فالح، في الفترة الأخيرة، عن أخبار صديقه «حفيظ»، قال لي إنّهما لا يلتقيان كثيرًا لكنّه يحادثه هاتفيًّا من حين لآخر. أضاف بأنّ

صديقه يعيش منعزلاً وينطوي على خيبةٍ لِمَا آلتْ إليه أوضاع الحزب، مُكتفيًا بدوْر الملاحظ من بعيد. عزَفَ عن الزواج واقتصر على علاقات عابرة أو مستحيلة مع زوجاتٍ باحثات عن لحظاتٍ رومانسيّة تلاشتْ مع الزواج! سكتَ فالح قليلاً ثم قال بأنّ حفيظ تحمّس أوّل الأمر، لمظاهرات شباب ٢٠ فبراير، واعتبرها منطلقًا لتبْديدِ اليأس وفرْض إصلاح جذريّ كان الجميع يتطلّع إليه. غير أنّ الالتباسات التي أحاطت بالهَبّة الربيعيّة، والالتفاف عليها من لدُنِ قوّى محترفة، أفقَدَها الألق والنفَسَ الطويل. لذلك جنَحَ حفيظ إلى القول بأنّ الشروط لم تنضج بعد، وإنْ كان الشباب قد برهنوا على أنّهم المؤهّلون، بالدرجة الأولى، للجهْر بالحقيقة ووضْع اليد على مكامن الفساد. «فوقاشْ مّا جا الخير ينفعْ» يردّد حفيظ الآن. وما دامت الأبواب موصدة في وجه الشباب، ووعود المخزن كاذبة ومُخاتلة، فإنّ انتظارنا لن يطول...

أمّا الدكتورة نبيهة سمعان، فقد استحوذتْ على إعجابي وتقديري لأنّ الطريق الذي اختارته للتعبير عن نفسها يلامس مسألة حيويّة أفتقدُها أنا شخصيًّا لدى معظم المغاربة الذين التقيتُ بهم. أقصد أولئك الذين يتحاشوْن الكلام عن أحوالهم ومشكلاتهم، ويتنصّلون من الجهر بآرائهم... أجد دائمًا لديهم نوعًا من التحفّظ يُكبل التعبير الحرّ، التلقائي. وإذا خاضوا في الكلام، اقتصروا على القضايا العامّة واحتموا بالتجريد. أمّا داخل الصالون فقد أحسستُ أنّ كلّ واحد وواحدة لا يخجلان من أن يتحدّثا عن نفسيْهما وأن يضربا المثَل من وقائع عائليّة. وقد بذلت الدكتورة نبيهة جهدًا لإقناع رُوّاد الصالون بأنّ الحوار لا يكتمل إلّا عندما

نجعل ذواتنا حاضرة فيه. حينئذ يحسّ كلّ واحد أنّ الآخر إنسان مثله، له مشاكله وله ساعات الفرح والهرب من متاعب الدنيا. . . في كلّ لقاء أحضره بالصالون، أحسّ أنّ د. نبيهة ممتلئة بأحلام جديدة، وأنّها تسعى إلى ابتداع مسالك تجعلها قيْدَ التحقيق. هي لا تنظر فقط إلى الظرفي، الرازح على أكتاف الحياة اليوميّة، بل تنقلنا دومًا إلى ذلك الممكن الثّاوي في أعماقنا ووعْينا الغافي.

إلّا أنّ ما يحشُرني في الزاوية، كما يُقال، هو وضعي أنا، مساعد المؤرّخ، الذي تحوّل بالصدفة إلى كاتب روائي. لقد جاوزتْ سنّي الثلاثين وما أزال أعيش في الموقّت الذي شيّدتْ معظمَه الصدفة أكثر ممّا خطّطت له الإرادة. وأظنّ أنّني توهّمتُ في البدء، أنّ هذا الموقّت دائم، لكن هيهات! يكفي أن أفتح عينيّ قليلاً لأرى أنّ رقيّة منصرفة تمامًا إلى متجرها، وأنّ خُلوتنا الغراميّة ـ الجنسيّة تغوص في رتابةِ علاقةِ الأزواج. ومن حين لآخر، تُعرب لي عن رغبتها في أن تُنجب صبيًّا أو طفلة يزرعان البهجة في حياتها. . .

وصاحبة الصيدليّة، العشيقة المتستّرة على اسمها، تتباعَدُ مواعيد لقاءاتنا، وحين نلتقي لا تنفكّ تتوغّل في المرارة والتحسُّر على الأيّام التي أمضتْها في فرنسا.

وسناء، المفتونة بلندن، تقلّصتْ زياراتها. . . وأنا هنا أمَنّي النفس بالحصول على عمل منتظم يمنحني الاعتبار والاستقرار. أحسُّني أقرب إلى «هاملت» الشغوف بالكلام، العازف عن الفعل. ما فائدة فعلٍ يفتقد الكلمات التي تسنده، تبرّره، تُنجحه؟ مثلما أنّ

الكلمات قد تخطئ مرماها، الفعل العشوائي أيضًا قد يقود إلى التهلكة. لكنّ الكلام قابل للتعديل والمراجعة والتصويب. وأظنّ أنّ الضبابيّة التي صادفتُها عند الكثيرين مِنْ مُجايلي الخمسين سنة الماضية، إنّما هي ضبابيّة تعود إلى شُحّ التعبير وعدم مراجعة الكلمات والأخطاء القاتلة على ضوء المتغيّرات. هكذا، كلّما تراءى لهم فعلٌ مُنقذ، عانقوه دون أن يتمثّلوه عبْر كلمات ملائمة، مقنعة؛ وسرعان ما يتبيّنون أنّه كان فعلاً كاذبًا، فينقلبون إلى منتظرين لِمَنْ يُلوّح لهم بـ «فعلٍ» منقذ!

أنا الآن مُقتنع أنّ شجرة اليقين الموروثة قد نخَرَها الشكّ وَزعْزَعَتْها العواصف. لا مناص من أن أوليَ اهتمامًا جوهريًّا للكلام الباحث عن تواصُل يستند إلى الإقناع والمقارنة بين الأفعال والخطابات التي تعرضها سوقُ مُحْترفي السياسة ودُهاةُ المخزن ومستشاروه. لم أعد أملك سوى ذلك، لولا أنّ اللامتوقع حَدَثَ فأذهل الجميع. كما قلتُ آنفًا، كدتُ أيأس من طُول الانتظار وأنا أتشبّث بالموقّت الذي يمنحني لحظات بهيّة تشحن النفس وتعيد لها الإقبالَ على الدنيا. فجأة، من دون أماراتٍ مُنبئة، انفجرت أصوات الشباب في ميادين تونس والقاهرة، ثم في الدار البيضاء والرباط، ثم في صنعاء والبحرين وكلّ أرجاء سوريا... شعاراتٌ قد تتبايَن كلماتها قليلاً، لكن لغتها لا تُهادن أو تُداري: لغة تُسمّي الداء، وتجهر بالعلاج الباتر للعِلَل. سارعتِ الصحفُ ووسائل الإعلام السمعيّة والبصريّة إلى تعميد انفجارات الشباب بالربيع العربي، على غرار ما أطلقتْه من تسميات مشابهة على انتفاضات حدثت في بعض أقطار أوروبا الشرقيّة أيّامَ الأمبراطوريّة السوفياتيّة. لكن ما يحدث

الآن، هو إعلان عن ولادة جديدة لمجتمعات عربيّة بلغتْ سنّ اليأس، وكادتْ أن تفقد الأمل في إنجابِ مولود من صُلبها، يجدّد الشرايين ويُطلق النهضة المؤجّلة منذ قرنٍ من الزمان، ويستأصل طبائع الاستبداد.

كيف لمْ أخمّنْ، أنا مساعد المؤرّخ، الولوعُ بالتأمّل في التاريخ والحركات الاجتماعيّة، أنّ الأبواب الموصدة في المجتمعات العربيّة، ستُفضي إلى هذا الانتفاض المطالب بالكرامة والحرّيّة ونبْذ الوصاية؟ كان يخيّل إليّ أنّني سأفارق الحياة دون أن يطرأ ما يفتح بابَ الرجاء في مجتمعات تكلّستْ، واستوطن الطغيانُ في جنباتها. وحدثت المفاجأة فغمرتْني الصحوة، وجعلت أقول مع نفسي إن حّياتي تكتسب منذ الآن معنًى لأنّ القيم التي كنتُ أراهن عليها خلسة، غدتْ مُنتشرة في ضوء الشمس، تهدر بها حناجرُ شابّة كأنّها الطوفان المُخلّص. . .

في نهاية السنة الثانية من انتفاضات الشباب في المغرب، اتّضح أنّ المخاض العارم تكشّف عن ولادة عسيرة، وأنّ الانتظار قد يطول قبل أن تكتمل معالم المولود الجديد. لكنّني لم أفقد تفاؤلي، إذ مَنْ كان يظنّ أنّ صرخة الولادة ستنبثق مِن حيثُ لا أحد كانَ يحتسب؟

حين ذهبت عند الأستاذ الرحماني لأسلّمه نتائج الاستطلاع الذي كلّفني به، وجدتُه حائرًا، ضائعًا وسط أنباء الانتفاضات الشبابيّة. . . سألني مستطلعًا عن حركة ٢٠ فبراير، فقلتُ له إنّ شعاراتها تلقى الترحيب والاهتمام من الرأي العامّ؛ ولعلّني

أسرفتُ قليلاً في التفاؤل بما ستحقّقه هذه الحركة. عندئذ اتّخذ الأستاذ موقفًا متحوّطًا، لأنّه يرى، حسب تجربة عمره المديد، أنّ المخزن يشبه قطًّا بسبعة أرواح. قال إنّ لعنة المغرب هي المخزن الذي يتلبّس أزياء متعدّدة ليستديمَ الامتيازات والسلطة المطلقة والتقاليد الماضويّة... وعندما لاحَظَ أنّني أستميت في الدفاع عن حركة الشباب، أخذ يُجيبني بعبارات تجمع بين الحكمة والاستبشار:

«وايّيهْ، معك الحقّ. هاد الشي اللّي تتقول كلّه صحيح. إنّما لازم نْحلّو عَيْنينا باش نشوفو بأنّ الواقع تيمشي في اتّجاه أخور.

«وايّيهْ، معك الحقّ أسّي الراجي، إنّما حْنا ما زالينْ عايشينْ في عهد الباطَلْ».

«وايّيهْ، أنا متّفق معك باللّي هاد الحالة ما بْقى فيها ما يترفَدْ باللّقّاط؛ إنّما لازمْ نزيدو نصبرو حتى تْجي نوبتنا...».

الأهمّ، بالنسبة لي، هو أنّني عقدتُ العزمَ على أن أطلّق الموقّت، وأختار لنفسي طريقًا يجعلني ملموسًا في حضوري بين الناس، ومدافعًا عن مستقبلي. أحسستُ أنّ كتابتي لهذه الرواية كانت بمثابة طوْق نجاة، لأنّها وسّعتْ مجال الرؤية وجعلتني أدرك، من خلال لقاء أنماط بشريّة مُتباينة، أنّ هناك جدليّة تفعل في السرّ والعلَن، تُذكي حركة التغيير، وتُفتّت التقليدانيّة، وتنخُرُ شهوة الطغيان.

ماذا يمكن أن أفعل أمام الأبواب الموصدة؟

وجدتُني أتمتمُ: لِمَ لا أحترف كتابة الرواية، على رغم انتشار الأمّيّة ورواج ثقافة التسلية وَ«الكيتش»؟

لا أستطيع في الوقت الراهن، الانخراط في عملٍ حزبيّ مهما عَلَتْ نواياه اليساريّة، لأنّ طبقات من التمويهِ تكسو سماء السياسة عندنا، وتُدثّرها بلُزوجةٍ تُضاعِفُ الحيرة والضياع. لكن، في انتظار أن تنجلي الغيوم ويشحذ الشباب ذكاءهم، يمكن أن أعانق الكتابة وَالحُلم. وهو أمر ليس هيّنًا لأنّ صعوبة الوصول إلى القرّاء تقتضي منّي، أنا الآخر، أن أشحذ همَّتي وأبحث عن شكل يستطيع أن يثير اهتمام القارئ المُحتمل.

تُراودني فكرةُ أن أحوّل محكيّاتي الروائيّة إلى نصّ شفويّ أتلوهُ بصوتٍ مرتفع، صحبة عازف على الكمان، مُستفيدًا من أساليب الرواة في ساحة جامع الفنا بمدينة مراكش. إلّا أنّ ما سأحكيه عندئذ، يكون مستمدًّا من وقائع طريفة، ترصد مواقف الناس وهُمْ في مواقف محدّدة... على هذا النحو، يمكن أن أبلور رواية شفويّة ومكتوبة في الوقت نفسه، تتكرّر شخصيّاتها وتتَغايَرُ لغتُها، على نحوٍ يُشبه ما عُرف في الأدب الشعبي بالشاعر الجوّال، أو القوّال، الذي يسرد ويُغنّي ويمتطي صهوةَ الكلام.

أحيانًا أخرى، أفكّر في رواية أسردها داخل لقاءات محدودة، في فضاء يشبه صالون الدكتورة نبيهة؛ إلّا أنّه يكون متنقّلاً عبر أرجاء المملكة، وأبيع نسخًا من النصّ المكتوب...

أفكار مُتضاربة تحاصر ذهني وأنا أفكّر في احتراف كتابة الرواية داخل سياق صعب، مُضادّ للإبداع. لكنّني أردّد ما قاله

الكاتب الإيطالي كالفينو: «علينا، وسط الجحيم، أن نتعرّف على ما ليس بجحيم ونُخصّص له الحُبّ والوقت». أنا أمتلك كلّ الوقت، وتجربة كتابة هذه الرواية مدّتْ جسورَ حُبّ بيني وبينها، بيْني وبين مَنْ سيقرؤونها. لذلك، ستكون هي أحسنُ وسيلة تُخرجني من جحيم الانتظار وبُهْتان الخُطَب المسكوكة.

ستكون كتابةُ الرواية هي اختياري، لأنّ إنتاج عمل إبداعيّ يحرّرني من عذاب الوقت والانتظار، وسيمنح القرّاء والمستمعين حرّيّةً تتحدّر من طاقة انفعاليّةٍ تحرّرنا من الاستلاب والتشييئ وبلادة الروح والجسد.

على درب الرواية المسموعة، سأستطيع أن ألوّنَ صوتي وتعبيراتي بين الهمس والفحيح، بين التقمّص المنفعل وَالسرد المُحايد، بين الصمت والصراخ.

نعم، أحبّ أن أصرخ عبر مواقف الرواية صرخاتٍ تُعانق ذلك المكبوت، المكتوم في شُغاف القلب وَثنايا الذاكرة.

الصرخة هي أكثرُ من تعبير.

هي تجسيد لما لا نتمكّن من تدجينه داخل كلمات.

لا أعرف ما الذي يمكن أن أصرخ به؛ إنّما أعرف أنّ الضوْضاء الكثيفة من حولي، ستجعلني أصرخ ضدّها: ضدّ التكبيرات والتهليلات والابتهالات والولاءات المتدفّقة في كلّ ساعة وَحين. ضدّ الاستنجاد بمَنْ في السماء. ضدّ الآباء الذين لا لغة يَلوكُونَها سوى ما ورثوه عن الأجداد.

هي ضوْضاء تشلُّ العقل والأحاسيس فنغدو أشبه بأجساد آليّة مشحونة بأحاديث وأمثال ونصائح تنتمي إلى عصورٍ خلَتْ.

ضدّ كلّ ذلك سأصرخ لو قُدّر لي أن أكتب رواية مسموعة أُمسْرحُها وأتلوها على مسامع أناسٍ يتيهون في الطرقات والساحات، ويتطلّعون إلى ضوء يغسل الأدران والغبار.

بعد الصراخ، يحلّ فصلُ السُكات حيث تنضج الأحلام، وتتوثّق الخُطى، ويبزغ الإصرارُ على معانقة الصمت الفعّال.

محمّد برادة

٧ ـ ١١ ـ ٢٠١٣ بروكسيل/ لاليكْ

أربع شخصيّات من أجيال متباينة تستعيد مسارها، على خلفيّة أكثر من خمسين سنة مرّت على استقلال المغرب. هذه الرواية هي نتيجة تجربة عاشها الشابّ «الراجي»، الذي كلّفه أحدُ المؤرّخين بتجميع آراء الناس في مستقبل المغرب، فانجذب إلى كتابة روايةٍ تستوحي مسار ثلاث شخصيّات: توفيق الصادقي (وُلد سنة ١٩٣١)، والمحامي فالح الحمزاوي والدكتورة النفسيّة نبيهة سمعان (ولدا سنة ١٩٥٦). ما بين فترة الحماية الفرنسيّة ونصف قرن من الاستقلال، تبدّلت القيم، وامتزجتْ أسئلةُ الهويّة بالتطلّع إلى مجتمع العدالة والتحرّر، فيما احتدم الصراعُ بين سلطة «المخزن» الماضويّة وتيّار الحداثة المعوَّقة. بين التاريخ والتخييل، تبتدع الذاكرةُ شرفةً للتأمّل ومزجِ الكلام الحواريّ المبلوِر لوعي جديد: وعيٍ ينبت بعيدًا من الضوضاء، يسعفه السكاتُ على التقاطِ ما وراء البلاغة الجاهزة ويقوده إلى استشراف ربيعٍ في المخاض.

وُلد محمّد برادة (١٩٣٨ ــ ...) في الرباط، ثم انتقل إلى فاس حيث عاش طفولته. روائيّ وقاصّ وناقد ومترجم. أصدر الروايات التالية: "لعبة النسيان"، "الضوء الهارب"، "مثل صيف لن يتكرّر"، "امرأة النسيان"، "حيوات متجاورة". وله مجموعتان قصصيّتان: "سلخ الجلد"، و"ودادية الهمس واللمس". يعيش حاليًا في بروكسل.

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-296-2
9 789953 892962

تصميم الغلاف ريم الجندي